بنت بطوطة

المغامرات البحرية

obeikandl.com

obeikandl.com

فهرس

صفحة

مقدمة ٣

آلان جربو . . . . . ٥ — ١٢٢

الطراد إمدن . . . . . ١٢٣ — ٢٠٢

عائشة . . . . . ٢٠٣ — ٢٤٩

obeikandl.com

مقدمة

البحر تعبير سما على بقية التعبيرات إسما ومعنى ؛ فهو مهد الكائنات ولحدها ، ومبعث الأمل ، ومنشأ اليأس ، يختار لنفسه من يشاء من الناس فيسعده ويعلي من شأنه ويرفع من صيته .

إن قلب المرء في فتاء سنه ليهتز طرباً لرؤيته ، كما يهتز قلب العاشق الولهان عند مشاهدة محبوبه وإن اشتعل الرأس منه شيباً ، فلا يزال ذلك الفؤاد يضطرب حناناً إلى ذكرياته وإلى صدى صوت أمواجه المتلاطمة .

إن للبحر قضاء امتزجت قسوته بعذوبته ، وسخريته بعطفه ، حتى ليعز على المرء أن يضرب عنه صفحاً أو أن يثني عنه بعطفه . إننا نلجأ إليه دائما بأيد مبسوطة وقلب ملتهب ، يزداد ضرامه عند ما نقف مسيطرين على الدفة .

إن الرجل — وهو قابض على الدفة — رمز للنبل والشهامة . فكلما ابتعدت عنه الأرض كلما زالت عن نفسه الصغائر . فالبحر كفيل إذن بتنقيته من رذيلة الزهو والخيلاء . وكلما اتسع الأفق في عينيه كلما اتسع في بصره جو الفضاء ، وأصبح رجلا كاملا .

إن الرجل وهو ممسك بالدفة يعرف كيف يسيطر على

زمام الأمواج الهائجة ، والمياه المائجة ، وكيف يحترز من جزواته ، وكيف يرتفع إلى جهات قلما ارتقى اليها غيره . فإن عقله لوضاء . والبحّار ، عندما يلمس ببصره القبة الزرقاء ، يعرف كيف يبذل إلى خالقه أعز شيء لديه بقلب ثابت يعجز عن بذله أخوه الذي يدب على الأرض .

ولقد حاولتُ — في هذا الكتاب الذي أهديه إلى أبنائي وإخواني البحارة المصريين — أن أقص عليهم ، قدر المستطاع ، حياة بعض رجال البحر المليئة بالمغامرات والكفاح ، من ملاحين جابوا البحار بمفردهم بقدم ثابت وعقيدة راسخة ، ومن ضباط البحرية الأجنبية الذين سجلوا شجاعتهم بحروف من ذهب في سجلات التاريخ البحري الحديث ، من رجال أعمال ، رجال قلوب وألباب ، رجال تأكدت رجولتهم ، وصدقت عزيمتهم . . . . رجال البحر .

بنت بطوطة

جواب البحار الكبير

آلان جربو

ALAIN GERBAULT

يمن الله عز وجل على بعض من يتخيرهم من عباده بنعمة الشعور الغريزى الذى يدفعهم إلى حب البحر ، ذلك الشعور الذى يفوق فى شدته بقية الغرائز والميول .

وقد يلذ للسواد الأعظم من الناس أن يرمى هذا العدد الضئيل من أولئك المختارين ، بالجنون ، لأنهم غامروا بأرواحهم فى تجواب البحار بمفردهم[1] على ظهر سفن

---

(١) أول هؤلاء البحارة الذين اعتادوا السفر بمفردهم هو كابتن أحوزوا سلوكم Joshua Slocum من أهالى اسكتلندا الجديدة Nouvelle-Ecosse وعندما اخترعت الآلات البخارية فى أواخر القرن التاسع عشر ترك سلوكم ركوب البحر كـكثيرين من إخوانه متقنى فن قيادة السفن الشراعية ، ورغم اضطرار « سلوكم » إلى العيش مدة سنتين أو ثلاثة على سطح المعمورة ، فانه لم يألف الحياة فيها . وفى سنة ١٨٩٢ ، داعبه أحد أصدقائه بأن أهدى إليه سفينة شراعية بالية من نوع « السلوب » « Sloop » كانت عرضة للآكل فى حقل بجوار نيوجدفورد New-Bedford فقبلها « سلوكم » وأصلحها بيديه وجربها فى يوم صيد جامع ثم أبحر بهذه السفينة ووزنها ١٢ طنا وطولها ١٢ مترا فى سنة ١٨٩٥ بمفرده بعد أن أطلق عليها اسم « سبرى » Spray ليجوب بها الكرة الأرضية وهى أول محاولة من نوعها . فعبر الأطلنطى الشمالى فى ٢٩ يوما ووصل إلى جبل طارق حيث اتجه إلى الغرب قاصدا « راس هون » Cap Horn عابرا المحيط الهادى لينتهى برحلته نحو الغرب إلا أنه غرق بسفينته فى هذه المحاولة .

صغيرة ، تتطاير القلوب هلعا عند رؤيتها والعواصف تلعب بها لعب الصبي بالكرة ، قاصدين قارات بعيدة ، دفعتهم اليها أمزجتهم وأخيلتهم الجبارة وعزمهم الذى لا ينثنى .

وخير من نضرب به المثل فى هذا المقام البحار الفرنسى « آلان جربو Alain Gerbault » فهو أحد رجال البحر المعاصرين لنا ، الذين امتازوا على أقرانهم بحوب البحار بمفردهم .

قضى « آلان جربو » ميعة الصبا على سواحل البحر فى « بريتانى Bretagne » حيث تملك أسرته ضيعة بالقرب من ثغر « سان مالو Saint- Malo » الذى يؤمه الصيادون والذى كان يلجأ إليه من قبل ، أكابر القراصنة الفرنسيين[1] فى

(١) « جاك كارتيه » Jacques Cartier (سنة ١٤٩١ — ١٥٥٧) بحار فرنسى ولد فى سان مالو St. Malo وصل إلى كندا والأرض الجديدة Terre Neuve سنة ١٥٣٤ واستولى عليهما باسم ملك فرنسا مع أنه سبق « لسباستيان كابو » Sébastien cabot ا كتشاف سواحل هذين البلدين و « كابو » بحار من أصل بندق كان فى خدمة ملكى انجلترا هنرى السابع والثامن .

« دوجى تراون » Dugay-Trowin (سنة ١٦٧٣ — ١٧٣٦) أميرال فرنسى اشتهر اسمه فى الحروب البحرية التى شنها لويس الرابع عشر ملك فرنسا .

« روبير سيركوف » R. Surcouf (سنة ١٧٧٣ — ١٨٢٧) من أشهر القراصنة الفرنسيين . ظل مدة من الزمن ، يرغب البحارة الانجليز حيث استولى على كثير من سفنهم . ولا تزال مغامراته موضع قصص خرافية شيقة .

القرن الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر .

ويقص علينا « آلان جربو » فى كتابه « بمفردى عبر الأطلنطى (Seul à travers l'Atlantique) : كيف أصبح بحاراً (عندما كان أبى لا يصحبنى معه فى يخته ، كنت أعمل جاهداً على قضاء اليوم فى زورق أحد صيادى مدينة « بريتانى » الذين يترددون بين ثغر سان مالو وسواحل « الأرض الجديدة (Terre Neuve) والمناطق المسمكة فى « ايسلندا » Islande وكنت أحسد هؤلاء البحارة على طريقة معيشتهم ، وأرتعد عند سماع قصصهم التى تتجلى فيها الشجاعة والجلد والإقدام بأبهى معانيها . إنى تعلمت منهم كيف أحب البحر والأمواج المتلاطمة ، والأعاصير الجامحة فى مرفأ « سان مالو » (St. Malo) « ودينار » (Dinard) .

بعد أن قضى « جربو » هذه السنين اليانعة من طفولته على ساحل البحر بصحبة الصيادين الذين أحبهم حباً جماً ، اضطر — إطاعة لأوامر والديه — أن يلتحق فى باريس بكلية « ستانيسلاس » (Stanislas Collège) ، الأرستقراطية التى لا تضم بين جدرانها إلا أولاد الأعيان من سكان العاصمة الفرنسية ، بيد أنه ملها شيئاً فشيئاً ولم يطق الحياة فيها طويلا ويقول فيها : « هنا أمضيت أسوأ سنى حياتى بين الجدران الشاهقة ، وكنت أحلم بالعالم المتسع الفياض بالحرية ، الملىء

بالمغامرات . ولكن كيف الخلاص ؟ لا بد لى من المذاكرة لأصبح مهندساً كرغبة والدى » .

ولما قامت الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ ، انضم « جربو » إلى سلاح الطيران ، وكانت النشوة التى يشعر بها وهو يحلق بطائرته فى الفضاء ، تذكره بحركة البحر السرمدية . وفهم عندئذ أنه يستحيل عليه العيش فى جو المدن الصاخب : « إن الحرب كما يقول ، أخرجتنى من عالم المدنية ولا أطمع فى الرجوع اليه » . وكره « جربو » طيلة شبابه مدنية المجددين الخاوية ، بما فيها من ضجيج وعجيج ، تلك المدنية القائمة على الاختلافات والمشاحنات حتى أنه بُغّ المجتمعات وكرهها .

وفى ذات يوم ، أعاره زميل له من فرقته ، وهو شاب أمريكى ، كتابا « لجاك لندن » (Jack London) اسمه رحلات سمارك البحرية (La Croisière du Smark) » .

كان هذا الكتاب فتحا له وإلهاما . حيث علم بعد انتهائه من قراءته ، أن فى قدرة الانسان الطواف حول الكرة الأرضية على متن سفينة صغيرة الحجم . ومنّ نفسه بهذه المغامرة ، واتفق مع زميلين له على تنفيذها إن هم ظلوا على قيد الحياة بعد الحرب .

ولكن الحرب ، بعد أن وضعت أوزارها ، حرمته من زميليه . وعاد إلى « جربو » حنينه إلى البحر ، وامتلك لبه

حتى أنه ، بعد وفاة والدته التى كان يجلها إلى درجة العبادة ، انكمش فى نفسه من اليأس ، وترك نهائيا الدراسات الهندسية التى جبر عليها ، مؤثراً عليها جوب البحار .

ظل « جربو » يبحث سنة كاملة فى الموانىء الفرنسية الشمالية الجنوبية ، على سفينة صغيرة يسوسها بنفسه دون مساعد ، ولكنه لم يعثر على ضالته المنشودة إلا فى اليوم الذى قادته قدماه إلى زيارة صديقه « رالف ستوك » « Ralph Stock » فى يخته [1] حيث اكتشف فى إحدى الثغور الانجليزية ، سفينة أحلامه « الفاير كرست » (Le Firecrest) فاشتراها .

يقول « جربو » : « اتجهت بسفينتى فوراً إلى جنوب فرنسا تاركا انجلترا فى الوقت الذى أبحر فيه « شاكلتون » [2] (Shackleton) ليلقى حتفه . أما سفينتى فقد احتملت الأعاصير الشديدة فى خليج « جسكونى (Gascogne) فتحققت عندئذ من أن الأعاصير لن تقوى على الوقوف فى سبيل سفينتى « الفاير كرست » .

لم يكن لدى « جربو » خلال سنة كاملة ، إلا مساعداً انجليزيا صغيراً ، استغنى عن خدماته بعد حين . وتمكن خلال هذا

---

(١) مؤلف كتاب « الدر La Croisière du Dreamship

(٢) أرنست شاكلتون المكتشف الايرلندى للمناطق الجنوبية ، والمتوفى سنة ١٩٢٢ .

العام من القيام بعدة رحلات بحرية فى جنوب فرنسا ، كما ظل أثناءها مواظباً على تمريناته الرياضية ، ولما كانت هوايته للعبة «التنس» متغلغلة فى نفسه ، كان يتحين الفرص ليلعبها مع صديقه البطل « جان بوروترا » (Jean Borotra) على ساحل «الكوت دازور» (Côte d'Azur) .

وعندما استيقن « جربو » من قدرته على احتمال المشاق والمتاعب الجثمانية والنفسية ، اندفع بميله الطبيعى — لا بدافع الزهو والفخر — إلى المغامرات التى لا يصدقها العقل فقاذف بنفسه ليعبر بمفرده ، دون أن يتوقف أو يلجأ إلى ميناء ، منذ إبحاره من الإطلنطى الأوربى إلى أن وصل إلى أمريكا على متن سفينته الشراعية .

كل من ركب السفن الشراعية هنا وهناك ، سواء فى « كان » (Cannes) أو « سان سيباستيان » (St. Sébastien) أو « كوز » (Cows) أو جاب عرض بحرنا الأحمر أو غيره من البحار ، يعلم أن نوع السفن الشراعية المسمى « كوتر » (Cotre) يفضل جميع الأنواع الأخرى بفضل عمق قاعدته وتركيب جزئه الأسفل على نمط خاص ، ليحول دون انقلابه بسهولة كما يستطيع الإنسان قيادته بنشر أصغر شراع لينطلق به بسرعة ، فائقة وهو فى مأمن من الخطر . ولقد يزداد إعجابنا « بجربو » عندما نراه يواجه الصعاب بقدم ثابت لقطع مسافة ٨٥٠٠

كيلو متر بين أمواج الماء المالح .

إنها فى الواقع مجازفة تستحق الذكر ، إذ لابد لهذا المغامر من قلب فولاذى تمتزج الشجاعة فيه بالحزم ، والإقدام بالحرص ويندر لغير « الان جربو » الذى جبل على حب البحار وعشقه — أن يضارعه فى هذه المنزلة .

وفى استطاعتنا أن نشبه « الفايركرست » بقشرة الجوزة المجوفة ، فهى عبارة عن سفينة صغيرة صنعت من خشب السندان وخشب « التك » (Teak) وضاقت جوانبها بقدر ماعمق أسفلها ، إلا أنها تشابه فى جودة أصلها ، الخيل العراب ، فطولها ١١ متراً وعمقها ١,٨٠ سم ، وتحمل فى قاعدتها ثلاثة أطنان من الرصاص ، وثلاثة أطنان من « الصابون » فى داخلها ، وليس لها إلا صارية واحدة . ولما كان سطحها لا يتسع لوضع زورق نجاة كما تليه تعليمات المعاهدات وبنودها ، فقد اكتفى « جربو » بزورق صغير جداً من نوع « البرتون » (Berthon) طوله ١,٨٠ سم ، ويمتاز بقابليته للانطواء ، وهو أقرب ما يكون من زوارق النجاة التى تتزود بها الغواصات . ومتى طوى هذا الزورق ، فانه لا يشغل حيزاً ، حيث يمكن تعليقه فى طاقة السفينة . ولكن خبرونى بالله ما فائدة النجاة من الغرق ، إذا غاص من البحّار أعز شىء لديه فى الدنيا ، أعنى سفينته ؟

ونجد داخل هذا المأوى العائم ، وهو المسكن الوحيد « لجربو » الذى شب فى عز والديه ، ثلاث حجرات . الأولى حجرة النوم ، وجعلها فى المؤخرة وفيها أثاث من الخشب وسريران تتوسطهما خزانتان ، وعلى جانبى سريره أدراج خصصت بشتى الكتب لتكون فى متناول يده . ورغم سطح سفينته المحدود المساحة ، فقد شغله بأربعة أمتار من الكتب ، أى بما يقرب من مائتى مؤلف .

وكم كان جربو يحب هذه المصنفات المصنفة فى الخانات المعدة لها ! ونذكر من بينها ، مؤلفات أفلاطون وشكسبير وكبلنج وتميسون وفيرهيرين وغيرهم . وشيلى وستفنسون وجاك لندن وكنراد

(Platon, Shakespeare, Kipling, Temyson, Shelley, Stevenson, Jack, London, Conrad, Verhaeren).

بيد أنه كان يضع على مخدعه بجوار رأسه مؤلفات « لوتى » (Loti) وفارير ، التى شغف بها

وجعل الحجرة الثانية أمام غرفته فى منتصف السفينة . وأثاثها من الخشب المهوجن ، ووضع فى جانبيها ، خزانتين ضمتا أعز ذكرياته ، فضلا عن أدوات « التنس » ويتوسطهما خوان من النوع القابل للانطواء . وتضاء هذه الحجرة بمشكاة وشموع معلقة فى ذراع حديدى متحرك .

والحجرة الثالثة جعلها فى مقدمة السفينة وفيها مائدة غسيل

تتسع لخمسين لتراً من الماء الزلال ، ثم رتب فى هذه الغرفة بقية الأدوات اللازمة للطهى ولم ينس موقد الغاز ، وقد علقه فى ذراع حديدى متحرك حتى يظل دائما محتفظا بوضعه العامودى مهما اهتزت السفينة فى اليم ، ولم يفته وضع خزانات لحفظ الأطعمة والمؤن على اختلاف أنواعها . هذا وقد ركب فى الجانب الأيسر من السفينة مضخة متصلة بمستودع ماء عذب فرات .

هذا هو الوصف الوفى لسفينة آلان « جربو » المسماة « فايركرست » .

* * *

وجاء يوم السفر ، يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٤ ، وهو من أيام فصل الربيع ، ربيع « الكوت دازور » الزاهر النضير . ورسا فى ميناء « كان » (Cannes) الصغير الجميل ، ثلاثون يختاً لمختلف الأمم والشعوب ، ووقفت بجانب « الفايركرست » على صفحة الماء المضاءة بأشعة الشمس كالطائر الأبيض الجميل السفينة « لابرليت » (La Perlette) وطولها ٧ أمتار ، وتملكها سيدتان فى عنفوان الشباب ، وكان يحلو « لجربو » أن يلقبهما « بالبحارتين » حيث كان يلذ لهما الصعود على الصارى لإصلاح الشراع بنفسيهما . كما استعدت السفينة « لافنجرو » (Lavengro) وهى من نوع

« الكتش » (Ketch) وزنها ١٢٠ طنا ، للتوجه إلى جبل طارق ، وكان أيضاً جبل طارق قبلة « جربو » وأول مرحلة له قبل مغامرته الجبارة .

* * *

إن « جربو » يعلم فى قرارة نفسه صعوبة التغلب على سفينة أكبر من سفينته عشر مرات ، وتقل فوق ظهرها ثمانية بحارة ، ولكن ليس بضائره كل هذا . إنه لا يود أن تسبقه « اللافنجرو » ، ولقد استطاع « جربو » الانطلاق بسفينة قبلها ، وهنا اشتدت الرياح ، وقد يخيل للمرء أن الرياح إنما اشتدت ، لتعين ذلك الرجل الأسمر ، ذا القامة الطويلة ، والهامة العريضة ، والعضلات المفتولة ، والوجه المكتئب فى جلد ، على أن يشق بسفينته الماء شقاً قوياً ، وسرعان ماعلت ثغره ابتسامة عريضة ، رغم اتجاهه نحو المستقبل المجهول .

ووقف ذلك الرجل الأسمر الملتحى على الحاجز الجانبى للفابركست ، ورمى ببصره لآخر مرة ، نحو الميناء ، فرأى منديلين يرفرفان له فى الهواء من « البرليت » الراسية :

— ليكن حظك سعيداً يا « جربو » !

ورفع « جربو » يده رادًّا التحية ، تحيـــة ابن البحر الأخيرة للأرض التى تركها وراءه .

* * *

جبل طارق

المرسى الوحيـــد

اشتدت الرياح والأمواج بعد خروج « جربو » من الخليج الذى كان يؤويه ، وهبط مقياس الجو ، وسخرت مقدمة « الفايركرست » عباب اليم ، واعتلى الزبد سطح السفينة ، وغابت الأرض من الأفق ، بينما كان « جربو » يغنى .

وفى يوم ٢٦ أبريل ، هبت الرياح من الشمال الغربى ، وجرى « الفايركرست » مسايراً لسرعة الأمواج ، وهبط مقياس الجـــو مرة أخرى ، وأنذر الجو بالعواصف . وأصبحت السفينة ترقص فى جو الأمواج المتلاطمة .

ولم تزل العواصف تشتد فى يوم ٢٧ أبريل ، ولم يفتأ مقياس الجو يهبط ، كما ظلت الامواج تداعب طيلة الليل سطح السفينة ، مما اتعب « جربو » الواقف يسوس الدفة ١٦ ساعة متوالية ، ثم اضطره إلى مسايرة الرياح الشديدة بتقصير الشراع بما عرف عنه من مهارة ودقة ليذوق طعم الراحة قليلا .

وفى ظهر يوم ٢٨ أبريل ، سكنت الرياح ، وهدأت الأمواج ، ولكن لتعود على أشدها فى السابعة مساء ، فلعبت بالسفينة ، وجعلتها لا تستقر على حال من الاضطراب .

ولم يزل البحر على حالتـــه فى يوم ٢٩ أبريل . أما العواصف التى هاجت من الشمال الشرقى ، فقد اتجهت ، فى المساء نحو الغرب ، واضطر «الفايركرست» أن يشق طريقه ضد الرياح بصعوبة كبيرة .

وفى ٣٠ أبريل ، هدأت العواصف وارتفع مقياس الجو وتنفس النسيم العليل ، وعاد إلى البحر سكونه وروعته

وفى أول مايو ، وهو اليوم السادس لإبحاره من «كان» كان لابد «لجربو» من أن يجد نفسه — استناداً على حسابه — على مقربة من الأرض ، وجاء الظهر ، ورأى «جربو» من فوق الصارى أحجاما مخروطية الشكل تنبثق من الماء . . . وكانت الأرض ، وهنا شعر «جربو» بشىء من الفخر عند رؤيتها ، حيث ثبت له صحة حسابه ودقته فى فنون الملاحة . كان جربو فى هذه الساعة على بعد ٤٠ ميلا من «جزر الباليار»[1] (Hes Baleares) .

---

(١) أطلق الأوربيون منذ زمن بعيد على هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط «بحر القراصنه» لأن البحارة الشرقيين الذين لم يكونوا أكثر إغارة من غيرهم من القراصنه ، كانوا يقـومون بمناوراتهم فيها منذ القرن التاسع حاملين بضائعهم من الجزائر ومراكش إلى أسبانيا وجزر الباليار ، ولم يألوا جهدا ، ولم تفتر عزيمتهم طوال القرون فى مناضلة ومقاومة البندقيه وجنوا ، وشارل الخامس ، وسفن البابا والبرتغاليين وغيرهم حتى سنة ١٨٣٠ وهى السنه التى احتلت فرنسا فيها الجزائر .

وفى ٢٨ مايو، ظهرت قطع من الأرض هرمية الشكل. وما جاء المساء إلا وظهرت من البحر جزيرة «ماجورك» (Majorque)

وفى ٣ مايو استطاع «جربو» تمييز أسطح الدور والمنازل، وظل أياما كثيرة يجول بسفينته ملازماً الشاطئ الشمالى لهذه الجزيرة. ويقول «جربو» فى ذلك: اكتشفت فجأة عزبة بورت سولير (Port — Sole) القديمة، ووجدت نفسى وسط عمارة من سفن صغيرة للصيد كانت خارجة من الخليج». وأشار الصيادون له بالاقتراب، واستعدوا للترحاب به كصديق، إلا أنه أسرع بسفينته إلى عرض البحر، ويقول «جربو» «إن المدن والعرب لا تكون بالنسبة لنا، نحن البحارة، إلا كما يراها المار فى منعطف الطريق، يتركها ويحمل منها الذكرى».

وظل الريح ضعيفاً عدة أيام حتى أن سرعة «الفايركويت» لم تزد فى اليوم عن ١٥ عقدة. لم يهتم «جربو» بهذا البطء، لأنه كان على غير عجل، ولقد تمكن من مشاهدة جمال جزر «الدراجونيرا» (Dragonera) «وفيزا» (Fulza) «وتورمانتيرا» (Formontera) بامعان وتروٍ أثناء مروره أمامها بفضل خفة النسيم الذى جعل تجعد سطح البحر لا يكاد يبين.

وفى ١٥ مايو ظهر «لجربو» وجه تلك الصخرة الصماء الكئيب، صخرة جبل طارق بن زياد[1] وهى تمثل أسداً

---

(١) أول قائد مسلم أغار على أسبانيا وفتحها سنة ٧١١ وتعبيداً لبطولته أطلق اسمه على الصخرة المشرفة على البحر، فسميت «جبل طارق».

رابضاً ، مسنداً رأسه على يديه المبسوطتين نحو الجنوب . مدير أظهره لأسبانيا ، وممتجهاً ببصره نحو السواحل الافريقية ولا يستطيع المشاهد من البحر ، أن يتأمل هذا الجلمود من الصخر ، دون أن تأخذه الروعة والدهشة .

وتجاوز « جبرو » قبيل الظهر آخر نقطة من أوربا ، بدخوله ميناء جبل طارق ، ولشد ما كانت دهشة الشرطى والسلطات الصحية البحرية عند مارأوا « جبرو » مقبلا عليهم من فرنسا بمفرده فى سفينته الشراعية .

ولقد قابلته الأميرالية البريطانية بحفاوة كبيرة ، بلغت حد تطوع الصناع الإنجليز فى الترسانة ، لإصلاح مافسد من السفينة وإعدادها لسفرها المقبل الطويل .

وعند ما تم له كل شىء ، أرسل قبيل إبحاره ، لأحد أصدقائه ، بطاقة جاء فيها البيان الآتى :

٢٠٠ لتر ماء
٤٠ كيلو لحما ملحا
٣٠ كيلو كعكا
١٥ كيلو زبدة
٢٥ علبة مربى
٣٠ كيلو بطاطس

ثم رسم سهما صغيرا يشير إلى علامة استفهام ، ذكر بعدها هذا العدد الغامض المعنى : ٤٥٠٠ ميل .

ولعله كان يريد فى حالة إخفاقه ، أن يجعل محاولته عبر الأطلنطى ، سراً مجهولا .

عبر الأطلنطى

ترك « آلان جربو » جبل طارق فى ظهر يوم ٦ يونيو، بعد أن تزود بطعام يكفيه أربعة أشهر مقبلة، كما تجهز بجميع أدوات الملاحة الدقيقة اللازمة لرحلته الشاقة ومغامرته الشاذة.

ويقول « جربو » : « انطلقت مغتبطاً مسروراً لما سأتجشمه من صعاب وأذلله من عقبات. وكان الجو صحواً ووضعت ثقتى فى سفينتى، وفى مهارتى فى أفانين الملاحة. وألقيت بنظرة أخيرة على الأرض وعلى صخرة جبل طارق التى كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس. ثم ازداد النسيم هبوباً عند مغادرتى خليج الجزائر وخرجت بسفينتى من المضيق (١)

« لابد للسفينة التى تخرج من مضيق جبل طارق فى اتجاهها نحو الجنوب الغربى، أن تواجه الرياح الشمالية الغربية، وأن تمر من بين دائرتى السرطان والجدى. ثم لها بعد ذلك أن تتجه شطر الغرب وأن تمر من جنوب « جزر برمودا » (Iles Bermudes) قبل أن تصعد إلى نيويورك. وليس الخط المستقيم أقرب طريق بين نقطتين لسفينة شراعية. وإذا كانت الباخرة التى تغادر نيويورك قاصدة جبل طارق تصادف حتما الرياح الغربية، وتقطع فى رحلتها أكثر من ٣٠٠٠ ميل بحرى، فإن السفينة الشراعية التى تبحر من جبل طارق قاصدة

(١) إن عرض مضيق جبل طارق يقرب من اثنى عشر ميلا بحريا (المؤلفة)

نيويورك تقطع مسافة لاتقل عن ٤٥٠٠ ميل » (١)

عندما غادر « جربو » المضيق فى هذا اليوم ، ظل النسيم يشتد شيئا فشيئا ، حتى تحول فى العاشرة مساء إلى عاصفة . فهبت الرياح بغتة من الجنوب الغربى ، وهطلت الأمطار بغزارة كما لو كانت تتساقط من أفواه القرب . وظلت العواصف على حالتها حتى تفككت خيوط الشراع الكبير ، مما استدعى « جربو » إلى أن يقبضه اليه ليحيكه . وكانت السفينة ، رغم هذه الرياح الجامحة تسلك طريقها بشكل عجيب .

وعندما عاد إلى الجو صحوه فى يوم ٨ يونيو ، نشر « جربو » شراعه الكبير بعد إصلاحه ، مع بقية الأشرعة الصغيرة التى اعتاد نشرها فى الجو الصحو .

وفى الظهر ، اتضح « لجربو » من أجهزة الملاحة ، أنه على بعد ٥٠ ميلا غرب جبل طارق . وماجاءت الساعة الثالثة حتى غاب عن ناظره « رأس سبارتل Spartel » القمة الشماء التى تقدم الساحل الأفريقى .

---

(١) إذا كان « سلوكم » "Slocum" و « بلاكبرن » "Blackburn" عبرا الأطلنطى من أمريكا إلى أوربا بمفردهما على سفينة شراعية صغيرة وفى أزمنة مختلفة ، فانهما استراحا فى جزر آسور "Acores" وأطول مسافة قطعاها دون توقف هى ٢٠٠٠ ميل . ولم يصل أحد منهما إلى ماوصل إليه « جربو » حيث عبر الأطلنطى الشمالى من الشرق إلى الغرب . وهذه المغامرة تظل فريدة فى نوعها فى تاريخ الملاحة المفردة (المؤلف) .

وكان «جربو» عند ما بارح جبل طارق ، ينتظر بفارغ الصبر « رؤية الأسماك الطائرة » . ويقول فى ذلك مبدياً سروره كالطفل الذى يقتفى بعض فراشات جميلة الألوان : كم كنت مسروراً عند مارأيت سمكة تلألأ نوراً تخرج من الماء وتطير نحو متر أمام سفينتى ، لتغيب فى اليم سريعاً » .

لم يكن « جربو » معتنياً بملاحظة الأسماك الطائرة فحسب بل كان عليه الاعتناء بالدفة وملاحظتها اثنتى عشرة ساعة متوالية ! !

وإذا كانت لوائح الملاحة تقضى استبدال البحار الواقف على الدفة كل أربع ساعات ، للمشقة التى يلاقيها فى هذه الفترة ، فما بال النصب الذى كان يلاقيه « جربو » الواقف ، كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة على ظهر سفينة شراعيـــة صغيرة وسط الأوقيانوس ؟ !

ويقول « جربو » : « كنت أسير طيلة هـذه الساعات وسط الرياح الهابة من دائرتى الانقلاب بسرعة تتراوح بين ٩٠و٩٠ ميلا فى اليوم ، وكنت دائم اليقظة والانتباه . ولم أشعر خلال هذه الفترة بأى سأم أو ملل ، فقد كنت أتأمل مجبوراً ، عظمة البحر . وتدافع أمواجه ، وثبات سفينتى بينها . »

ولما لم يستطع « جربو » كعادته ، المطالعة ، فى هذه الأيام ، فإنه كان يردد « بصوت جهورى ، أبيات من شعر

كيبلنج ومينفيلد وشيلى فرين Kipling, Masefield, Shelley, Verhaeren (١) .

وفى عصر يوم ١٧ يونيو ، هدأت بغتة الرياح الشمالية الباردة التى ظلت هائجة عـــدة أيام ، وعاد « جربو » إلى أجهزته يستجوبها ، فعلم أنه على بعد ٦٢٠ ميلا من جبل طارق ، و ٤٠ ميلا من الجنوب الغربى لجزر « مادير » Madères وعند ما سكن البحر ، وانقشعت السحب من السماء ، انتهز هذه الفرصة ، ليجفف ملابسه وفرش نومه التى بللها الماء أثناء العواصف .

وظل البحر على سكونه فى اليوم التالى ، فانكب « جربو » على إصلاح مافسد من أشرعته ، ويقول فى ذلك : « إن عمل النوتى أهم بكثير من عمل الملاح . فلو كنت بحاراً غير مدرب لا أدرى كيف يخاط الشراع وتفتل الحبال ، لما استطعت الوصول إلى ميناء غير ميناء السفن الضائعة ، أعنى الهلاك ، ولما أغنت عنى علومى الفلكية شيئاً .

ثم أردف قائلا : « كنت أقوم فى فترة هدوء البحر ، بتجارب أحاول منها جعل « الفايركرست » يتزن من تلقاء نفسه أثناء سيره والرياح تدفعه من ورائه .

ولقد اتضح له أن تقصير حجم الأشرعة يخول للسفينة

---

(١) « بمفردى عبر الأطلنطى » صفحة ٥٨ لمؤلفه « آلان جربو » .

سيرها باتزان . وإن كان هذا التقصير قد أضعف كثيراً من سرعتها ، فإنه لم يضطره إلى ملازمة الدفة دائما ، مما أتاح له فسحة من الوقت نظف داخل سفينته خلالها وتصفح بعض كتبه ، أو طهى طعامه . خففت عنه هذه الفرصة ، كثيرا من العناء فى الأيام الأخرى التى لم يكتئب الجو فيها .

اعتاد « جربو » أن يترك فراشه فى الخامسة صباحا ، ليعد إفطاره الذى يتكون من الكعك والشاى واللبن المجفف المعقم ، أما الوجبتان الأخريان فكانتا تتكونان عادة من لحم البقر المملح والبطاطس المغلى فى ماء البحر ، مما كان يعطيه نكهة خاصة وطعما لذيذا للغاية » . ولكن سرعان ما اكتشف « جربو » أنه كان ضحية لغش الذين اشترى منهم هذه المأكولات ، حيث وجد أن برميل اللحم المملح كان مملوءا بالعظام والشحم من أسفله ، ومغطى من أعلاه بطبقة قليلة من هذا اللحم . لم يعبأ « جربو » بهذا الغش ، وعلل نفسه — عندما تنتهى كمية اللحم الصالحة للأكل — بشىء من صيد البحر ، بما لديه من السنارات والشباك التى تزود بها قبل سفره من فرنسا .

كان « جربو » أثناء الأيام الهادئة ، يطلق لنفسه الحرية الطليقة ، عنان التأمل فى أديم الماء وأجواء السماء ، فكان شعوره يفيض بالطمأنينة التى لا يعرف طعمها إلا أولئك

الذين وهبوا أنفسهم للبحر ، واصطفاهم البحر لنفسه .

وتعود «جربو» أن يقوم بأعماله فوق سطح السفينة مخففاً من ملابسه شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى به المآل إلى التخلص منها جميعاً ، « تاركاً جسده يتمتع بأشعة الشمس الوهاجة ، ذلك الجسد الذى لم يخلق ليسجن بين جدران الدور والمنازل .

وما فتىء أن التأم شيئاً فشيئاً ذلك الجرح الذى أدمى قلب « جربو » الرقيق عند وفاة والدته التى كان يعبدها ، بفضل تلك الوحدة الهادئة ، ومنظر الطبيعة الخلاب . وفى المساء كان «جربو» يتأمل مغيب طاً ، منظر الشفق ، وقد استعدت الشمس للمغيب فى جوف البحر ، بينما كانت أشعتها الوهاجة تتموج على صفحة الاطلنطى ، من أحمر قان إلى بنفسجى باهت .. وعندما أرخى الليل سدوله ، كان جربو ، وهو فى نشوة الوجدان ، يرى نفسه سعيدا ، سعيدا جـــدا لأنه حقق أحلامه ، وشق طريقه إلى الحياة التى أرادها ، كما استطاع — وهو المولود فى بيت ثراء وغنى — أن يعيش بعيدا عن جو المدنية الكاذبة الذى يمقته ، وعن اسرائها الذين اعتادوا منذ قرون مضت الحياة المليئة بالخبث والخداع ، والآلام التى جلبوها لأنفسهم بنظمهم الاجتماعية المبنية على التكالب والتشاحن .

وكان يحلو له ، وهو فى عتمة الليل البهيم ، إلى أن يظل

بجوار دفة سفينته ، عارى البدن ، وغير مدفوع بروح التوحش ولا بمس من الجنون ، يضحك للنجوم الزواهر بقلب ملؤه السرور البرىء الذى يستحيل أن يدخل قلوب أولئك الماديين الذين قلبوا بتعاليمهم الخداعة ، أوضاع الإنسانية المهينة .

واستطاع «جربو» سريعا أن يعتاد نوم البحارة ، ذلك النوم الخفيف المعوض للقوى المعيد للنشاط الجسمانى ، والذى يجهله سكان المدن . ولقد قال انطيفيل « Antiphile » البيزنطى ، فى هذا المقام ، منذ ألف سنة : « ما أحلى النوم على حصيرة فى ركن سفينة من ذوات المقاذيف الثلاثة يسمع المرء فيها صوت الرذاذ المتساقط من الأمواج على قطع الجلد التى تغطى فجوة العنبر » . وتمدد « جربو » على فراشه واضعا رأسه تجاه حافة السفينة على بعد بضع سنتيمترات من الماء : ويقول كنت أفعل ذلك لأستطيع أن أقف على سرعة السفينة من صوت جرجرة الماء المتلاطم على جانبيها ، كما كنت أتبين ، من حركتها ونسبة اضطرابها ، تحولها عن اتجاهها بالنسبة للريح ، فكنت أصعد فوقها لأزن الدفة .

وشاءت المقادير أن يهب ريح من الشمال فى ٢٣ يونيو ، فيمزق شراعا ، مما اضطر «جربو» لأن يقضى نصف اليوم

فى رقعه . وكان يتساءل — لسرعة تلف الشرع — إذا كان المتبقى لديه من الخيط والخياط والقماش يكفيه لإصلاح ما يبلى منها مستقبلا . ولكن « جربو » لم يعبأ — كما هى عادة رجال البحر — بهذه الفكرة التى دارت بخلده ، وحدث نفسه مازحا : « إن نفد القماش سأستعين بأغطية السرير ، ولسوف أضحك كثيراً لدهشة أهل نيويورك عندما يبصرونني وأنا داخل فى مينائهم بسفينة فرنسية صغيرة ، حملت فيها فرش السرير المتعددة الألوان محل الأشرعة ! ! » .

ورأى لأول مرة ، فى يوم ٢٨ يونيو ، أسماكا كبيرة بين جرة السفينة .

وفى ٥ يونيو ، سكنت العاصفة التى قامت منذ ثلاثة أيام . وطفت بعض الخشب البحرية بجانب السفينة ، وعلم « جربو » أنه دخل فى بحر « سرجاس » "Mer des Sargasses" كما يبصر بقطع من الخشب المتآكل وقد تشققت فيه القواقع .. وربما كانت هذه القطع بقية سفينة غارقة فى جوف الاطلنطى .

ولشد ما قلق « جربو » فى يوم ٦ يونيو ، عندما تبين له أن أكبر كمية من الماء العذب التى أدخلوها قبيل سفره من جبل طارق ، أسنت وأصبحت غير صالحة للشرب . ويجمل بنا أن نعرف القارىء ، أن « جربو » اشترى ٣٠٠٠ لتر من الماء الزلال ووضعها داخل وعائين من الحديد « المجلفن »

(المطلى) وثلاثة براميل من خشب السنديان . قلما أتى تقريباً على ماء الرعائن ، كان ماء البراميل قد دب فيه التعفن وهكذا أظهر له أن الذين اشترى منهم البراميل فى جبل طارق قد غشوه فيها أيضا ، حيث إنها كانت حديثة الصنع ، لم يجف خشبها بعد .

لم يبق لدى « جربو » إلا ٥٠ لتراً من الماء ليروى بها ظمأه . ولكن هل تكفيه هذه الكمية وهو على بعد ٢٥٠٠ ميل من نيويورك ؟ إنه موجود الآن فى دائرة السرطان ، دائرة الانقلاب الصيفى ، وقد يظل بلا أمطار مدة شهرا وقد تزيد .

ويقول « جربو » : « وبعد أن حسبت عدة الأيام الباقية لانتهاء رحلتى ، صممت على طهى الطعام بماء البحر المالح وشرب قدح واحد من الماء فى اليوم .

ولكنه أصيب بضربة شمس ، فساءت حالته الصحية والتهب حلقه . واشتد عليه العطش . وكان يردد البصر فى الأفق ، عسى أن يرى عارضاً مقبلا ، فيه ما يروى غليله ، ويجمع من مائه قدراً يضيفه إلى الكمية الضئيلة الباقية لديه ، فيتسنى له الشفاء من آلام الظمأ الذى لا يطفىء ناره قدح واحد من الماء كل أربع وعشرين ساعة . ولكن السماء ظلت صافية الأديم ، كما لم يهبط مقياس الجو .

وفى ٧ يوليو ، اشتد الأوار ، وغاب عن ناظره السمك الطائر ، وكانت الشمس تلفح رأسه المريض بأشعتها المحرقة ، ولكن هيهات له أن يزيد عن القدح . فهو يغشى الهلاك عطشاً فى وسط البحر . وهنا نذكر هذا البيت من أشعار « كودريج Codridge » :

« الماء يحيطنى من كل جانب ولا سبيل للارتواء »

ثم انتابته حمى مصحوبة برعدة ، تورم حلقه الملتهب على أثرها .

وفى يوم ٩ يوليو ، شم رائحة كريهة منبعثة من برميل اللحم المملح ففتحه ، فوجد اللحم قد أنتن فألقى بالبرميل كله فى اليم .

تحمل « جربو » الظمأ ، فليت شعرى هل يتحمل الجوع ؟! أين الأمطار ؟ إنه يردد بصره فى السماء ، فينقلب إليه خاسئاً وهو حسير . وعندما جن الليل ، قبض إليه الشراع الكبير ، تاركا سفينته تشق عباب البحر ببقية الأشرعة الصغيرة .

وفى ١٢ يوليو ، ساء الجو . وكلما اشتدت الرياح الهوجاء ، سمع « جربو » صوت شىء يتمزق . . وكانت أشرعة السفينة هى التى تتقطع . فظل يرتقها ويصلحها طيلة الليل .

ولنترك « جربو » يحدثنا عن يوم ١٤ يوليو : « ارتفعت فيه الأمواج إلى علو عشرة أمتار . وكانت تتقـــدم نحو

« الفايركرست » ولها زئير مخيف ، فكانت سفينتى تشق طريقها بينها ، وكان الماء يعلو ظهرها كل حين ، وكان حقاً من الصعب على أن أظل أنزح الماء من فوق سطحها ، دون أن تقذف بى الأمواج إلى البحر . إنه لعمل شاق ومرهق ذلك الذى قمت به .

ولم يفت « جربو » أن يوم ١٤ يوليو هو يوم العيد الوطنى الفرنسى ، فكلف نفسه مشقة رفع الراية المثلثة الألوان ، وراية نادى التجديف الفرنسى الذى ينتمى إليه . ورغم اللهيب الذى كان يشعر به فى حنجرته ومريئه ، وثقل رأسه من الحمى ، فإنه وقف أمام الراية الفرنسية ، بين العواصف وسط المحيط ، ورفع يده مؤدياً التحية اللائقة بها ، بقلب ينبض إجلالا لها وحباً لبلاده .

ويقول « جربو » متحدثاً عن ١٥ يوليو : « عندما صعدت إلى سطح سفينتى الصغيرة ، وجدتها ماضية فى طريقها كما لو كنت ظللت ممسكا بالدفة طيلة الليل . وإذا عرف إخواننا قاطنو الأرض ، هذه الطاعة من السفن ، لما دهشوا من تفان البحار فى حبه لسفينته التى يعتبرها كائناً حياً يعقل ويشعر » .

وفى ١٨ يوليو ، أخذت الرياح فى الهدوء ، فأصلح جربو شرعه الممزقة التى أصبحت تبلى بسرعة . ثم أعقب

هذا الهدوء موجة من النسيم العليل ، تخللتها رياح شديدة نوعاً ما . ويقول « جربو » فى ذلك : « قضيت ثلاثة أيام فى رتق شراعى بينما كنت أقود السفينة . أكثر الوقت ، بوضع قدمى على الدفة أحركها ذات اليمين وذات الشمال . وظهرت فى هذا اليوم الأسماك الطائرة وسقط كثير منها على ظهر السفينة ، فأكلت لأول مرة منذ عدة أسابيع ، لحماً طرياً طازجاً . ثم أردف قائلا : « لايستطيع إنسان أن يقدر لذة طعم لحم السمك الطائر ، مثل ما يقدره من ظل يأكل لحماً مملحاً وقديداً أسابيع عديدة » .

وجاء يوم ٢٤ يوليو ، ولم يزل « جربو » مصمماً على شرب القدح الواحد فى الأربع وعشرين ساعة ، حتى ازدادت أورام حلقه كثيراً ، ولم يستطع إلا ابتلاع كمية قليلة من اللبن المركز . وهزل جسمه من الحمى . وكان يخيل إليه أنه يرى أرضاً على مسافة قريبة . . وكان السراب يلعب دوره . . إن الحمى أضنته كثيراً بقدر ما هزلته . ويقول « جربو » : « كان من العسير علىّ أن أتناول أكثر من قدح ماء واحد فى اليوم رغم ما كنت أشعر به من لهيب يتأجج فى رأسى » لذلك نراه قد قبض إليه جميع الأشرعة ، عدا الأمامية منها ، ثم نزل إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ، تاركا (الفايركرست) يشق سبيله فى البحر سرباً على بركة الرحمن .

واصبح يوم ٣ أغسطس ، وهو اليوم الخامس والخمسون « لجربو » فى البحر . وكان على ٥٤° درجة من الطول الغربى و٩٠,٣٠° درجة من العرض الشمالى ، أى على بعد ١٧٠٠ ميل من نيويورك . فأكمل سيره متجهاً إلى جنوب جزر « برمود » . ولكن لابد له من قطع مسافة ١٠٠٠ ميل قبل أن يصل إليها .

أما يوم ٤ أغسطس ، فكان يوم هناءة وسعادة له ، حيث تجمعت السحب الداكنة فى الجهة الغربية من الأفق ، تحمل الأمطار التى ينتظرها بفارغ الصبر .

لم يملك « جربو » نفسه من شدة الفرح ، عند رؤيتها . ويقول ذلك : « لم أجد كلاما أصف به سرورى عندما اضطرب الجو واقتربت العاصفة » . واستطاع أن يروى غلته ، وأن يدخر ٥٠ لتراً من ماء المطر . ويقول بعد أن تزود بهذا القدر من الماء : « لم أجد مبرراً يدفعنى إلى الإسراع للوصول إلى نيويورك ، فقد كنت أشعر وأنا فى وسط الأوقيانوس ، بأنى فى عقر دارى » .

وكان « جربو » فى ٩ أغسطس ، وهو اليوم الخامس والستون لإقلاعه من جبل طارق ، على بعد ٥٠٠ ميل شرقى جزر برمود ، و١٢٠٠ ميل من نيويورك ، ويقول فى ذلك : « لو وضعت ثقتى فيما استفدته من تجاربى ، واستخلصته من عملياتى الحسابية ، لتأكدت من وصولى إلى نيويورك بعد

شهر . ولكنى أعلم يقينا ، أن الماضى لايعتبر قياساً ثابتاً للمستقبل . كما حدثنى شعورى الباطنى ، أن عواصف شديدة ستصادفنى من الغرب أثناء سيرى ، قبل أن أصل إلى سواحل أمريكا . وفعلا تحقق هذا الإحساس الخفى فيما بعد . ثم أردف قائلا :

« وهبت الرياح من الغرب بشدة . وكنت أرغب فى المرور جنوب جزر برمود لأمر بخليج «ستريم» (Stream) وأستفيد من تياره الشمالى الشرقى عند اتجاهى شطر نيويورك . لذلك أدرت « الفايركرست » نحو الجنوب الشرقى . وظلت العاصفة تشتد طيلة الليل » . ثم غيرت طريق ، بأن اتجهت نحو الشمال الغربى ، وبعد أن نشرت الأشرعة بشكل يخول «للفايركرست» الثبات على الاتجاه الذى أردته له ، استلقيت على فراشى الذى لم يبتل لحسن حظى . وأسلمت جفونى للنوم » .

وفى يوم ١٠ أغسطس هبت رياح خبيثـــة ألقت «بالفايركرست» فى « دوامة » من الزبد ، واعتلت الأمواج السفينة ، وكانت مياهها تسيل على سطحها من المقدمة إلى المؤخرة . وواجه « جربو » أكبر صعوبة عندما أراد أن يستخبر أجهزته فى هذا اليوم العاصف وسط بحر هائج مائج ، حيث اضطر أن يثبت على ظهر السفينة وهى تضطرب وترتج ، بقدميه فقط ، معرضاً نفسه للطمات الأمواج الكاسحة .

وتمكن رغم ذلك من القيام بما أراد بمهارة فائقة ، ثم نزل إلى قاع السفينة ودخل غرفته وهو مبلل بماء البحر ، ليسجل ما رصده جهازه على ضوء « الكرونومتر » .

وهبت عاصفة شديدة ظلت تلعب بالسفينة من يوم ١٥ إلى ١٧ أغسطس ، وأصبح سطح الماء مساوياً لأرضية الغرفة ، وكلما مالت السفينة على جانبها ، دخلت المياه إلى أدراج خزانته لتبلل مخدعه وتفسد كل شيء تأتى عليه .

وتوقع « جربو » في صبيحة يوم ٢٠ أغسطس باشتداد العاصفة وأنها ستفوق في بطشها كل العواصف التي مرت به . ويحدثنا عنها قائلا : « وفي العاشرة صباحاً تحولت الرياح إلى عاصفة هوجاء ، واعتلت الأمواج سفينتي من كل جانب ، وقامت تلطمها بشدة كما لو كانت تريد نسفها . ولكن ظلت سفينتي تشق طريقها بين الأمواج بشدة ، حتى أن نفسي حدثتني بالشدو والغناء من شدة الفرح . وعلى حين غرة ، وكان الوقت ظهرا ، كدت ألقى حتفي غرقاً مع سفينتي في قاع البحر . ذلك أن « الفايركرست » كان يشق طريقه مندفعاً بقوة الهواء من الخلف ، وإذا بي أرى موجاً مقبلا على من الأفق كالطود العظيم ، قد ابيض أعلاه من الزبد وله زئير مخيف . أقبل على هذا الموج المشمخر بصوت كصوت الرعد ، وعلمت أني لا محالة هالك إن بقيت على ظهر السفينة ، فسارعت

بتسلق الصارى وما وصلت إلى نصفه ، حتى حط هذا الموج الضخم على « الفابركرست » فدكه . وظل هنيهة مائلا على جانبه من جراء تلك الدكة النكراء وكنت أسائل نفسى هل من خيص . . ؟ ثم خرج « الفابركرست » من بين الزبد رويداً رويداً ، حتى استوى على الماء فتركت الصارى ، وقفصت بنظرى السفينة ، فوجدت الموج قد أودى بالجزء الخارجى لصارى المقدمة .

شمرت ساعد الجد لانقاذ سفينتى واضطررت لنشر الشراع الكبير .

وانزلقت قدما « جربو » مرتين ، وكاد يقع فى البحر . لولا أن سارع بإمساك ماصادف يديه من خشب السفينة . ولم يزل واقفاً عليها حتى أصلح الحبال والأشرعة ، وأعاد لها متانتها الأولى . وأقبل الليل عليه ، وشعر بالتعب فنزل إلى غرفته ليستريح . ويقول جربو بعد هذه الصدمة : « كانت جزر « برمود Bermudes » على بعد ٣٠٠ ميل من الجنوب ونيويورك على مسافة ١٠٠٠ ميل تقريباً ، حيث أن خليج « ستريم Gulf Stream » سيضطرنى إلى تغيير اتجاهى بدورانى حوله . وكنت أعلم طيباً ، أن أفضل ضمان لسلامتى ، هو اتجاهى نحو جزر برمود Bermudes ، وقد أصل اليها فى بضعة أيام ، لأتمكن هناك من إصلاح مافسد من سفينتى ، قبل

أن أوليها شطر أمريكا ، ولكنى عزمت على السفر دون توقف من جبل طارق إلى السواحل الأمريكية ، وكان يعز فى قلبى أن أغير هذا المشروع الذى عقدت النية عليه . . وحاولت النوم سدى ، وكان الصارى يهتز بقوة خفت عليه منها التكسر ، وظللت ساعات كثيرة معدّداً على سريرى بين براثن اليأس[1] » .

ولكن خبروفى بالله ، أبوجد شىء فى الدنيا يثنى عزم رجال البحر ، أو يحد من إصرارهم؟ لذلك نجد « جربو » يلوم نفسه قائلا : « وسرعان ما خجلت من نفسى لمجرد الفكرة التى طرأت علىّ بضع ساعات فى أن أتجه نحو جزر « برمودا » !

وهدأت العاصفة قليلا فى يوم ٢١ أغسطس . وعزم « جربو » على القيام بالمستحيل ، ألا وهو إصلاح الصارى ، وترميم ما أصاب السفينة من تهشيم « وكان من الصعب على ، كما يقول أن أتسلق هذا الصارى المرنح ، كما كان من العسير أن أظل ثابتاً عليه » .

وطوق « جربو » الصارى بساقيه ، وظل يعمل فى إصلاحه وتقويته ساعة كاملة ورأسه مدلى إلى أسفل : « ولما كان علىّ

---

(١) كتاب « بفردى عبر الأطلنطى » تأليف جربو ص ٤٩ .

إصلاح الصارى الأفقى [1] فقد أخذت معى البلطة والمنشر » .

فتح جربو بالبلطة فجوة ليثبت فيها صارياً أوجده له الحظ ، يقصر قليلا عن سابقه . ولكن لم يغن كل هذا عن السفينة شيئاً . فظل بضع ساعات أخرى يصلح المضخة وبقية التلف الذى لحق « الفاير كرست » .

إن الخطر قد زاد فى نشاط «جربو» وضاعف من قوته ، فلم يزل يجتهد ويكد حتى انتهى من الاصلاحات جميعاً . ويقول فى هذا الباب عن نفسه :

« كنت فى شدة الإعياء ولكن نشوة النصر أكسبتنى قوة غير محدودة فقد كنت أجمع بين عمل صانع «القلوع» ووظيفة النوتى المختص بالملاحظة من « فوق الصارى » ، وحرفة النجار والبحار . وسررت كثيراً عندما أتممت هذا العمل الشاق ، ثم نمت وثغرى باسم ، تداعبنى فكرة اقتراب سفينتى من هدفها البعيد الذى لم يخامرنى اليأس بعد فى الوصول إليه » .

وفى يوم ٢٥ أغسطس ، بعد أن أصلح شقاً طويلا فى شراعه الكبير ، استطاع أن يحدد موقفه بواسطة الكرونومتر وجهاز « Sextant » الخاص بقياس المسافات .

إنه كان على ٦٢° من الخط الطول الغربى و ٣٨° من خط العرض الشمالى .

---

(١) صارى يوضع أفقيا على مقدمة السفينة .

وشاهد فى يوم ٢٧ أغسطس لأول مرة أثناء سفره ، منظراً من أغرب المناظر البحرية وأعجبها . شاهد نافورة من الماء عامودية الشكل تجمع بين السحاب والبحر . ويقول عنها « جربو » : « وعلى بعد ميل تقريباً منى ، ساق الريح سحاباً أسود اللون منخفض العلو . وقام عامود من الماء حلزونى الشكل يصل بين هذا السحاب وبين ماء المحيط . وكان يدور بسرعة فائقة أثناء غوصه فى اليم . كان المنظر بديعاً حقاً . ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه كان من العسير علىّ ، أن أتبين من أين ابتدأت هذه النافورة ، وأين ذهب السحاب ، حيث غابت هذه الظاهرة بين عاصفة من الرياح الهوجاء ، لايقل صوتها عن صوت الرعد » .

وفى صباح يوم ٢٩ أغسطس ، بينما كان « الفايركرست » فى وسط المحيط يشق سبيله فى طريق السفن البخارية ، أبصر « جربو » باخرة . وعندما دنت منه ، رفع العلم الفرنسى إلى أعلى الصارى . ويقول : « فعلت ذلك ليعرف رجال الباخرة أنه لايزال فى فرنسا بحارة » . ثم أشار بيديه إشارات معناها : ياخت فرنسى ، فايركرست ، ٨٤ يوماً من جبل طارق .

لم يفهم ربان هذه الباخرة اليونانية — التى كانت تقل ألف مهاجر إلى نيويورك — معنى هذه الاشارات . وأبطأ

السير حتى اقترب من سفينة « جربو » ووضع فمه فى الصور المبكر للصوت ، وسأل « جربو » بلغة انجليزية ضعيفة التركيب ، ماذا يبغى ؟ ولما لم يك لدى « جربو » آلة لتكبير الصوت فقد أتعب رئتيه فى الرد عليه ، وإفهامه بأنه لايريد شيئاً ، وأنه ترك فرنسا « لنزهة بحرية » ، وكل مايرجوه منه هو أخبار السلطات البحرية الأمريكية فى نيويورك بقدومه . وملكت الدهشة أفئدة البحارة والربان والمهاجرين . وطغت على صوت «جربو» أصوات مئات المسافرين الذين انتابتهم الدهشة عند رؤية هذه السفينة الصغيرة التى يسوسها رجل واحد لايكاد يستر جسده العارى هندام .

ويقول «جربو» فى هذا الصدد : « عندما أتذكر مقابلتى لهذه الباخرة ، ولا يكاد يسترنى ردام ، أفهم سبب ضجة رجالها واندهاشهم . ولقد حاولت سدى أن أشير إليهم باشارات معناها : امضوا فى سبيلكم ، أنى لست فى حاجة إلى مساعدتكم ، ولكن الباخرة اقتربت منى — وفى اقترابها خطر على سفينتى — وأوقفت آلاتها . . » .

ولكى لايتشبم « الفاير كرست » الصغير فى صدام مع مقدمة الباخرة ، لاسيما وأن البحر كان مضطرباً ، فقد ألقوا إلى «جربو» بحبل ربطه فى صاريه . ويقول جربو فى ذلك : « وطلبت منهم أن يسحبونى إلى الأمام ، حتى ابتعد عن

جيرتهم الخطرة . ولشد مادهشت عندما تحركت آلات الباخرة لتجر « الفايركرست » خلفها . وحاولت ، بغير جدوى ، إفهامهم بأنى لست فى حاجة إلى عونهم ، وأخيراً اضطررت لأن أقطع الحبل بمدية كانت معى » .

استطاع « جربو » أن يبتعد عن الباخرة ، ولكنه تضجر كثيراً عندما رأى زورقاً يهبط منها إلى البحر . وأوقف جربو سفينته على مضض منه . ويقول فى ذلك محدثاً : اقترب منى ضابطان يونانيان فى لباسهما الموشح بالذهب على غرار لباس ضباط جنوب أمريكا . وخشيا بادىء الأمر ، لهياج البحر ، الصعود إلى سفينتى ، وأخيراً قفزا إلى سطحها واختل توازنهما ، فوقعا بجانبى . . :

سأله أحدهما لماذا لم يلاحظ الدفة عندما كان « الفايركرست » مواجهاً للباخرة ، حيث إن أول واجب للربان هو مراقبة الدفة دائما . فتألم « جربو »[1] من هذه الملاحظة الجارحة ، ورد عليه قائلا : « لايجدر بالبحار الماهر أن يكون ميكانيكياً يعمل فوق قاطرة تجرى على الماء فحسب ، بل الأولى له أن يعرف أن السفينة الشراعية لا تساس بغير رياح تدفع أشرعتها . وإنى ياصاح لم أعبر الأطلنطى بمفردى لأنتظر سماع درس فى كيفية قيادة سفينتى » . ثم عاد « جربو » فأكد

(١) من كتاب « بمفردى عبر الأطلنطى » تأليف « جربو » ص ١٦٧

لها أنه لم يشأ أن يوقف الباخرة طلباً لعون أو مساعدة ، ورجاهما أن يوصلا رسالة منه إلى نيويورك . وأخذ ورقة وقلماً وخط فيها اسمه واسم سفينته وشكر لهما الزاد الذى تفضلا به عليه . ونظر « جربو » إلى الباخرة بانشراح وهى تبتعد عنه . ويقول معبراً عن شعوره : هتف المهاجرون « للفايركرست » فرددت التحية عليهم . وكان الأفق صحواً . وعاد إلى سروري من جديد عندما وجدت نفسى منفرداً فى عزلتى بين الماء والسماء .

فتح « جربو » صناديق المؤونة المهداة إليه فوجد بينها بعض علب أطعمة محفوظة وثلاثة زجاجات من الكونياك . ولما كان يمقت شرب الخمر فقد ألقى بها فى اليم .

وهدأ البحر بعد ذلك يومين كاملين . اكفهر الجو بعدها ثلاثة أيام سوياً ، وكان «الفايركرست» وقد التصقت بتقدمته القواقع والأعشاب — يشق طريقه فى البحر ببطء بعد إصلاح الصارى الأفقى المثبت فى المقدمة . وكان الضباب يحيط به من كل جانب ، كما كان الخطر يحف من حوله . لسيره فى نفس الطريق الذى اعتادت البواخر أن تمر فيه . وفى اليوم الثالث لهذا الضباب كاد يغوص بسفينته ، إذ أوشك أن يصطدم بباخرة كان يسمع صفيرها وصوت محركاتها وهى تقترب منه ، وسارع « جربو » بالرد عليها بدق

أجراسه أملا أن تسمعه فتتبعد عنه .

ويحدثنا جربو عن هذا الحادث بقوله : « خيل إلى ، خلال فترة قصيرة ، أنى سألاقى لامحالة مصير « الكابتن سلوكوم » Slocum ، ذلك البحار الذى يسود الرأى فى غرقه متصادماً فى يوم عبوس مثل هذا . وأخيرا ، سمعت الباخرة دقات أجراسى ، وردت على بصفارتها تعلمنى أنها تأخذ يمينها فى السير » .

وفى ٣ سبتمبر كانت الشواهد كثيرة على اقترابه من اليابسة ، حيث تغير لون الماء وكثرت كلاب البحر ، كما حامت حوله ، بعد الظهر ، الطيور البحرية .

وشاهد فى ٤ سبتمبر ، سفينة صيد فى طريقها إلى الغرب ، اتجهت نحوه فى الرابعة بعد الظهر ، فقرأ اسمها « هنريتا » Henrieta ، واسم الميناء التابعة لها : بوستون Boston فسارع « جربو » برفع العلم الفرنسى فوق الصارى . فما كان من مركب الصيد إلا أن أنزل زورقاً قصد لتوه « الفايركرست » وحذاه وقفز منه صياد فرنسى إلى سفينة « جربو » ، ويصف جربو هذه المقابلة قائلا : « لا أستطيع وصف دهشته عندما علم أنى جئت « بالفايركرست » إلى هنا من فرنسا ، ولا وصف سروره لمقابلة مواطن له ؟ وطلب منى أن أصحبه إلى سفينة الصيد لأتناول الطعام معه . فلبيت الدعوة ، وتركت سفينتى

تسوس نفسها بنفسها . ولما قفزت إلى « الهنريتا » غصت إلى نصفى فى أنواع الأسماك المكدسة . وبش الصيادون فى وجهى ، وكنت سعيدا بينهم حقاً . وتذوقت بعد ٩٠ يوماً ، لحماً طرياً وخبزاً طازجاً . وبعد أن انتهيت من الطعام ، صعدت إلى سطح المركب وتجاذبت أطراف الحديث مع الربان الذى كان ممسكا بالدفة . وكان الربان من مهرة البحارة ، وكنت سعيدا برؤيته ، ثم عاد « جربو » إلى سفينته .

وفى ١٠ سبتمبر ، شاهد « جربو » فى الصباح المبكر ، سواحل أمريكا وجزيرة « منتوكيت » Mantucket وهى أول أرض أبصرها بعد السواحل الأفريقية ، أى منذ ٩٢ يوماً . وقد يندهش القارىء إذ علم أن رؤية الأرض لم تسر « جربو » الذى يفسر لنا سبب امتعاضه قائلا : « قد يندهش الناس إذا علموا أنى شعرت بشىء من الضيق عندما رأيت اليابسة ، حيث إنها فى نظرى ، إيذان بانتهاء جولتى البحرية وبالأيام السعيدة التى قضيتها خلالها فى الأوقيانوس ، وباضطرارى إلى المكث فى المدينة بضعة أشهر ، لن أصبح أثناءها ، ذلك السيد الفرد فى سفينته الصغيرة وإنما سجين المدنية الجوفاء ، بين صخب الدهماء .

وفى يوم ١٢ سبتمبر قابل فى طريقه بعض قطع من الأسطول الحربى الأمريكى أثناء قيامها بمناورات كبيرة

واستعراضات واسعة فى عرض البحر من جهة « نيوبورت » Newport ، واستطاع التمتع بمشاهدة هذا العرض البديع ، لاسيما عندما كانت الناسفات تنطلق من خطوطها المستقيمة بسرعة ٣٠ عقدة فى الساعة أو أكثر .

ولنترك الكلام « لجربو » : « عزمت على الاقتراب من نيويورك من مضيق « لونج ايلند » Long Island وصادفتنى بجوار جزر « بلوك » Block رياح شديدة لم أر مثلها منذ ثلاثة أسابيع . وفى مساء هذا اليوم نفسه (١٣ سبتمبر) ، دخلت المضيق تاركا ورائى مياه الأوقيانوس وقلبى يذوب حسرة ! إن عدد البواخر يزداد كثرة الآن ، وكنت أشاهد طيلة الليل مرور بواخر الركاب بجانبى وأسطحها تتلألأ نوراً . ولم أستطع ترك الدفة كما كنت أفعل ذلك وأنا فى عرض المحيط لاقترابى شيئاً فشيئاً من اليابسة . وكان علىّ أن أتبع طريق مدخل السفن فى المرفأ بين « الشمندورات » حتى لايتصادم « الفايركرست » فيتهشم ويغرق . وظللت يومين أجوب سواحل « لونج ايلند » Long Island ، وكثيراً ما تأملت بشغف مجموع الدور فيها وحدائقها الغناء » .

وضاق المضيق ، فعلمت أنى الآن دخلت فى مصب نهر « إيست ريفر » East River .

وفى يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ألقى « ألان جربو »

بهليه أمام « برج توتن » Fort Totten وكان له مائة يوم ويوم في البحر منذ أن غادر « جبل طارق » ، لقد انتهى جربو من سياحته البحرية ، وهكذا استطاع أن ينفذ غرضه المنشود .

* * *

هبت إلى استقباله السلطات البحرية الأمريكية وأصحاب اليخوت واحتفوا بلقائه وعاملوه كشقيق لهم وزميل ، كما تساهموا في جعل مقامه في نيويورك كله بهجة وسروراً . وفي يوم وليلة ، رأى « جربو » نفسه محاطاً بمخبري الصحف ، وأصحاب المطابع ، ورجال السينما ، وظلوا ملتصقين به التصاق العثة بالصوف . واضطر « جربو » لأن يجيب على كل سؤال يوجه إليه منهم ، وأن يروى غلمتهم فيما أرادوا أن يعلموه عن رحلته الجبارة ، حتى انتهى به المآل إلى الهروب منهم ومن إعجابهم به الذى بلغ حد المضايقة .

ويقول جربو : « قضيت مدة من الوقت تحطمت فيها أعصابي ، حتى أني فكرت في الرحيل ثانية » .

ولعل الشيء الوحيد الذى ترك في نفس « جربو » أثرا بليغا ، هو زيارته للأكاديمية الحربية الأمريكية في « وست بوينت » West Point ، ومحاضرته التى ألقاها فيها على ضباط البحرية وطلابها الذين رحبوا بقدومه واحتفوا به ، والدليل على ذلك اعترافه بأنه لم يشعر بأى سرور طيلة مكثه في

أمريكا ، خلاف ذلك الذى شعر به أثناء هذه الزيارة . ولا غرو ، فإن جربو لم يرتح إلى حياة المدنيـــة الصاخبة كما يقول :

« لقد أخطأ الذين ظنوا أنى أردت من وراء هذه السياحة الرياضية ، الشهرة وعلو الصيت ، حيث كان فى استطاعتى أن أتمتع بين أصدقائى ، وفى حضن حبيبتهم ، بمثل هذا الفوز الذى لم أبحث عنه ، ولكنى لا أجد طعماً للسعادة وأنا فوق الأرض ، إنى أفكر دائما فى رائحة القطران الشديدة ، وحياة البحر الخشنة ، ورائحة هوائه الخاصة المشبعة باليود . . ومهما يكن من الأمر ، فلسوف أعود إلى البحر الذى أصبحت ملكه إلى الأبد ، وإنى لا أزال أفكر فى اليوم السعيد الذى أخر فيه « بالفاير كرست » عباب المحيط الهادى ، وأشاهد جزره الجميلة ، وعسى أن يكون قريباً » .

المحيط الهادى

ترك « ألان جربو » « الفايركرست » فى دار الصناعة البحرية الأمريكية تحت إشراف المهندسين والإخصائيين التابعين لوزارة البحرية ، حتى أتموا تصليحه وأعدوه لرحلة جديدة .

وفى أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، استطاع بحارنا ، بعد سنة قضاها على الأرض ، على مضض منه ، ترك دار الصناعة بسفينته ، وقد قطرها رفاص تابع لقوة البوليس ، حتى أوصله إلى « نادى اليخت » ليودع أصدقاءه فيه . ولشد ما تضجر عندما التفّ حوله جمع من مخبرى الصحف ، وهواة جمع الإمضاءات والذكريات ، التفاف الهالة بالقمر ، ولولا تدخل رئيس النادى ورجال الشرطى لذهب « جربو » وسفينته ضحية هذا الإعجاب الزائد .

ولما حان موعد سفره ، ودعه أعضاء النادى وأطلقوا ثلاثة مدافع تحية له ، فرد عليهم « جربو » التحية بدوره وهو على ظهر سفينته برفع العلم الفرنسى طبقا للعرف البحرى . وبعد أن اجتاز مياه « هلزجت Hellsgate » المتلاطمة ، مارا تحت الجسر المعلق « لبروكلين Brooklyn » ، شاهد ناطحات سحاب مدينة « مانهاتان Manhattan » ، وتمثال

الحرية الضخم ، و « كوسى ايلند Coucy Island » ، ثم ألقى هلبه فى خليج « شيبسهيدز Sheepsheads » ليقضى فيه ظلمة الليل .

وترك «جربو» هذا الخليج عند تنفس الصبح ، مقطورا برفاص البوليس الذى تركه يمضى فى سبيله قبيل الظهر ، متمنياً له رحلة سعيدة موفقة ، وهكذا عاد « جربو » إلى وحدته المنشودة التى يعشقها .

وهبط مقياس الجو ، وتشبع الهواء بالبرودة ، وهبت الرياح ، وهاجت الأمواج .

كان « جربو » فى هذه اللحظة فى عرض البحر محفوفاً بخطر غضباته ، فبادر بنشر أشرعة السفينة ، وهو يغنى ، متجهاً نحو الجنوب الشرقى ، نحو جزر «البرمودز Bermudes»

وصل « جربو » فى يوم ١٦ أكتوبر إلى ميناء « سان جورج St George » بجزر «البرمودز» ، بعد أن قضى فى البحر أياماً نحسات ، حيث شاء سوء الطالع أن يصطدم ببا خرة أثناء رحلته هذه ، فاضطر إلى ترك السفينة فى «دار صناعة» الميناء ، ريثما يتم إصلاحها ، ولقد ظل فيها « الفايركرست » ثلاثة أشهر ، حتى إذا ما أصبح صالحاً لمتابعة رحلته الشاقة ، غادر « دار الصناعة » متجهاً نحو « هملتون Hamilton » عاصمة هذه الجزر .

وجد «جربو» فى هذه العاصمة كل سبل التسلية ، لاسيما لعبة التنس التى يعشقها ، وقضى عدة أسابيع فى التنقل بين بقية الجزر التى تحيطها . وفى هذه الأثناء أقيمت له حفلة تكريم صغيرة على ظهر باخرة ، منح خلالها « وسام المياه الزرقاء » Blue Water Medal لسنة ١٩٢٣ ، وهذا الوسام يمنحه « كروزنج كلوب Cruising Club » الأمريكى كل سنة ، لصاحب أحسن رحلة بحرية من الهواة .

وخرج فى يوم ٢٧ أكتوبر من مياه جزر « البرمود » ميمماً شطر خليج « بناما Panama » ، فوصل إليـــه فى ١٢ أبريل ، ورسا فى ميناء « كولون Colon » [1] التى لم ترقه إلاقليلا ، لاكتظاظها بالمقاهى وبالتجار الجشعين ذوى النيات الخبيثة ، وبكل ماينافى ذوق «جربو» السليم ، لذلك اضطر ، بعد انتهائه من الإجراءات الرسمية التى تتبع فى مثل هذه الأحوال ، أن يبارح هذه الميناء ، مجتازا خليج « بناما » ، موليا وجه شطر جزر المحيط الهادى . ويقول « جربو » « جاءنى فى صباح يوم ١١ أبريل الرفاص « كوكو صولو » Coco Solo التابع «لشركة الأطلنطى العمومية» فى «كولون» ، ليسحب « الفايركرست » . وكانت قوة هذا الرفاص أربعة

(١) احدى مدن جمهورية بناما ، وميناء على الأطلنطى تقع فى المنطقة الأمريكية لقناة بناما .

أحصنة . وكان على سفينتى قنصل فرنسا ، وسرعان ما اجتزنا الأميال القليلة التى تفصل بين « كريستوبال » Cristobal «وجاتون» Gatun ، ووجدنا أنفسنا أمام فتحات الهويسات الثلاثية الضخمة . وتساءلنا ماذا سيحدث لنا داخل هذه الهويسات البالغ طولها ٤٠٠ متر ، المشيدة خصيصا لمرور البواخر الضخمة ذات آلافات الأطنان ؟ لقد صففت حبالا مضفرة حول جوانب « الفايركرست » لحمايته من الاصطدام . وقد ساورنى القلق — رغم تلك الوقاية — عندما أغلقت الهويسات خلفى وخلف الباخرة اليابانية « تاتسوكو — مارو » Tatsuku-Maru وكم كانت دهشتى عندما رفعت المياه « الفايركرست » الصغير ، بجانب الحائط الفولاذى للهويس ، كما لو كان محمولا على مصعد كهربائى . وعلت ضحكات الرؤوس الصفراء من الباخرة اليابانية ، عندما شاهدوا سفينتى ناشرة أشرعتها وراءهم ، ولعله كان مشهد غير مؤلف لديهم . وامتلأ بعد قليل الهويس ، وجاء بعض الرجال ليجروا « الفايركرست » من الهويس الأول إلى الثانى ثم إلى الثالث ، مقتفين آثار الباخرة اليابانية التى جرها رفاص بخارى » .

ترك اجتياز « جربو » لهذه القناة أثراً بليغاً فى نفسه ، من حيث النظام البديع المتبع . كان كل شىء يتحرك بنظام

دقيق ، وفى جو يسوده السكون . لقد عرف الأمريكان قدر الوقت فلم يضيعوا دقيقة منه سدى .

أصبح المحيط الاطلنطى الآن وراء « جربو » . وكان ينقصه عبور بحيرة « جاتون » ليصل إلى هويس « بدرو ميجل » Pedro Miguel الذى يشرف على المحيط الهادى . فوصله عصراً . وانتقل بذلك « الفايركيت » من المحيط الاطلنطى إلى المحيط الهادى . وعندما لاح الشفق ، دخل جربو ميناء « بلبوا » Balboa (١) فمكث غير بعيد من الطرادين الأمريكيين « كليفلند » Cleveland و « روتشستر » Rochester ودعا ربان « الروتشستر » « جربو » لتناول الطعام على مائدته ، كما عرض عليه مساعدة بحارته له فى أى ترميم أو تصليح لازم لسفينته ، فلبى « جربو » الدعوة فى اليوم التالى . واحتفى به الضباط احتفاء يليق بمقام بحار فاق أقرانه فى رحلاته عبر البحار بمفرده .

وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من هذه الميناء التى أعدت مرسى للبواخر الكبيرة ، ومرتعاً للجنود الأمريكيين ،

---

(١) أطلق هذا الاسم على هذه الميناء نسبة إلى البحار الأسبانى فاسكونوميز بلبوا وهو أول أوربى اكتشف المحيط الهادى سنة ١٥١٣ . وغضب عليه السكونت بدروزياس دافيلا حاكم منطقة « داريان » (الجزء الشرقى لبناما) فأمر بفصل رأسه سنة ١٥١٧ .

يتنقلون بين نواديه ومطاعمه ، وجد جربو مدينة « بناما » الزاهية الجميلة التي يؤمها الضباط والبحارة الأمريكيون لقضاء إجازتهم ، هرباً من جو « بلبوا » المشبع بالعادات الرجعية ، والحرية الجامدة ، والقوانين التي تحرم ارتشاف بنت الدنان[1] . ولقد ظلت العادات الأسبانية في « بناما » سليمة من شوائب المدنية القديمة التي امتزجت فيها الأجناس : وإنك لتعرف « البناميين » الذين تجري في عروقهم الدماء الاسبانية من أنفتهم وشممهم . وإنك لتشاهد المكسيكيين وقد وضعوا على رؤوسهم القبعات الواسعة ذوات الألوان المختلفة ، وأنك لتبصر رجال « الجامايك » السود وأسنانهم البيضاء . أما الهنود فإنهم يلفتون نظرك بقصر قاماتهم وأقدامهم الحافية . لا شك أنهم أولى من غيرهم بين هذه الأجناس ، بدراسة العلماء لعاداتهم وطباعهم .

وبعد أن مكث « جربو » فيها شهرين ، عزم على الرحيل في ٤ مايو . فاختبر اشرعته وجمع الزاد الذي يكفيه لرحلته وتسلم بقلب مليء بالتأثر ، هدية الضباط التابعين للطرادين الأمريكيين . وكانت هذه الهدية التي ملكت مشاعره ، عبارة عن راية فرنسية ، وعلم عليه شارات « نادي اليخت الفرنسي » . فرفعهما جربو إلى أعلى صاري « الفايركرست » وخرج به

(١) كان ذلك أيام أن منعت الولايات المتحدة شرب الخمر .

من الميناء يجره الرفاص التابع للطراد « روتشستر » وارتفعت أصوات البحارة لتوديعه ، وظلوا يهتفون له طويلا . . وتركه الرفاص ، ونشر « جربو » أشرعة سفينته متجهاً نحو جزر « جالاباجوس Galapagos » .

وفي يوم ١٣ يوليو مر « بنصف الدائرة الشمالية » ، واستمتع بالنظر إلى النجم القطبي وهو يتلألأ نوراً وسناء في القبة الزرقاء ، وفي يوم ١٥ منه ، اجتاز آخر نقطة من هذه القارة ، ليدخل ناشراً أشرعته في عالم جديد .

وفي مساء يوم ١٧ ، اتضح له ، من ظهور النجم الجنوبي تحت برج السنبلة أنه على مسافة ٤٠ ميلا من « سان كريستوبال » San-Cristobal وهي الجزيرة الوحيدة الآهلة بالسكان من بين جزر « جالاباجوس » Galapagos وبعد يومين ظهرت حوله الأرض على شكل نصف دائرة .

كان الجزء الشمالي لهذه الجزيرة مكوناً من صخور هرمية الشكل من أصل بركاني ، عارية تقريباً من النبت والعشب ، بينما اخضرت سهول الجزء الجنوبي منها ، عند سفح جبل « جاكينو » Giachinno فدار حول « الرأس الشمالي » « كاب نور » Cap Nord وشاهد صخوره الخطرة . وما أن اجتازه بقليل حتى لمس نشاط الطيور البحرية ذات اللون الأحمر وهي تطير إلى ارتفاعات شاهقة ، لتنقض بسرعة فائقة على

الكائنات المائية فتلتقمها. وشاهد كذلك صخوراً عامودية من البازلت Basalte ضخمة الحجم، لا يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ متر، مخضرة القمة، بينما ثبت أصلها فى قاع اليم ليتخذ منه سمك القرش المخيف، مأوى له وملجأ.

وكان أمامه على مدى البصر، مرفأ «تشيكو» Chico المنحوت فى الصخور. فشاهد منازله ورصيفه ومساكنه القليلة المصنوعة من القش. ولم ير غير بيت واحد من الخشب، علته ألوان علم جمهورية «الاكوادور» الأمريكية(١)

ألقى «جربو» بهلبه فى الخليج، ونزل فى قاربه، واستعان بالمجداف حتى وصل إلى الساحل. وبينما كان ضابط الميناء، وهو برتبة «يوزباشى» يفحص أوراق «جربو»، اقترب منه كهل قصير القامة وأسر إليه فى أذنه بالانجليزية قائلا كنتما اثنين قطعاً، فأغرقت أنت الثانى» وكان يعزز كلامه هذا بحركات برأسه. ولم يسع جربو إلا أن يقهقه لهذه التهمة الباطلة.

كانت الجزيرة خصبة التربة. وتعرف «جربو» بشاب مكسيكى دعاه إلى زيارة عزبته المترامية الأطراف. المكونة من شجر الفانيليا. وكان يقوم بالسهر على فلاحتها، رجال

---

(١) تقع هذه الجمهورية فى أمريكا الجنوبية بين كولومبيا والبيرو (Colombie-Pérou) على خط الإستواء.

انحدروا من أصل إجرامى . وخيل « لجربو » بعد أن زار هذه الضياع الواسعة ، أن هذا الفتى الثرى ربما كان المالك الوحيد فى هذه الجزيرة .

ارتحل « جربو » من هذه الجزيرة بعد أسبوع واحد ، حيث لم تطمئن نفسه إلى سكانها ، وانطلق بسفينته نحو الغرب ، ماراً بشمال منطقة « نيك جومين » Nic-Gomen الصخرية الخطرة ، والسرور يملأ قلبه لوجوده بين المياه ، رغم تساقط الأمطار وهبوب العواصف .

وفى ٢٦ أغسطس ، وصل إلى الدرجة ١٧° من خط العرض الجنوبى . وهنا تجلت له الطبيعة فى أبهى حللها . كان « جربو » فى بحر الجنوب ذى الصبغة السحرية السرمدية ، والنبت المائى العجيب المتعدد الألوان . وكانت مياه البحر الفوسفورية هادئة ، مما جعل « الفايركرست » يتهادى فوقها متكاسلا بين بسمات النسيم العليل ، وأنواع الأسماك الغريبة .

وعند ما اقترب المساء ، واستعدت الشمس للأفول ، ألقت بإشعتها على زبد البحر الأبيض ، فأكسبته ألواناً وهاجة حاكت ألوان الأحجار الكريمة . ثم جن الليل ، وساد الكون المائى سكون رهيب ، وبزغت النجوم بين أستار القبة الزرقاء .

وفى ١٥ سبتمبر كان « جربو » على مسافة ٣٠ ميلا من

جزر « جمبيه » Gambier وفى اليوم التالى ، لاحت له بين ضباب الفجر قمم صخور جزيرة « منجاريفا » Mangaeiva . فأصبح بذلك على مقربة من جزر « بولينيزيا » Polynesie التى نظم الشعراء فيها القصائد ، وأشادوا بسحرها وأفاضوا فى وصفها ، حتى كان — وهو فى السن الصبا — يتمنى لو عاش فيها ، وعندما طاف فى فجر اليوم التالى برأس الجزيرة ، لم يتمالك نفسه ، فراح يمجد جمال الطبيعة الفتان : (شعرت بأنى وصلت إلى ضالتى المنشودة . وكم وددت العيش هنا) .

ترك البحار الكبير لنفسه العنان ، لتسبح فى بدائع الكون ، بينما كان النسيم يحمل إليه رائحة الأرض الموعودة : رأى الجبال مصطفة طبقات طبقات فى غور سماء اشتدت زرقتها ، ووقف مشدوهاً أمام قممها المكسوة بأنواع شتى من الأشجار الفارعة ، والنباتات الغريبة ، وقد تزينت أفرعها بزهور متعددة الألوان .

تأهب جربو للدخول بسفينته فى مياه المضيق وسط صخور المرجان وعرق اللؤلؤ . فسلكه فى أمان إلى أن وصل إلى الميناء الخارجية « لريكيتيا » Rikitea عاصمة الجزيرة فوجد على ساحلها العلم الفرنسى يرفرف بألوانه الثلاثة . ولما كانت هذه هى أول مرة يدخل فيها « جربو » بحراً فرنسياً ، منذ إقلاعه من فرنسا ، فقد شعر بفخر لا نعيبه عليه .

وكان لوصول «جربو» وقع كبير فى نفوس أهل الجزيرة وحاكمها وهو «الممثل الخاص لممتلكات فرنسا فى أوقيانيا» Océanie . دعاه هذا الحاكم إلى زيارة الجزيرة بصحبته، ويقول «جربو» فى ذلك: «كنت أشعر أثناء تجوالى كأنى فى عزبة فرنسية صغيرة. وصادفنا فى طريقنا خروج التلاميذ من المدرسة، فما كان منهم إلا أن رفعوا لنا قبعاتهم وحيونى بقولهم: «نتمنى لك يوماً سعيداً ياسيدنا»

وكم كانت دهشة «جربو» عندما علم أن هؤلاء التلاميذ يدرسون تاريخ نظام المحافظات فى فرنسا، وهم فى الواقع فى غنى عن هذه المعلومات. وكان الأحرى أن يلقنهم المدرسون تاريخ وجغرافية «بولينيزيا» لقد سخر «جربو» من هذه البرامج الدراسية الخاوية.

وعلى كل فإن آماله خابت كذلك من أول احتكاك له مع سكان الجزيرة، لإدمانهم على الخمر، فقد كانوا خليطاً من الأوربيين والصينيين! أين سكان الجزيرة الأصليين الذين كان «جربو» يتخيلهم. وقد تمنطقوا من الخصر إلى الركبة بنسيج مختلف الألوان، تدلت منه الورود والزهور؟ لكنه للأسف لم ير إلا رجالا فى سراويل فرنجية زادتها زرقتها قبحاً كما ارتدت النساء الملابس القطنية السخيفة الشكل التى تحاكى هندام الراهبات أو المبشرين المنتشرين فى أنحاء الجزيرة.

أين أولئك الرجال الذين يتبخترون فى مشيتهم ؟ وأين جماعة النساء ذوات القد الممشوق اللاتى سحرن بجمالهن لب « بوجانفيل » Bouguinville[1] وعقل كوك Cook[2] ؟ لقد تغير أهالى الجزيرة ، وحل محل الدور الصغيرة المصنوع سطحها من أوراق أشجار جوز الهند ، أكواخ لا تروق فى العين ، صنعت أسطحها من الأعمدة الخشبية المكسوة بالصاج المموج .

أنف « جربو » المكث فى هذه الجزيرة التى زادتها المدنية الجوفاء كآبة ، وأثقلت كواهل سكانها بزخرف باطل ، كما امتص دماءهم التجار الجشعون . فرحل إلى جزيرة أخرى من جزر « بولينزيا » التى لم تعبث فيها يد المستعمرين الأصلاف ، ليتمتع بأخلاق سكانها الفطرية ، ويقف على عاداتهم الموروثة . وانكب (جربو) على دراسة اللغة « البولينيزية » وتمكن من التفاهم بها معهم بعد وقت غير طويل . ويقول جربو محدثاً : « قابلنى « البولينيزيون » أول الأمر بشىء من البرود . ولا عجب ، فإن خوفهم هذا راجع إلى كراهتهم للبيض الذين استعمروهم وجعلوهم المسودين

---

(١) لويس أنطوان ، كونت دى بوجانفيل بحار فرنسى دار حول العالم من سنة ١٧٦٦ إلى ١٧٦٩ .

(٢) جيمس كوك (سنة ١٧٢٧ — ١٨٧١) مكتشف انجليزى له شهرة واسعة . وترك اسمه لكثير من الجزر فى « أوقيانيا » (جزر كوك)

الأذلاء ، بعد أن كانوا السادة الأعزاء . ولكن عندما وقفوا على حسن نيتى ، وطهارة طويتى ، ذهبت عنهم تلك المخاوف سريعا . إنى ضمنت الوفاء لهذا الجنس الكريم ، ولاسيما لأولادهم الذين كانوا على دماثة من الأخلاق الفطرية ، وكنت لا أستنكر اللعب معهم[1] » .

أحب « جربو » هذا الجنس من الناس ، بعد أن درس أخلاقهم وسجاياهم ، وعاش فى كنفهم ، لدرجة حفزته إلى التحمس للدفاع عن حرياتهم[2] لدى الحكومة الفرنسية ، مبديا العداوة والبغضاء لأنصار الاستعمار . وإن كان « جربو » ضرب صفحا فى كتابه عن هذه العداوة ، فإنه ذكر ماشاهده من سوء المعاملة التى كان يتحملها « البولينيزى » المسكين فى صبر وإناة ، ولم ينج « جربو » من قوارص محبى الاستعمار حيث لقبوه « بالمجنون » ولكن « جربو » لم يكترث بهرائهم هذا .

وأراد « جربو » أن يشاهد ، أثناء إقامته فى جزر « جمبيه » Gambiers طريقة صيد اللؤلؤ التى يتقنها السكان ويقومون بها مرة كل سنة فى شهر نوفمبر . فاتجه بزورقه فى يوم افتتاح الصيد إلى مسافة ٦ أميال من خليج « ريكيتيا » Rikitéa ،

---

(١) كتاب « فى أثر الشمس » تأليف « جربو » ص ١٢٢ — ١٢٣

(٢) أنظر آخر مؤلفات « جربو » جنة تحتضر .

ومكث فى نصف الدائرة التى اختارها الصيادون للقيام بعمليتهم الشاقة فى حينها . ويقول « جربو » فى وصف هذا النوع من الصيد : « كان كل اثنين من الأهالى يستقلان زورقاً ، وكانت ضحكاتهم العالية تدل على فرحهم وسرورهم . كانوا يتنقلون بزوارقهم فى الجهات المليئة بالأصداف وكانوا مزودين بعلب مستقيمة الأضلاع ثبتوا فى آخرها قطعة من الزجاج بالمصطكى ، ليستطيعوا من خلالها ، رؤية قاع البحر وما حواه ، فى وضوح وجلاء . وكان الغواص منهم يضع هذه « النظارة » الخشبية لحماية عينيه من الماء المالح ، ومن الأمراض الرمدية التى تسببها لهم كثرة المكث فى الماء . وبعد أن يقوم الغواصون بتمرينات رياضية تنفسية بضع دقائق ، يقفزون إلى الماء ويمكثون فى قاع البحر نحو دقيقتين ، يطفون بعدها حاملين المحارات والأصداف اللؤلؤية . وكانوا يغوصون ويطفون عدة مرات . ويجمع الغواص الواحد منهم فى اليوم نحو ١٠٠ كيلو من الأصداف . وقد يصل ، فى حالات خاصة وحسب مهارته ، إلى ٢٠٠ كيلو . وثمن الكيلو من الأصداف فى « منجاريقا » يبلغ فرنكين ا

كان اللؤلؤ نادرا فى هذه المنطقة ، وكان أكثر الغواصين يستخرجون كمية من الأصداف تربو بكثير على كمية اللآلىء ويضيف « جربو » قائلا : « وعلى كل ، فقد كان الصيد فى

السنة الماضية أكثر إنتاجاً منه فى هذه السنة . وشاءت الأقدار أن يعثروا على لؤلؤة سوداء نادرة فى حجمها الكبير فاشتراها أحد الصينيين بمبلغ ١١٠٠٠٠ فرنك من الغطاس المحظوظ الذى التقطها من قاع البحر ، ثم باعها للتجار اليهود القادمين من باريس بربح باهظ » .

قضى « جربو » وقتا طويلا فى زورقه بين الصيادين الذين دعوه فى المساء ليمضى الليل معهم فى إحدى الجزر الصغيرة التى اتخذوها مأوى لهم . فلبى « جربو » الدعوة . ويحدثنا بهذه المناسبة قائلا : « تناولت الطعام معهم فى الهواء الطلق . وستظل هذه الذكرى عالقة بذهنى دائماً . كانت الوليمة مكونة من الموز المغلى فى الماء ومن « أم الخاول » المحمصة المرصوصة على عود من الخشب . والأكل عند أهل هذه الجزر . بغة خاصة واحترام زائد ، حتى إننا تناولنا الطعام فى جو يسوده السكون التام . واذكر أنى عندما كنت ألوى رأسى ذات اليمين أو ذات الشمال ؛ لأشاهد منظرا طبيعيا خلابا ، كانوا يبادرون بتنبيهى إلى الأكل قائلين : « كاكاى » أى (كل) ، كما كانوا يتسابقون إلى تقديم اللحوم إلى « كلما أتيت على نصيبى ، وهذه هى طريقة الحفاوة بالضيف عندهم » .

ظل « جربو » على ظهر هذه الجزيرة الصغيرة طيلة الليل وجزء من نهار اليوم التالى ، واستطاع خلال هذه الفترة أن

يكتسب صداقة إخوانه الصيادين ، ويستميل قلوبهم ، حتى إنه عندما أراد الرحيل ، تمسكوا به ، طالبين منه أن يحضر «الفايركرست» ويقاسمهم المعيشة ، ويقول «جربو» فى ذلك : «كم وددت أن أعيش هذه الحياة الفطرية البديعة وسط هؤلاء القوم ، ولكن البحر كان دائما ينادينى بصوت أمواجه العذب ، وكنت ألبى نداءه . . . .» .

وانطلق «جربو» بزورقه نحو «الفايركرست» الراسى فى ميناء «ريكيتيا» Rikitéa فاستقله فى صبيحة اليوم التالى ، وترك النسيم العليل يدفعه ، بينما كان الأطفال يحيونه تحية الوداع من رصيف الميناء .

سار جربو بسفينته بسرعة ٧ عقدات فى الساعة ، وفى المساء اشتد الريح ، فاضطر «جربو» إلى نشر أشرعته ، وسرعان ماهطلت الأمطار بغزارة ، كما قامت الأمواج تلطم جوانب «الفايركرست» بشدة وقوة . ولكن اكفهرار الجو ورداءته ، واضطراب السفينة لم يمنعاه من التفكير فى حالته ، حيث شعر بسأم داخلى مبهم .

تساءل «جربو» : «من هو هذا الشيطان الذى يدفعنى دائما إلى الجولان على متن البحار ، وخوض المهالك والأخطار[1] ؟ لقد عثرت أخيراً على بلد استملحت الحياة

---

(١) أنظر كتاب «فى أثر الشمس» ص ١٢٢ — ١٢٣ .

فيه لبعدها كل البعد عن مضايقات المدنية ، لقد كان فى مقدورى أن أمكث فيه مدة أطول ، كما كان الأجدر بى أن أرضى بعروض الفتيات الجميلات من بنات جزيرة « منجريفا » ، ليصبح لى نسل أسمر اللون يقضى حياته فى جزر « بولينزيا » فى مرح ، متمتعا بأشعة الشمس الدافئة ! . . ولكن البحر كان يملك جوارحى وكان عسيرا على أن أرفض دعوته . وهكذا عرفت حياة البحار وخشونتها . . وحمت على زيارة جزر « المركيز » Marquises وهى تبعد نحو ألف ميل من الشمال » .

إنها حسرة وقتية ، تلك التى جاش بها صدر « جربو » ، إذ سرعان ما نسيها أمام سحر البحر ، وصخب أمواجه .

وجاء يوم ١٩ نوفمبر بصيفه الجنوبى ذى الصفاء الغريب . وتهادت سفينة « جربو » فى دلال على بحر هادىء فى ظل سماء صافية الأديم ، وكلما توغل فى هذه المنطقة ، كلما بهره سكونها ونسيمها العليـــل الذى كان يداعب أشرعة « الفايركرست » المتراخية .

كل شىء كان هادئا ساكنا وسط هذه الزرقة المترامية الأطراف التى شابهت الصحراء المروعة . ولكن طلوع البدر ليلا فى كبد السماء ، أدخل الحنان فى قلب البحار الفرنسى ، وأكسب هذه البقعة لونا من الغبطة ترتاح له النفس .

ووصل فى يوم ٦ ديسمبر — وهو اليوم الرابع والعشرون له بعد مغادرته «جبيا» — إلى ١٠,٤٠° من العرض الجنوبى، وقامت فى وجهه الأعاصير، وما أن أقبل المساء حتى اكتست السماء بالغمام من الجهة الشمالية، فتوقع «جربو» اقترابه من الأرض. وعندما حسمس الليل، لاح النجم الأبرق من نجوم الشعرى، فاستطاع «جربو» أن يحدد موقعه: أنه كان فعلا على مقربة من البسيطة. وكان فى يوم ٧ ديسمبر على مسافة ٣٠ ميلا من الجنوب الغربى لجزيرة «فاتو هيفا» Fatu-Hiva من جزر المركيز الجنوبية[1]. وفى اليوم التالى، رسا بسفينته فى مياه خليج جزيرة «تاها أوكو» Taha-Uku

كان منظر الجزيرة خلاباً. وأنزل «جربو» قاربه الصغير وذهب به إلى ما ظنه «رصيفاً»، فوجده عبارة عن بضع درجات نحتت فى صفوان يعلو سطح الماء المائج ببضع أقدام. لذلك رأى من الحكمة أن يتفادى هذا «المرسى» الخطر فتوجه بقاربه نحو الشاطىء، حتى إذا ما أصبح على مسافة

---

(١) اكتشف مندانا Mendana قائد الأسطول الأسبانى سنة ١٥٩٥ بعض هذه الجزر الجنوبية وأطلق عليها اسم «المركيز» نسبة إلى مركيزة مندوزا Mendoza زوج نائب ملك البيرو Perou الذى كان يتبعه مندوزا واسمه Don Gracia de Mendoza ثم اكتشف الفرنسيون بعد ذلك المجموعة الشمالية من هذه الجزر وأطلقوا عليها اسم جزر «الثورة tles de la Révolution

٣٠ قدماً منه ، ألقى بنفسه فى اليم فوصل إليه سباحة .

كان الجزء المعمور من هذه الجزيرة هو «أتوانا» Atuana وتسلق «جربو» إحدى الصخور فرأى على مدى بصره تربة سوداء بركانية التكوين ، ترتطم عليها قطع الصخور المتكسرة التى تدفعها الأمواج ، وأشجار جوز الهند الوارفة التى كانت تخفى وراءها المساكن والدور ، ومن بينها بيت ممثل الإدارة الفرنسية لهذه الجزيرة ، ومتاجر الشركات الفرنسية والانجليزية والصينية وبعض أكواخ خشبية ، كما شاهد أعمدة البرق اللاسلكى .

وفى «أتوانا» ، حيث سبقت «جربو» شهرته ، وجد بنى جلدته قد أعدوا له حفلة تكريم قوامها «الشمبانيا» . ولبى «جربو» الدعوة على مضض لبغضه للمظاهر والاحتفالات التى لا تتفق مع نفسيته الميالة بطبيعتها إلى البساطة . وقد صرح بهذا فى شىء من التهكم الممزوج بالحزن حيث قال : « تركت هذه الحفاوة اللطيفة أثراً بليغاً فى نفسى ، حيث خولت لى الوقوف على أدوار معيشة الرجل الأبيض فى « دوائر الانقلاب » . لماذا نحتسى الشمبانيا وأمامنا ماء جوز الهند اللذيذ ؟ لماذا نكسوا سطوح الدور بالأخشاب والصاج المموج ، بينما لدينا ورق جوز الهند الوارف ؟ ولماذا نرتدى الملابس والقبعات ، طالما أن جلد الانسان سيستفيد كثيرا

من أشعة الشمس التي تكسبنا صحة وعافية ؟ لم أبال في الواقع بأقوال الناس وتركت جسدي عارياً إلا من مئزر » .

لم يوافق « جربو » على فكرته في مذهب العري . إلا رجل واحد هو طبيب هذه الناحية الذي كان يقوم مؤقتاً بأعمال حاكم الجزيرة ، والذي كان يصاحب « جربو » في روحاته وغدواته . وكان السكان يحترمون هذا الطبيب ويحبونه . ويقول عنه البحار الفرنسي : « كنت أشعر براحة للمكانة العالية التي يتمتع بها هذا الطبيب بين الأهالي الذين أحبوه وأجلوه » .

ويجمل بنا القول في هذا المقام ، أن جزيرة «تاهاأوكو» غنية بأشجار المانجو وجوز الهند والبرتقال والفانيليا ، حتى إن سفن الشركات كانت تؤمها على اختلاف أجناسها ، وكثيراً ما ظلموا أهلها بطرق غير شريفة .

أرسلت كل شركة تجارية من هذه الشركات ممثلين لها هناك ، مهمتهم إخبارها بكمية محصول ثمار كل نوع من أنواع هذه الأشجار ، لاسيما جوز الهند الغني بالدهن [١] ، لذلك تزاحمت سفن الشركات على شرائه .

ولقد تفنن عملاء هذه الشركات في استغلال سكان هذه الجزر الذين لا يهتمون كثيراً بالنقود ، بطرق وحيل بسيطة

---

(١) يستخرج منها زيت له قيمته التجارية .

للغاية ، أزاح «جربو» الستار عن بعضها : كان بعض ربابنة السفن يستغلون حب الأهالى للخمور — وقد منعتها القوانين هناك — فيأتون لهم بها خلسة ، كما استغل ربان — فاق أقرانه فى أنواع الخداع — ميل الأهالى الفطرى للأقاصيص ، فكان يقرأ عليهم قصص التوراة — وكثيرا من أبوابها يتفق مع أساطيرهم — مما كان يحفزهم إلى تفضيل بيع محصولهم له دون سواه ، وكان هذا الربان الماكر يدخل فى روع بعض المزارعين الذين اعتنقوا الدين المسيحى ، أن عليهم بيع ثمارهم له وحده حباً فى القديس بولس[1] » .

استاء «جوربو» ذو الخلق القويم من هذه الصغائر ، وآثر الرحيل من «تاها أوكو» فاتجه فى يوم ٣٠ ديسمبر بسفينته إلى مجموعة جزر أخرى تبعد مئات الأميال من الشمال الغربى . فزار جزر «تاهما آتا» Taha-Ata «وهيفا أوا» Hiva-Oa و «نوكو هيفا» Nuku hiva واسترعى نظره جمال تلك الجزيرة الأخيرة وشاطئها السحرى الذى تتدفق عليه الأمواج بصوت كصوت الرعد . فألقى هلبه فى خليجها وأخذ يتأمل قلعــــة متهدمة على إحدى جوانبه يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٤٢ وهو العـام الذى غزا فيه الأميرال

---

(١) انظر كتاب جربو فى « أثر الشمس » ص ١٤٣ — ص ١٤٤

obeikandi.com

« بيتى توار » Petit Thouars هذه الجزيرة[١] .

ويقول «جربو» «يظهر انقراض الأهالى الأصليين واضحا جليا فى هذه البقعة ، أكثر من أى بقعة أخرى من جزر « الماركيز » ، فضلا عن الدمار الذى أدخلته عليها المدنية البيضاء » ، على حد التعبير المصطلح عليه . كان مضى قرن عليها بين مخالب الاستعمار ، كافيا لأن يهلك النسل ، ويبيد القوم فى هذه الجزر الآمنة المطمئنة . ولا غرو ، فإن عدد سكان جزيرة « نوكوهيفا » Nuku-Hiva الذى كان يبلغ ١٦٠٠٠ نسمة عند ما أغار عليهم « بتى توار Petit Thouars نقص إلى النصف بعد انتصاره عليهم . وعند مازرت هذه الجزيرة ، وجدت أهلها لايزيدون عن ٦٠٠ شخص » .

كان العامل الرئيسى لهذا النقص المتوالى فى السكان ، الإدمان على شرب الخمر وما جره عليهم من سوء العواقب ، علاوة على تمكن الفقر منهم على مدى الأيام ، واستيطان العلل والأمراض فى أجسادهم الهزيلة .

---

(١) هو هابيل أوبيردى بيتى توار Abel Anbert du Petit Thouars أميرال فرنسى وضع جزر تاهيتى Tahiti تحت الحماية الفرنسية (مجموعة من الجزر فى بولينيزيا الجنوبية) سنة ١٨٤٢ . وهو ابن عم الأميرال ارستيد أوبير دى بيتى توار Aristide Aubert de Petit Thouars الذى قاد السفينة الحربية «لوتونان» Le Tonnant فى معركة أبى قير ولاقى حتفه فيها.

وازداد لون « جربو » اسمراراً من كثرة تعرضه فى روحاته وغدواته ، لأشعة الشمس المحرقة وهو شبه عار ، حتى فاقت بشرته فى لونها الكميتى ، بشرة المركيزيين أنفسهم ، كما يقول .

زار « جربو » الجزيرة ، وجاب أركانها ذات المناظر البديعة ، وشاهد خلجانها المتعددة . وامتزج أسفه على قلة السكان ، باعجابه بتلك المناظر الخلابة . ووجد ارتياحا كبيرا فى جلوسه مع أهل هذه الجزيرة ، لما طبعوا عليه من كرم السجايا وحميد الأخلاق ، يطارحهم الحديث ، ويلبى دعوتهم إلى تناول الطعام معهم ، ويلح حبهم له ، إلى بث أحزانهم إليه ، تارة بالكلام ، وأخرى بأغانيهم المتراخية النغم ، التى تفصح عن مر الشكوى ومرير الألم .

وقاسمهم « جربو » طعامهم الغريب المكون من مغلى لحم الأخطبوط المشبع بعصير الليمون البرى والدقيق ولبن جوز الهند ، واستطاب « جربو » هذا الصنف من الأكل ، كما استطاب كل شىء فى الجزيرة . ولكن البحر همس فى أذنه بصوته الحنون الخلاب ، فلب نداءه الخفى وترك الأرض ، وارتمى فى أحضان الأمواج .

وعرج به النسيم بين الجزائر الصغيرة المتشعبة بين جزر « المركيز » و « تاهيتى » Tabiti وسيطر على الدفة ، وسار

بسفينته بين صخور المرجان الخطرة ، وجزره الخلابة التى يخشاها أمهر البحارة .

ولنصغى لحظة إلى حديثه عن هذه الجزر المرجانية :

« لهذه الجزر الصغيرة، فتحات دقيقة يدخل ويخرج منها تيار الماء بسرعة فائقة ، مما يجعل الدخول فى مجراها شديد الصعوبة ، لاسيما للسفن الشراعية » .

ولكن هذه الصعوبة ، حفزت « جربو » لأن يأخذ طريقه بين هذه الجزر التى تضم بين جوانبها الموت الزؤام ، ويقول فى ذلك : « صممت على السير بين هذا « الأرخبيل » الخطر ، ماراً بجزر «راروبا» Raroia و«ماكيمو» Makemo المرجانية ، رغم ما عرف عنها ، لدى البحارة ، من شدة سرعة تيارها الجارف . . . ووصلت قبيل الظهر أمام تيار «نجارو» Nagarue وهنا رأيت من الحكمة أن أجرب إحدى نظرياتى البحرية ، رامياً بالنصيحة التى أسداها إلى ربانو السفن . فقد أوصونى بالدخول فى هذه المسالك البحرية الوعرة ، ساعة جزر البحر ، حيث ينعدم فيها التيار ، بيد أنى آثرت الدخول أثناء مد البحر ، لأستفيد من قوة التيار فى دفعى إلى الأمام . وجاء لحسن حظى ، وقت المد ، وإذا بسفينتى تندفع نحو المدخل الضيق بين الأمواج التى اشتد تلاطمها على جوانب الصخور من حولى فأصبح « الفاير كرست » لا يعطى قيادا !

وأبصرت بصخور المرجان تنبثق أمامى بين المياه الهائجة ، ودارت سفينتى مرتين حول نفسها ، حتى خلت أنى ميت لامحالة . وفى هذه اللحظة المريرة ، دفعنى التيار بقوة فائقة إلى داخل بحيرة هادئة المياه » .

رسا « جربو » أمام عزبة « نجارو ماوفا » Nagarue Maova حيث رحب به سكانها وأكرموا وفادته ، بتسابق كل أسرة إلى دعوته لتناول الطعام معهم ، رغم ضآلة ثروتهم .

كانت هذه الجزيرة فقيرة فى مواردها الطبيعية ، وكان طعامهم لايتعدى الأسماك ، وسلحفاة البحر ، وثمار جوز الهند التى تعد بحق من المآثر الإلهية عليهم :

فكانوا يسدون جوعهم بثمره ، ويروون غلة عطشهم بشرب مائه ، ويتخذون من جذور شجره أكواخاً ، ومن أوراقه سقفاً ، ومن ليافه حبالا متينة ، ومن دهنه وقوداً وإنارة ، ومن احتكاك فروعه اليابسة جذوة نار .

ويقول « جربو » : « كان جميع السكان شديدى الحفاوة بى . وأمّا كرمهم ، فينعدم نظيره فى أكبر الأمم المتحضرة . » ولقد ذهب كرم الأهالى له إلى أبعد ما كان ينتظر : فإنه عند ماأصبح فى اليوم التالى ، وذهب إلى سفينته ليصلح مافسد منها . أخذته الدهشة عند مارأى مضيفه بالبارحة يأتى إليه حاملا طبقاً من السمك ، ظناً منه ، أن « جربو » ليس لديه

الوقت الكافى ليقوم بطهى طعامه . ويعقب « جربو » على هذا الكرم الحاتمى بقوله : « لم أستطع اطلاقاً اقناعه بقبول أقل هدية منى مقابل هديته .

كانت هذة الجزر على مابها من جنات ساحرة ، لاتخلو من العذاب الأليم والشر المستطير . فقد كانت تغشاها من وقت لآخر ، ريح صرصر عاتية من المحيط الهادى ، فتقتلع البيوت بما ترفعه من الأمواج الهائلة ، وتهلك السكان الذين لم يسعدهم الحظ على التمكن من الصعود إلى أعالى شجر جوز الهند ، الذى يصمد فى وجه هذه الزوابع المفجعة .

وعند ماذهب إلى زيارة جزيرة «راروياء Raroia ، حيث قابله سكانها بالترحاب ، لاحظ « أن بناتها جميلات فى ظرف ، قويات فى لفت ، تميـــل تقاطيع وجوههن إلى تقاطيع اخواتهن الأوربيات » .

وقبل أن يغادر هذه الجزيرة ، توجه إلى الدكان الوحيد فيها ، ليشترى منه خمس كيلوجرامات من الأرز . ولشد مادهش عند ماوزن له البائع عشرا ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، مؤكداً له بأن هذه الزيادة ليست على حسابه وإنما هدية . ودخل عليهما فى هذه اللحظة ، أحد الأهالى وطلب من البائع عشرين كيلو من الأرز ليهديها بدوره إلى البحار الفرنسى . ويقول جربو إزاء هذا الكرم

العجيب : « لم أستطع رفض هذه الهدايا حيث يرى الأهالى فى رفضها إهانة كبيرة لهم . وجاء بعضهم وأصروا على إهدائى كل ما فى الدكان من أرز ! ولكنى تهربت من كرمهم المثالى بكل صعوبة مع كثير من اللباقة ، وهرولت مسرعاً إلى سفينتى ، واندفعت بها فى اليم » .

سار « جربو » بين الجزر وبين صخور المرجان المبعثرة هنا وهناك ، قاصداً جزيرة « تاهيتى » Tahiti ، درة البحار الجنوبية . وأبصر بها فى مساء يوم من أيام شهر مارس ، وقد تحلت بتاجها الأخضر ، واستترت برداء الشفق الأحمر .

وعندما وصل إلى « بابيتى » Papeete (١) ، فوجئ مسروراً بخطاب من المسيو « جورج ليج » Georges Leygues وزير البحرية ، يهنئه فيه على شجاعته وإقدامه . وتضايق « جربو » من ضجيج السيارات وهى تعبر الطرقات ، مما جعله يأنف من صخب هذه المدنية ، ويحن إلى الهدوء الذى تركه فى جزيرة « راروبا » . وخشى « جربو » على نفسه - على حد تعبيره - « من حماس مواطنيه الزائد » . ولكن أحداً منهم لم يستطع أن ينغص عليه هدوءه ، حيث اردف قائلا : « وعلى كل فإن مرورى بجزيرة « تاهيتى » ظل مجهولا رسميا ، مما أعاننى على قضاء الفترة القصيرة فى هذه الجزيرة ، فى جو من الهدوء والسكينة » .

---

(١) ميناء فى جزيرة تاهيتى .

تفاءل « جريو » كثيراً لمستقبل (تاهيتى) . وبقدر ما اشمأز من « بابيتى » وسكانها المولدين من الصينيين . ويقول فى ذلك : « كان جل السكان البيض فيها ، أما من التجار الذين نزحوا إليها حباً فى جمع المال واكتساب الثروة ، وأما من الموظفين الذين جاءوا ليعيشوا فى نفوس الأهالى ، أو هام المدنيـــة البيضاء . إنهم يحبون ما أكره . وكانت أفكارنا متناقضة ، حتى أنى ظللت ليلة إقامتى فى « بابيتى » ثاويا فى « الفايركرست » فى عزلة عن الناس ، كما لو كنت على متن الأوقيانوس » .

وبالرغم من وجود أمثلة حية من الجمال « البولينيزى » وبقاع ساحرة لم تغيرها يد المدنية ، فقد لبست « بابيتى » — التى أشاد بذكرها « لوتى » Loti [1] — ثوب الحداد ! أين

---

(١) هو جوليان فيو Julien Viaud (سنة ١٨٥٠ — سنة ١٩٢٣) المشهور باسم بيير لوتى Pierre Loti أحد ضباط فرنسا البحريين والكاتب القصصى الشهير . وله قلم فياض وأسلوب رفيع . سحره الشرق بجماله الفتان فقام يدافع عنه ، ويصف محاسنه . ومن مؤلفاته الخالدة . ازياده Aziyadé فى مراكش Au Maroc ، « قصة الاسباهى » Le Roman du Spahi شبح الشرق Le Fantôme d'Orient ، مدام كريزانتيم Madame Chrysanthème ، صياد ايسلندا Pêcheur d'Islande ، سيدات القصر الثلاثة Le Tsois dames de la Casba « إلى أصفهان » Vers Ispahan « موت أنس الهند من غـير الانجليز Les Indes sans les Anglais الوجود » La mort de Philae ، زواج لوتى Le mariage de Loti حيث يقص فيه غرامياته فى بابيتى (تاهيتى) مع فتاة بولينيزية تدعى « راراهو » Rarahu بعد أن اتخذ لنفسه اسم البولينيزى « لوتى » .

رونق هذه المدينة ؟ أين دورها الجميلة ؟ أين مأواها الغالي الذى يحفظ الكثير عن غراميات ذلك الضابط البحرى الفرنسى ، بيير لوتى Pierre Loti ؟ أين حسن « راراهو » Rarahu ؟ لقد اندثر كل ذلك !

واضطر « جربو » لأن يقضى أيامه بعيداً عن أولئك المستعمرين المولدين ، بيد أنه كان يميل إلى اللعب مع الأطفال البولينيزيين ، ويشاطرهم فرحهم وسرورهم ، كما كان يسمح لهم بركوب «الفايركرست» . وكانت ضحكاتهم العالية البريئة فى رنينها ، وأغنياتهم ذات النغم الشجى ، تزيده حباً فيهم ورعاية لهم . ويقول « جربو » معقباً : وكنت أتسابق معهم فى القفز إلى الماء مرات عديدة ، كما كنت ألعب معهم « كرة الماء » Water Polo .

وكان فى مواجهة منزل حاكم مدينة «بابيتى» ، بيت منزو بين خضرة الزرع ، تقطنه أرملة الملك « بوماريه الخامس » PomaréV . وزار « جربو » هذه الملكة عدة مرات ، وعرف منها الكثير عن ماضى جزر « بولينيزيا » ، وأضمر لهذه السيدة الوقور ، احتراماً يتساوى مع مكانتها كملكة على جزيرة « تاهيتى » . ويترجم لنا «جربو» عن شعوره نحوها قائلا : « كثيراً ما ارتسمت فى خاطرى — أثناء الأربع ساعات التى أقضيها فوق السفينة — صورة صديقتى العجوز

وهى تقص على تاريخ أسرتها المجيد ، بفصاحة عجيبة ، تجعل الإنسان يشعر ، وهو مصغ إلى حديثها ، بهيبة توحى إليه أنه حقيقة أمام سيدة خلقت لتكون ملكة تأمر وتنهى » .

وأخيراً ، تسلم « جربو » الأشرعة التى كان أوصى بها من فرنسا « للفايركرست » . وبعد أن مكث ثلاثة أشهر فى « تاهيتى » ، اتجه فى آخر شهر مايو سنة ١٩٢٦ شطر « الأرخبيلات » Archipels المتناثرة بعيداً عن « تاهيتى » .

صادف « جربو » صعوبة كبيرة عند خروجه من بحيرة « بابيتى » . وعندما ابتعد فى عرض البحر قامت رياح شديدة أمالت « الفايركرست » على جانبه ، ومزقت شراعه الكبير طولا ، قبل أن يتمكن من قبضه إليه . وظلت الرياح تدفعه ، والأمواج تلطمه ، حتى اقترب من جزيرة « بورا بورا » Pora-Pora واستطاع أن يدخل ، مستعيناً بضوء القمر ، فى بحيرة بين صخور المرجان ، ساحرة فى سكونها ، جميلة فى هدوئها ، فألقى فيها هلبه .

قضى « جربو » أياماً قليلة فى هذه الجزيرة التى اشتهرت فى العصور الخالية ، بشجاعة رجالها ، وحبهم الفطرى للحرب والنزال . وفعلا ، لمس فى سكانها بقية من تلك الروح الفياضة بالبطولة والإقدام .

وجاء إليه شيخ الجزيرة يدعوه إلى وليمة فى مسكن زينه

بالزهور والرياحين خصيصاً للقائه . كما وضع أمام مدخله . أكواماً من الفاكهة . وتربع المدعوون ، وقد تزينوا بالزهور ، على حصيرة حول الطعام . وكان الخدم يطوفون عليهم ، بعد كل صنف من الأكل ، بزق ماء ليغسلوا فيه أيديهم . ولما انتهوا من الأكل ، قام المضيف الكهل يخطب فيهم بلهجته التاهيتية التي يجهلها « جربو » . ولشد ما أعجب « جربو » من هذه الخطبة بعد أن ترجمت له .

واعتذر المضيف لعدم استطاعته القيام بواجب الإكرام نحوه بأكثر مما قدم له ، معززاً اعتذاره بأن زوابع عاتية هبت منذ بضعة أشهر على الجزيرة . فهدمت داره . وأتت على الزرع ، ثم رجاه أن يقبل أكوام الفاكهة وما بجانبها من زاد وأكل .

ولما كان من عادات البولينيزيين أن يتبنوا من يحبونه ويقدرونه ، فقد تبنى شيخ الجزيرة « جربو » على مشهد من الملأ ، وأطلق عليه إسماً معناه في لغتهم « أغنية القصب » . وفسر له الشيخ أصل هذه التسمية وما تضمه من سامي المعنى عندهم ، وسرد له قصة ذلك المحارب الذي أحاط به الأعداء من كل جانب وهو على نجد من الأرض ، يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، حتى إذا ما أثخنوه جراحاً بحرابهم ، استند إلى دغل من قصب السكر ، وراح يردد ، قبل أن يلفظ

نفسه الأخير ، أغنية ظلت خالدة جيلا بعد جيل .

ثم أردف الكهل قائلا : « وما أطلقت عليك اسم هذا البطل المغوار ، إلا لأنك تماثله فى شجاعتك وإقدامك ، فأنت تجوب البحار بمفردك غير آبه بأخطارها . وهذا الاسم هو أفضل هدية نستطيع تقديمها إليك » .

تركت هذه الكلمات فى نفس « جربو » ، أو بالأحرى ، « عنتر بولينزيا » ، أثراً بليغاً ، حيث يقول : « لم يقابلنى أهل بلد ، طيلة سفرى ، بمثل هذه الحفاوة الكبيرة ، ولم أحمل مؤونة وطعاماً أكثر مما حملته من عندهم ، حتى أن لسانى لم يجد الكلام الكافى للتعبير عن شكرهم . وأنى فى الواقع ، قدرت كل هذا الشرف العظيم ، وأظهرت لهم ما أكن لهم من حب وولاء » .

وشاهد « جربو » أثناء إقامته فى « بورا بورا »[1] ، باخرة قادمة من « ساموا » Samoa تحمل العلم الفرنسى ،

---

(١) عاد « جربو » إلى جزيرة « بورا بورا » ، بعد ذلك . ويلوح أن هذه الجزيرة تركت فى نفسه أثرا بليغا كما لعبت فى حياته دورا عجيبا . فقد قضى فيها بضع سنين فى سعادة وهناءة . وتعلم خلالها لغة أهلها ، وأحبهم فأحبوه . وأوصى بدفنه فى هذه الجزيرة بعد موته . واحترمت الحكومة الفرنسية ووزارة الحربية — التى ما زالت تفخر به — وصيته عند ما مات سنة ١٩٤٤ فى جزيرة « تيمور » Timor حيث بادرت بنقل جثمانه على باخرة حربية فرنسية إلى جزيرة « بورا بورا » ودفن فيها .

إسمها «كاسيوبى» Cassiopée ، ورست بجانب «الفايركرست» وصعد منها إلى سفينة «جربو» ضابط من قبل القومندان ، يبلغه سلام الحكومة الفرنسية ، واستعداد وزارة الحربية لمساعدته فى كل ما يريد . فدعا «جربو» قومندان وضباط «الكاسيوبى» لمشاهدة «الفايركرست» وأطلعهم على الأجهزة المزودة بها ، وشرح لهم طريقته الخاصة فى القيادة ، ونظرياته الجديدة فى فنون الملاحة ، ثم قص عليهم نتفاً من مشاهداته ووقائعه أثناء سياحته الجبارة بمفرده على متن هذه السفينة الشراعية الصغيرة التى أصبحت بحق ، ذات صبغة تاريخية هامة .

وترك «جربو» هذه الجزيرة الساحرة بعد أسبوع ، قاصداً غيرها من الجزر . ويقول : «كانت كل أفكارى متجهة نحو جزيرة «ساموا»[1] التى تعيد إلى الذاكرة ما قام به بحارة «لابيروز» La Pérouse ، وهى تبعد نحو ألف ومائتى ميل غرباً» . واتجه «جربو» نحو الغرب ليحقق أمنيته .

استهدف «جربو» ، وهو فى عرض البحر ، للرياح والزوابع التى لعبت بسفينته لعب الصبى بالخذروف ، خمسة عشر يوماً بلا هوادة . وعندما وصل إلى ميناء «بانجو بانجو» Pango Pango فى «ساموا» ، رسا بجوار البواخر الحربية الأمريكية «أونتاريو» Ontario ، فقابله

(١) هى الآن تحت اشراف الولايات المتحدة .

ضباطها بهتافهم الحماسى المشهور « هرّا هرّا » Hourrah ثم ذهبوا به إلى الأميرال « ريان » Ryan الذى دعاه إلى تناول الطعام معه . ويقول جربو : « قضيت سهرة جميلة هنا ، ثم توجهنا إلى دار السينما البحرية ، حيث عرضت علينا أفلام تمثل الحياة فى الشرق الأقصى . . وفى يوم ٤ يوليو — وهو يوم عيد الاستقلال الوطنى لدى الأمريكان — شاهدت مسروراً ، مختلف الألعاب وبديع الرقصات ، التى يقتضيها عندهم مثل هذا الظرف السعيد » .

وخصص أول النهار لمباراة فى لعبة « البيزبول » Base-Ball بين فريق البحارة الأمريكان وفريق من سكان الجزيرة . ويقول « جربو » فى وصف اللعب : « ومن العجيب أن فريق الأهالى كان يتخذ فى لعبه نفس الحركات ، ويتفوه بنفس الصيحات التى اعتادها الأمريكان وحدهم دون أمم العالم . فكنت تسمع الصبية وهم يرددون بلهجة أمريكية خنفاء : « Attaboy » مما يدخل فى روعك انك إنما تشاهد هذه المباراة فى نيويورك نفسها[1] . وبعد الظهر ، قام الأهالى الذين جاءوا فى زيهم القومى من مختلف الجزر المجاورة « لساموا » بعرض رقصاتهم الحربية المصحوبة بالأغانى الشعبية كانوا مرتدين الملابس الملونة . وكان الوشم

(١) « فى طريق العودة » تأليف جربو ، من ص ١٤ الى ١٦ .

— وهو عندهم من ضروريات الزينة — ظاهراً من خصورهم إلى أفخاذهم ، حتى ليخيل للناظر إليهم أنهم إنما يرتدون سراويل قصيرة زرقاء اللون . وكانت جلودهم المدلكة بزيت جوز الهند ، تلمع تحت وهج الشمس . ولم يفتهم تلوين شفاههم ، وتخطيط شواربهم المستعارة بمختلف الألوان ، ليكتسبوا وجهاً مخيفاً ، وسحنة كئيبة .

وكانوا جميعاً طوال القامة ، عظام الهامة ، كما أمسك كل واحد منهم بعصيّته ، يضرب بها على نغمات الأغانى . ثم وقفوا بعد ذلك أمام المنصة الرسمية المعدة لذلك الاحتفال الوطنى الأمريكى ليقدموا فروض الولاء . وكان على جانب هذه المنصة من جهة ، الأميرال الأمريكى وضباطه ، ومن الجهة الأخرى من الجانب الثانى ممثلو الحكومة من الوطنيين .

ولم يشك « جربو » لحظة ، من مشيتهم الحربية ، وقوامهم المعتدل القوى ، انهم من نسل أولئك الأبطال المحاربين القدامى ، الذين فتكوا زماناً ببحارة « لابيروز » La Pérouse

وأيقن « جربو » بأن أهالى « ساموا » ، لم يصلو بعد إلى درجة عالية فى التقدم الفنى ، ولا إلى درجة مهارة بقية سكان « بولينيزيا » ، « كالتاهيتيين » مثلا ، ومع ذلك فقد اهتم كثيراً بأغنياتهم ولا سيما برقصة القرفصاء التى أجادوا

فيها وأبدعوا بفضل مرونة عضلاتهم ، التى كانت تطاوعهم فى جميع حركاتهم .

وغادر «جربو» جزيرة « بانجو بانجو » بعد إقامة قصيرة فيها ، قاصداً جزيرة « أبيا » Apia لإصلاح أشرعة سفينته ، وما أفسدته مياه البحر عندما تسربت إلى داخلها . ثم اتجه إلى جزيرة « وليس » Wallis [1] .

واستهدف « جربو » فى هذه الجزيرة لنكبات الدهر ونحس الطالع ، بما لايخطر على بال بحار . فعند مروره حول جزيرة صغيرة من جزر المرجان ، أضاع أحد هلبيه . إلا أنه استمر فى سيره . وأقبل عليه الليل بظلمته الحالكة . ولكن سواد الدجى لم يمنعه من الوصول إلى صخور مرجانية غير ظاهرة بالقرب من جزر « ماتا أوتو » Mata-Utu ، فألقى فيها هلبه المتبقى ، إلى أن يصبح الصباح ، فيذهب لشراء هلب آخر من الميناء أو من المدينة . وبينما هو فى التفكير ، إذ أثقل النعاس جفونه وحدّ التعب من نشاطه فاستلقى على مرقده ، وشعر بانقباض فى نفسه لم يدر كنهه ، وبإحساس باطنى غريب ينبئه بحدوث شر وقرب مصيبة . . .

وانتفض من غفوته على صوت قرقعة فى أسفل السفينة ،

---

(١) اكتشفت هذه الجزيرة سنة ١٧٦٧ ، الباخرة الانجليزية دولفين Dolphin

وانطلق مسرعاً ، فتبين له ، من جذب السلسلة إليه ، أن الهلب الثانى والأخير ، قد سقط فى قاع البحر !

وهبت فى هذه اللحظة رياح جنوبية . مافتئت أن تحولت إلى زوبعة ، فمال «الفايركرست» على جانبه ، وقامت الأمواج ترفعه وتحطه بعنف . والتفت « جربو » وسط هذا الصراع المخيف إلى الميناء عسى أن يجد فيها مركباً يلبى نداءه ويهب لنجدته . . وارتفع المد قليلا . ولم يخش « جربو » على سفينته من ثورة البحر ، بقدر خشيته عليها من الجزر ، لأنه سيحطمها حتما بين صخور المرجان . وانتابته حالة يأس تركته قانطاً من النجاة . ويصف « جربو » هذا الموقف العصيب قائلا : « فوقفت على متن السفينة والأمواج تتدفق على ظهرها ، لاحول لى ولا قوة فى دفع الأذى عنها . نعم كنت أنظر بعين الحسرة إلى رفيقتى ، وهى تشرف على الهلاك » . ثم أردف قائلا عندما غمرت المياه طاقات الفايركرست : « فقفزت إلى البحر ، وظللت أعوم بين الأمواج . ولشد ماكانت دهشتى عندما رأيت سفينتى تتبعنى مائلة على شقها ، حتى أننا وصلنا إلى الشاطىء فى وقت واحد تقريباً » .

وعندما لاحت خيوط ذكاء . فى كبد السماء ، وجد « جربو » الفايركرست ملقى على الرمال ، وبالكشف عليه ،

لم يجد « حيزومه » المملوء بالرصاص الثقيل ، ووجد « الجاويطات » العشرة المصنوعة من « البرونز » قد تكسر بعضها عند « الحيزوم » الخشبي .

واشتد حزن « جربو » على سفينته التي انتهت مهمتها قبل الأوان . وأسف على تبدد أحلامه ، وضياع آماله التي تكبد من أجلها هذه المتاعب ، وركب في سبيلها هذه المصاعب وكادت حماسته تنهار ، وعزيمته تنثني . . ولو أن « جربو » كان من أصل شرقي ، لاعتقد أن عيناً حاسدة أصابته .

لم يستسلم البحار الفرنسي العنيد لهذه الحالة النفسية السيئة ، بل شمر عن ساعد الجد ، وبادر بالسعي لإنقاذ « الفايركرست » من هلاك محقق ، ولكن ماذا يعمل ؟ وكيف يعمل ؟ أين يجد الحيزوم الذي يبلغ ثقله أربعة أطنان من الرصاص ؟ كيف يصلح الجاويطات المتكسرة وطول بعضها يبلغ متراً ؟

كان لابد له أن يقيم الفايركرست على قاعدته أولا . فابتدأ بنقل الأمتعة والأدوات والأجهزة من داخله وأودعها لدى تاجر فرنسي في الجزيرة .

ولما علم ملك الجزيرة بهذه الكارثة ، كلف ستين شاباً بمساعدة « جربو » . فلما اتخذت السفينة وضعها الطبيعي ، أسندوها بأوتاد قوية . وفي اليوم التالي ، عندما حان وقت الجزر ، أبصر لحسن حظه ، بالحيزوم الضائع . فعرف مكانه .

ولما جاء وقت المد ، تطوع أحد « الصنادل » يجذبه إلى « الفايركرست » .

ومن تكبد الطالع ، لم يجد « جربو » فى هذه الجزيرة المشؤمة ، وتعداد أهلها ٥٠٠٠ نسمة ، إلا صانعين صينيين يقومان بكافة الأعمال التى تطلب منهما . ولكن هل من المعقول أن يستطيعا القيام بأعمال لايجيدها إلا مهندس بحرى ؟ وكيف يكلفهما بإصلاح السفينة ولا يوجد فى الجزيرة ورشة حدادة ؟ إنها مشكلة بغير شك . بيد أنه لم يجد مفراً من ترك الصينيين يقومان بإصلاح السفينة وترميمها . وسرعان ما تناقضت وجهة نظرهما مع وجهة نظر « جربو » فى العلوم الميكانيكية البحرية ، عند بدئهما العمل .

ومرت الأيام وئيدة فى نظر « جربو » . وحاول الصينيان إصلاح الخيزوم بلاجدوى . ولاح « لجربو » وميض من الأمل ، عندما رأى باخرة تجارية قادمة من « نونميا » Nonméa تتعثر فى سيرها . ولكن سرعان ما تلاشت هذه البارقة ، حيث لم يجد بين بحارتها مهندسين أو حدادين ، كما لم تك معلومات الوقادين فيها ، بأكثر من معلومات الصينيين . وما زاد الطين بلة ، والضغث إبالة ، أن أصيبت آلة اللاسلكى فى الباخرة ، بعطب طارىء .

رجا « جربو » ربان الباخرة أن يرسل ، عن لسانه

من أول ميناء يصل إليها ، برقية إلى الحكومة الفرنسية بباريس ، وكانت هذه البرقية عبارة عن التماس من وزارة البحرية الفرنسية ، بتكليف وحدة من وحدات الأسطول الحربي الفرنسي ، التي تقوم بمناورات في جهة قريبة من جزيرة « مالتا أوتو » ، بالمبادرة إلى إنقاذه من الشر الذي وقع فيه .

وفي هذه الأثناء ، قدمت باخرة انجليزية إلى « مالتا أوتو » وكلف قائدها الميكانيكيين والحدادين من رجاله بمساعدة « جربو » . فصنعوا له « الجاويطات » الناقصة ، وتركوا له — قبل إبحارهم — من العُدَد والآلات ، ما يستعين به على تركيب الحيزوم .

لم يستطع الصينيان تركيب الحيزوم إلا في المحاولة الثالثة ثم مررا الجاويطات بين الحيزوم الخشبي والحيزوم المثقل بالرصاص . ويقول « جربو » معقباً : « لم أنته رغم ذلك كله من متاعبي ، فقد كانت أحجام الجاويطات الجديدة أكبر من أحجام الجاويطات القديمة ، مما اضطرني إلى توسيع بعض فتحات الحيزوم الخشبي . وقام الصينيان بهذه المهمة بواسطة آلة غريبة من صنع بلادهما . وأقبل المدّ بعد تركيب الجاويطات بلحظات ، فتخللت المياه من الحيزوم الخشبي إلى أسفل السفينة لتتدفق بقوة إلى العنبر ، مما جعلني أستبين

بالمضخة لامتصاص هذه المياه حتى لا يغرق «الفاير كرست» وطبيعى أنى لم أفكر فى الرحيل وسفينتى على هذه الحالة السيئة » .

ورأى «جربو» أن يصنع «كلكا» ليصل به إلى جزر «فدجى» Fidji ليأتى منها بالإمدادات التى هو فى حاجة ماسة إليها . وفى ذات صباح ، أبصر بدخان باخرة حربية متجهة صوب « ماتا أوتو » . وسرعان ماتبين عليها المثلث الألوان . . . أنها « الكاسيوبى » Cassiopée .

ويقول «جربو» فى فرح : « ونزل من الباخرة كاسيوبى ضابط فى رتبة القومندان الثانى ، وجاء إلىّ فى زورق ، ليخبرنى بأنه جاء بناء على أمر من وزارة الحربية، وأن رجاله على استعداد تام لتصليح وترميم الفاير كرست بأقصى سرعة لأن وراءهم مساعدات أخرى سيقومون بها فى جزر هبريد الجديدة » Nouvelles Hébrides [1] .

وفى الحال ، شمر البحارة عن ساعد الجد ، وساهم فى العمل معهم القومندان نفسه دون استنكاف ، كأنه واحد منهم وهذه صفة حميدة انفرد بها أبناء البحر الذين عرفوا معنى التعاضد فتآزروا . ويقول « جربو » مسجلا هذا التكانف :

(١) فى طريق العودة ص ٥٨ .

« وكثيراً ماقام القومندان وضباطه بالترميم والتصليح، رغم وصول المياه إلى خصورهم ، بجد ونشاط إعجابى كثيراً . وتغلب بحارة « الكاسيوبى » المتخصصون فى الميكانيكا على المصاعب التى لاقوها أثناء تصليح سفينتى ، لحسن رغبتهم ، وصـــدق عزيمتهم فى مساعدة أخ لهم . لذلك تم تصليح « الفايركرست » وأصبح صالحاً لجولاته وصولاته البحرية فى وقت قصير جداً ، اعتبره قياسيا .»

وبالرغم من سأم « جربو » لما كان أصاب سفينته ، فإنه استطاع أن يستميل قلوب أهل الجزيرة إلى محبته وصداقته لاسيما صداقة الملك والملكة وكريمتهما . وكانت الأسرة المالكة تتردد عليه كثيراً طوال محنته . كما بلغ إعجاب الأميرة الصغيرة — بصفة خاصة — بشكل عيدان الكبريت السويدى ، حدّ أخذ بعضها لتجعله حلية لأذنيها . وأراد « جربو » بعد أن اطمأن على سفينته ، أن يدعو ضباط « الكاسيوبى » إلى وليمة تفصح عن شكره لهم . وأسر بذلك إلى العائلة المالكة التى رحبت بهذه الفكرة . وسرعان ماتسابق أصدقاؤه من أهل الجزيرة فى تحضير الوليمة .

ونجحت الحفلة . وجلس القومندان والضباط الفرنسيون على الأرض على الطريقة الشرقية العربية ، أمام ألوان الطعام البولينيزى . وجاء الراقصون وقد دهنوا جلودهم بطلاء أحمر

وحلوا رؤسهم بتيجان من الزهور ، وعرضوا رقصاتهم فى رشاقة وخفة على إيقاع نغم الأغانى الشجية .

واستلقى « جربو » على وسادة ، وترك لنفسه عنان التأمل فى التباين البعيد بين ملابس الضباط الرسمية ، ومآزر أهل الجزيرة فى تعدد ألوانها . ولنتركه يحدثنا عن سروره لنجاح هذه الحفلة . قال : كنت سعيداً بثقة الأهالى وصداقتهم لى ، كما كنت سعيداً لقيامى بواجب الاكرام نحو أصدقائى رؤساء الباخرة ورجالها .

وفى صباح اليوم التالى ، سافر « الكاسيوبى » إلى سبيله ، وسارع « جربو » فى يوم ٩ ديسمبر ، بترك جزيرة « ماتا أوتو » Mata-Utu بعد أن ظل فيها خمسة أشهر . ويقول فى فلسفته المعهودة : « عندما أستعيد فى ذاكرتى كل ما حدث لى ، ابتسم شاكراً ، مفضلا الواقع ، فقد كان فى استطاعة القضاء أن يصيبنى بنوازل وكوارث تجعلنى أثراً بعد عين » .

ولا نعتقد أن « جحا » المشهور عندنا ، ينطق بأكثر من هذه الحكمة .

وأخذ « جربو » يمخر عباب أليم على حذر بين جزر المرجان ، إلى أن وصل إلى « سوفا » Suva عاصمة جزر « واليس » Wallis .

وترك جربو سفينته فى ميناء « سوفا » لترميم أسفلها ،

وتصقيلها توطئة لطلائها . وسار فى أنحاء الجزيرة طلباً للنزهة والترويح عن النفس . وشاءت الصدف أن يتلقى باصدقاء له من لاعبى التنس، فساهم معهم فى عدة مباريات حبية، شاهدها حاكم الجزر « سيراير هدسون » Sir Eyre Hudson ، وأعجب الحاكم بضربات البحار الفرنسى الكبير المحكمة ، مما دفعه إلى التصفيق له مراراً ، وإلى مصادقته .

وفى ذات يوم ، أقبلت المدرعة الانجليزية « رينون » Renown إلى ميناء « سوفا » رافعة شارات « الدوك يورك » Due d'York [1] ، الذى كان بين ركابها ، يتقدمها جمع غفير من الأهالى فى زوارقهم الشراعية . ووقفت المدرعة غير بعيد من « الفايركرست » الذى بدا ضئيلا بالنسبة لها . ولم يفت « جربو » هذا المنظر حيث علق عليه قائلا : « إن التباين كان ظاهراً بين هذا البناء المشمخر ، آخر ما انتجته عبقرية البشر فى فنون التجديد وعالم الاختراع للفتك بالانسانية ، وبين سفينتى الصغيرة المستكنة التى أوصلتنى سالماً إلى « المتقاطرين » Antipodes ، وأن فلسفتى علمتنى الرضا بما قسم لى من حظ فى الحياة . ألم أك متمتعاً بحريتى فى « الفايركرست » أكثر مما كان يتمتع بها الزائر الملكى فى مدرعته !؟ [2] .

---

(١) هو الملك جورج السادس ملك انجلترا الحالى .

(٢) « فى طريق العودة » ص ٧١ تأليف « جربو » .

وعند ماتم طلاء « الفايركرست » وأصبح قادراً على مواجهة الأمواج ، انطلق به من ميناء « سوفا » — بين تحيات الوداع من البواخر الراسية — إلى عرض البحر ، فى ١١ مارس قاصداً مدينة « الكاب » Cap ، وفى نيته أن يصلها خلال فترة الصيف .

وفى يوم ٢٣ مارس ، بعد سفر هادىء ، ظهرت له على مسافة ٦٠ ميلا ، جزر هبريد الجديدة Nouvelles Hébrides وجزر « سيكلاد الجديدة Nles-Cyclades الجاثمة فى الجنوب الغربى .

وفى يوم ٢٦ مارس ، رسا « جربو » فى ميناء « فيلا » Port-Vila [1] بجزر « هبريد » الخاضعة لانتداب فرنسا وانجلترا . وكانت كل دولة منهما تدير أعمال رعاياها الخاصة ، كما أنشئت هنالك محكمة دولية فريدة فى بابها ، يرؤسها قاض إسبانى لفصل النزاع بين الرعايا .

واضطر « جربو » لأن يرفض — على مضض وأسف منه — دعوة المندوب السامى الفرنسى فى المحيط الهادى ، لزيارة « نونميا » Nonméa ، لأسباب قاهرة تتصل بالملاحة ، لذلك لم يمكث فى ميناء « فيلا » إلا بضعة أيام ، التقى بعدها

---

(١) ميناء لجزيرة « فاتى » Vaté فى جزر « هبريد » .

بصديقه الحميم . . . البحر . وكان الجو صحواً ، واستطاع اجتياز جزر المرجان بمهارته المعهودة .

وفى ٢٣ أبريل ، ارتفعت الأمواج . وتشبع الهواء بالبرودة ، وهبط مقياس الجو ، وهاج البحر ، وتزايدت شدة الرياح على مر الوقت ، وهطلت الأمطار بغزارة . فغير « جربو » طريقه فى الحال . وبعد ١٢ ساعة ، هدأ الجو قليلا . وعند ماوصـــل إلى « غينا الجديدة » Nouvelle Guinée ترامى إلى مسامعه أن عاصفة شديدة هبت خلال أيام ٢٥ و ٢٧ ابريل على بعد ٢٠٠ ميل من الجهة التى كان هو فيها وهكذا نجا « جربو » من هلاك محقق .

وفى يوم ١٠ مايو ، ألقى هلبه فى مياه « ميناء مورسبى » P. Moresby الهادئة ، وكانت الشوارع الأوربية والبيوتات التجارية فى « مورسبى » مكتظة بأناس ، مختلفى الأشكال والأجناس ، ويقول « جربو » عنهم : « كان من بينهم رجال سود البشرة ، طالت أنوفهم بقدر مادقت ، ينحدرون ، بلاشك ، من أصل سامى . ولعلهم ممن خلفتهم إحدى قبائل إسرائيل . وكنت أرى كذلك رجالا لهم بشرة صفراء أو نحاسية اللون ، ومنهم من حاكى لونه لون القهوة المختلطة باللبن . وكل واحد من أولئك كان يتكلم بلهجته الخاصة .

وبقدر ما كان خليج ميناء « مورسبى » قاحلا ، بقدر

ما كان الريف مخضراً ، وتناثرت عزب الأهالى بين الأدغال والغابات التى لم تعبث فيها يد المدنية . خلف منزل الحاكم الذى يشرف عليها من منتصف هضبة من هضبات الجزيرة . واختار « جربو » هذه البقعة لنزهاته وتأملاته .

كان الذكور من السكان يرتدون المآزر ، بينما لبس الإناث رداء يسترهن من الخصر إلى الركبة ، نسج من ألياف الشجر ، يشد إلى خصورهن بحزام .

ويقول « جربو » متحدثاً عن هذا الجنس اللطيف : « كانت الفتيات فى منتهى الخفة والحسن . وكانت سواعدهن ورؤوسهن محلاة بزهور زاهية جميلة . أما ظهورهن العارية وصدورهن ، فقد ازدانت بوشم يتناسب مع حسنهن ، لا تراه العين إلا عن كثب » .

وفى يوم ١٩ مايو ، نشر « جربو » أشرعة السفينة ، وانطلق من المرسى إلى بحيرة ميناء « مورسبى » مارقاً بين ضفتى « البازيليك » Basilik .

واستدل « جربو » من تلون البحر بلون أصفر ، ومما حملته مياهه المتلاطمة من جذوع الشجر ، أن عواصف شديدة هبت فاجتاحت ما وجدته فى سبيلها . وتكاثرت الكائنات الحية حوله ، وجاءت الطيور البحرية بين صياح وتغريد لتقف على أعمدة السفينة ، بينما قامت الأسماك تتبع ظلها فى البحر . وبعد أن سكن الريح واعتدل النسيم ، رأى

« جربو » أن يسلى نفسه بصيد السمك والطير ، ليأكل منه لحماً طرياً طازجاً .

وكان طريقه إلى الهند محفوفاً بالأخطار ، لتناثر جزر المرجان وصخوره الخبيثة ، عند مضيق « توريس Torrès » ، مكونة حاجزاً صخرياً يمتد من الجانب الشرقى لاستراليا إلى « غينيا الجديدة » .

ويقول « جربو » : كان أمامى طريق واحد أستطيع المرور فيه ، هو الطريق الشمالى الشرقى ، المشهور بمدخل « بلاى Bligh » .

ولا شك أن من أصعب الأوقات التى مرت عليه فى رحلاته ، كانت تلك التى اجتاز فيها هذا الممر المحفوف بالأخطار . ثم مرّ فى طريقه بجزر كمبل Campbel ، و « دارلامف Darlymphe » و « يورك York » وبالجزر الأخرى الساحرة الجميلة العجيبة التى لم يجد لها ذكراً فى خريطته البحرية .

وزار كذلك جزيرة « ثارسدى » Thursday و « ونسدى » Wednesday وعلت هذه الأخيرة زروع برية لم تطأها أقدام البشر . وكان يشعر بسعادة وهو يتأرجح بسفينته بين عباب البحر ، كما كان مشدوهاً بجمال المحيط الهادى الذى تركه وراءه ، والذى مازال ماثلا فى ذاكرته . ثم اندفع بسفينته ، بقلب ثابت وعزيمة قوية ، نحو مجاهل جديدة ... نحو المحيط الهادى .

وفى يوم ١٦ يونيو ، عندما وصل إلى بحر « أرافورا » Arafura استرعى نظره غبار أحمر يكسو سطح الماء ، كما استرعى ذلك الغبار الغريب من قبل ، نظر « الكابتن كوك » المشهور ، ونظر العلامة المعروف « شارل داروين » Charles Darwin

وظهرت له جموع من الثعابين فى ألوانها البراقة . ولما كان البحر مشبعاً بالفسفور فى هذه المنطقة فقد كان « الفايركرست » يترك وراءه ذيلا من النور .

وفى أول يوليو ، أبصر بقمم جزر « تيمور » Timor و « روتى » Roti الشاهقة . وبعد أن اجتاز مضيق « سيمو » Semau الكائن بين هاتين الجزيرتين ، ألقى هلبه فى مرسى « كوبوانج » Koepwang الجميل ، الذى كان فيما قبل ، برجاً هولندياً .

واحتفى به الحاكم الهولندى الذى قرأ كتاب « بمفردى عبر الأطلنطى » فى نسخة هولندية ، احتفاء كبيراً .

ولما كان البحار الفرنسى يمقت النزهات الرسمية المرسوم خط سيرها ، لما يشتم منها رائحة الدعاية ، فقد تخلص بلباقة من حفاوة الحاكم وغيره من ذوى النفوذ فى الجزيرة ، ليتمتع فى تجواله بمفرده فى أنحائها .

وقف جربو على سبيل الحياة والمرافق العامة فيها ، كما ثبر خلق أهلها وجلهم من الملايو والهند والصين ، واستلفتت نظره نظافة التجار فى كل معروضاتهم حتى فى البضاعة التافهة .

وأراد «جربو» أن يذوق طعام أهل الملايو ، فوجده مشبعاً بأنواع التوابل والبهارات ، مما أهب لسانه ، وجعله يبحث عن طعام آخر أقل لهيباً . فدله أهل الخير على مسلمى الجزيرة المنحدرين من أصل عربى . فذاق طعامهم ، وكان اللحم هو الغذاء الأساسى عندهم . ولقد وصف «جربو» هذا الصنف بأنه : « قطع من لحم الضأن مصففة فى سيخ ، شويت فى الهواء الطلق فوق نيران تتصاعد من الفحم الحجرى » . أنه يريد ، بلا شك ، أن يصف ما نسميه نحن فى مصر « بالكباب » . وعلى كل ، فإن « جربو » وجد هذا اللون من الشواء لذيذاً . وفى المساء ، أخذ « جربو » مجلسه فى إحدى المقاهى العامة الوطنية . وشنف أذنيه بمختلف النغم المتصاعد من القيثارات الغريبة ذات الأربعين وتراً ، فى جو اختلطت فيه رائحة البهارات برائحة البخور . لقد افتتن « جربو » بسحر الشرق ، فترك نفسه تسبح فى عالم الخيال والأحلام .

إلا أن شيطان البحر عاد فوســـوس إليه ، فاستمع لوسوسته كعادته ، ورفع هليه فى يوم ١٥ يوليو ، ونشر

أشرعته ، وخرج وئيداً من مرسى « كوبوانج » Koepwang تاركا وراءه البحر السحرى والأحلام البائدة .

وفى ١٧ يوليو ، جال حول جزيرة « سافو » Savu المشهورة بين بقية الجزر بجمال نسائها . ولكنه لم يقف عندها . وبعد عشرين يوماً قضاها فى البحر فى هدوء وسلام ، وصل أمام جزيرة « كرسماس » Christmass . وفى ٩ أغسطس ألقى هلبه فى جزيرة « كيلنج » Keeling حيث لقى فيها الطراد الألمانى « أمدن » نهايته المشرفة خلال الحرب ، ويقول « جربو » فى ذلك :

« ولقد شيدت السلطات عاموداً للبرق اللاسلكى ، فى المكان الذى نسف فيه الطراد الألمانى[1] ، نقشت عليه عبارات خلدت بها هذه الواقعة . ويرى الناظر بعض أجزاء حديدية فى جزيرة « كيلنج » هى ما تبقى من هيكل ذلك القرصان الحربى الحديدى الجبار .

واحتفى الانجليز فى هذه الجزيرة « بجربو » احتفاء عظيما وقدموا له خدمات ملموسة . ولكن « جربو » ، بعد أن أصلح سفينته ، واختبر « الكرونومتر » ، واستزاد من مؤنة

---

(١) نال القومندان « فون مولر » Von Muller قائد الطراد « امدن » اعجاب واحترام أعدائه ، لما أظهره من بسالة وشجاعة وكرم أخلاق ، قلت أن تجتمع فى بحار . ويعد مولر بحق ، من أعظم الوجوه التى يتحلى بها تاريخ البحرية الحديث .

الأرز والفطير وماء الشرب، انطلق نحو جزيرة « رودريجيز Rodriguez » وهى تبعد عن جزيرة « كيلينج » بألفى ميل .

وفى ضحى يوم ٢١ سبتمبر ، بعد سفر ذاق فيه الأمرين من البرد القارص — رغم انحداره نحو الجنوب — شاهد الجزيرة التى كان ينشدها .

وحوالى الظهر ، دخل مرسى « سان ماتوران Saint Mathurin » فاستوقفه زورقان شراعيان أحدهما انجليزى . وصعد منها إلى « الفاير كرست » كل الركب ، وسألوه إذا كان فى حاجة إلى مساعدتهم، وقبل انتظار جوابه بادروا إلى مساعدته ، فتأفف « جربو » من هذه المساعدة التى كان فى الواقع فى غنى عنها . ويحدثنا « جربو » عن هذه « المساعدة بالإكراه » قائلا : « وظللت أكثر من ساعة أعوّم السفينة وقد نشبت فى الرمال ، واصلب الهاب فى المضيق وقاية من الأنواء . بينما كان فى استطاعتى أن أقوم بكل ذلك فى دقائق معدودات لو أنهم تركونى أعمل هذا بنفسى .

وبعد أن تخلص من زائريه ، أخذ حمّاماً ، وتناول طعاماً مغذياً ليعوض ما فقده من نشاطه . وسرعان ما عاد إليه سروره وابتساماته المعهودة . وابتدأ يتجول فى جزيرة « رودريجيز » التى كانت تابعة للحكومة الفرنسية فيما مضى ، قبل أن تصبح شركة « الهند الملاحية » ، شركة انجليزية وكان

سكان هذه الجزيرة خليطاً من البريطانيين والنورمنديين والأفريقيين . وكانت لهجتهم غريبة ، تتخللها كلمات انجليزية ، واصطلاحات فرنسية قديمة ، مما كان يسلى « جربو » كثيراً .

وبعد أن قضى فيها عشرين يوماً ، اتجه صوب جزر « الرينيون » Réunions (١) .

فوصل ، بعد ثمانية أيام قضاها بين النسيم العليل ، إلى جزيرة سان موريس St Maurice البديعة التى بعثت فى خياله الشعرى ذكريات من أدب ، برناردان دى سان بيير (١) Bernardin de St Pierre صاحب كتاب « بول وفرجينى » Paul et Virginie الذى كاد يطوى فى سجل النسيان .

وفى ٩ أكتوبر ، رسا فى جزيرة « الرينيون » Réunions وكم كانت دهشته عندما وجد وفود الناس محتشدة للقائه . ويرجع السبب فى هذه المفاجأة السارة ، إلى البرقية التى أرسلتها السفينة « فيل داراس » Ville d'Arras بعد مقابلتها له فى عرض البحر .

وصعد محافظ الجزيرة إلى « الفايركرست » ورحب « بجربو » ، ونزولا على إرادة البحار الفرنسى الذى أبدى رغبته فى عدم دعوته إلى حفل رسمى ، فقد دعاه فى الغد إلى

---

(١) تملك فرنسا هذه الجزر منذ سنة ١٩٤٢ . وهى من جزر المحيط الهندى فى شرق افريقيا .

تناول الطعام معه على مائدته الخاصة. ولكن الناس اجتمعوا رغم هذه الحيطة على الرصيف ، وتتبعوا البحار الكبير خطوة خطوة حتى أوصلوه إلى قصر المحافظ .

ويقص علينا « جربو » غضبه من هذه الحفاوة البالغة قائلا :

وجاءت البرقيات تترى من نقابة الصحفيين، والجمعيات الرياضية ، ومن القنصل البريطانى ومن غيره من الشخصيات البارزة . . . وسرعان ماوصل قطار « سان دينى » St.Denis يحمل جمهوراً غفيراً من المعجبين بى ، ولم أخش أحداً من أولئك بقدر ماخشيت مخبرى الصحف ! .

ثم يردف قائلا ، بعد أن حوصر بأسئلة المحررين ، وآلات تصوير مخبرى الصحف ، ووفود المستقبلين :

« لم تك إقامتى بينهم عدة شهور كافية لوقوفهم على كل ما أرادوه من أخبار ومعلومات » . وإن كانت هذه الحفاوة أرضت ضمير « جربو » ، إلا أن ميله الفطرى للوحدة تغلب عليه ، حتى أنه اضطر إلى رفض كل الدعوات وقام إلى سفينته يختبىء فيها رغم أعمال الترميم التى كانت جارية فى أسفلها.

وبعد أن قضى خمسة أسابيع فى جزيرة « الريونيون » قامت عدة سفن مختلفة الأحجام والأشكال تصحبه أثناء اجتيازه الميناء فى يوم ١٨ نوفمبر . ويقول بعد أن انفرد فى

البحر ، وعاد اليه انشراح صدره : « أصبحت وحيداً فى البحر الخضم . وكم وددت الجنوح إلى مدغشقر Madagascar ولكن ابتداء فصل الزوابع حال دون أمنيتى هذه ، لما أعرف عنه من خطورة كبيرة لا سيما إذا ما اقتربت من ساحلها الشرقى . »

وكان سفره فى هذه المرة شاقا . فكم من مرة تمزقت فيها أشرعته ، وخارت فيها قواه ، حتى أنه وصل بكل صعوبة إلى الدرجة السادسة والعشرين من خط العرض الجنوبى ، ليستطيع الدخول فى منطقة « دائرة الانقلاب » الهادئة ، حيث هيأ له الجو الصحو مشاهدة كسوف القمر كسوفاً تاماً ، مما ساعده على ضبط « الكرونومتر » الذى تزود به ، وتحديد موقعه ؛ ثم أعقبت النسيم العليل ، لفحات من الريح ، دفعت السفينة برفق نحو القارة السوداء .

وفى فجر ١٤ ديسمبر ظهرت له سواحل أفريقيا .

وشاهد فى مساء ١٧ ديسمبر ، أنوار مدينة « دربان » Durban ، ودخل فى نفس اليوم الممر الضيق الذى يوصل إلى الميناء . وما أن ألقى بهلبه ، حتى بادر « كابتن » الميناء يصحبه إلى المرسى المخصص لطائرة الحاكم المائية . وقوبل مقابلة الأمراء . وجاء اليه رئيس وأعضاء نادى اليخت الملكى الأهلى Royal Natal Yacht Club وسلموا عليه وانتخبوه عضو شرف فى ناديهم طيلة إقامته بينهم .

واحتفى به سكان « دربان » ، بنفس الحفاوة الكبيرة التى قابله بها أهل جزيرة « الريونيون » . وكادت المدينة أن ترفع له الأعلام تحية له ، ولقد صادف وصوله يوم الاحتفال بعيد ميلاد المسيح ، ورأس السنة الإفرنجية . فاضطر رغم أنفه ، أن يقبل دعوة العشاء الصاخبة التى أقيمت خصيصاً له فى أكبر فندق فى المدينة ، بمناسبة إحياء ذكرى ميلاد عيسى عليه السلام .

وقام « جربو » يسجل ماخالج نفسه فى هذا الحفل قائلا :

« إن كثرة انفرادى وبعدى عن الناس فى حياتى ، جعلنى أشعر بأنى غريباً بين هذه الوفود . وكان صخب المدعوين شديداً جداً فى قاعة الحفل ، لدرجة يعجز القلم عن وصفها . كان كل واحد منهم يأتى بحركات ، القصد منها تسلية جاره . حتى وصل بهم الأمر إلى محاكاة الأطفال فى مزاحهم . ومنهم من ركب فوق أنفه أنفاً صناعية . ومنهم من لبس قبعة من الورق ، حتى خيـــل إلىَّ أنى فى يوم مهرجان . . وقامت « الاركسترا » تعزف على غير نغم شجى . وأعتقد أننا لو كنا بين سكان جزر « تاهيتى » لتمتعنا بحلو النغمات الموسيقية الفطرية ، ولفضلها الذين دعونى اسماع نشاز « الأوركسترا » الأوربية .

ولا نعتقد فعلا ، أن مثل هذا الصخب يروق بحارنا الفذ

أردف قائلا فى صراحته المعهودة : ربما اعتقد الناس خطأ ، أنى عدو المدنية . ولا شك أنى أعرف مثلهم كيف أقدر غذاءاً شهيا ، وسط جمع لطيف من المدعوين الأذكياء ، أشاطرهم الحديث ، ولكن هذا شيء والتهاجر فى وسطهم ووجوبى مراعاة العادات المتكلفة التى ألفوها ثم تبرمى منها أنا ، شيء آخر . » كما يقول فى حديثه عن مدينة «دربان» إن مدينة دربان نظيفة ومنظمة بقدر ما يمكن فيها تنسيق تقسيمها الهندسى . وهى تشرف على الخليج . مما يكسبها رونقاً وبهاء . ولكن المصانع المشيدة حول الميناء أضاعت كثيرا من جمالها وبهجتها ، كما أن الغرف الخشبية التى أنشئت للمستحمين على الشاطىء ، حجبت البحر عن المارة .

لم تعبث يد البشر بجمال الطبيعة فى « دربان » بأكثر مما عبثت به فى « برايتون Brighton وإيستبورن Eastbourne » أو بعض شواطىء بحر المانش . فلقد غاب عن منشىء هذه الغرف مراعاة أبسط قواعد الفنون التى أوجدتها العلوم الحديثة ، لحفظ وصيانة جمال هذه البقعة (١)

وكان يلذ « لجربو » فى بعض نزهاته ، أن يركب نوعاً من العربات الصغيرة المسماة « ركساو Ricksaw » ، وهى عربات صغيرة يجرها رجل من « الزولو » بعد أن يثبت فى رأسه

---

(١) فى طريق العودة لألان جربو ص ١٥٠ .

obeikandi.com

قرنين ، ويلون ساقيه باللون الأبيض ، ويعلق فى رقبته حبلا كتلك التى تعلق فى رقاب الخيل ، وكان جربو يفضل هذا النوع من الركوب ، على أنواع السيارات الفخمة ، لأنه يمشى به رويدا ، فيتمتع بمشاهدة جمال الطبيعة .

وفى « دربان » روح عن نفسه تارة بلعبه التنس ، وطورا بملاحظة ترميم سفينته . وبينما كان يهرب من « المتحضرين » من سكان هذه الجزيرة ، فإنه كان لا يأنف من زيارة عرب الزولو ، والاختلاط برجالها الأقوياء ، الذين لا يعرفون إلا الإبتسام والصراحة وارتداء المئزر .

وشاهد يوما حفلة رقص أقيمت احتفاء بفريق انجليزى من لاعبى « الكريكت » ، ويقول عنها :

وخولت لى هذه الحفلة التمتع برشاقة حركات أولئك السود ، والإعجاب بأجسامهم القوية ، أولئك السود الذين قاموا يصدون عن أوطانهم الغزاة الغاشمين من أهل الغرب.(١)

وفى يوم ٢٤ يناير ، قام رقاص « كابتن الميناء » بجر سفينة (جربو) حتى أخرجها إلى عرض البحر . وقامت الرياح الشديدة تلعب (بالفاير كرست) وتعبث به ، حتى يوم ٢٩ حيث هدأت قليلا ، لتعود على أشدها . ولاحظ (جربو) أن الأمواج تفوق فى ارتفاعها علو الصارى ، أى كانت ترتفع

(١) فى طريق المودة « لآلان جربو » ص ١٥٢ .

إلى ٤٩ مترا . وفى يوم ١٣ فبراير مر برأس (الرجاء الصالح) وهدأ البحر ، وترك (جربو) السفينة تأخذ مسلكها رويدا رويدا نحو خليج (شابمان) Chapman حيث سمع طيلة الليل أنين سمك (كلب البحر) .

ومر فى اليوم التالى — بين النسيم العليل — بجانب الشاطىء ، ليتمتع برؤية العمدان الفارعة التى وصفها كاموئس [1] من قبل .

وفى يوم ١٦ فبراير ، حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، شاهد ضباط «ميناء كبتاون» Cap Town من أعلى السيمافور ، «الفاير كرست» الصغير ، وهو يشق طريقه فى الماء ، نحو مدخل الميناء . فسارعوا إلى مقابلته ، وجذبوه إلى حوض أسس خصيصاً لليخوت .

وترك «جربو» سفينته التى أتلفتها العواصف فى الحوض لترميمها ، واستطاع فى فترة قصيرة أن يكتسب صداقة الضباط البحريين الذين جاءوا فى الطراد الإنجليزى « ول فلاور » Well Flower ، وكثيرا مالبى «جربو» دعوتهم فى تناول الطعام معهم على ظهر البارجة ، كما صحبهم فى نزهاتهم فى أنحاء مدينة

---

(١) هو لويس كاموئس Louis Camoens (١٥٢٥ — ١٥٧٠) شاعر برتغالى ولد فى لشبونه واشتهر بدقته فى تصوير الظواهر البحرية ، والعناصر الحيوية ، بقلم سلس اخاذ . المؤلفة

« الكاب » التى أعجبته . ويقول فى ذلك : « تقع هذه المدينة بجوار « تيبل مونتنز » Table Mountains ، ويحيطها سياج جميل من الجبال الشاهقة . إنها مدينة عجيبة فى جمالها الطبيعى. فعند مايلبس « التيبل » حلته من السحب ، تهب الريح الجنوبية الشرقية حاملة معها ذرات التراب . ويفوق تعداد سكانها المنحدرين من « البوير » تعداد بقية سكانها ؛ كما أنهم يختلفون كثيراً عن البريطانيين القاطنين فى « دربان » .

« ولم يختلط نسب الرجال « الزولو » فى مدينة « ناتال » Natal ببقية السكان ، بينما كنت أرى فى مدينة « الكيب » مولدين قذرين ، بقدر مافى أجسامهم من عاهات وتشويه. »

وما أن تم ترميم « الفايركرست » وركبت فيه الأشرعة الجديدة ، حتى فكر « جربو » فى الرحيل .

وفى ١٧ مارس ، استعد له . ويقول فى ذلك : « أراد أحد أصدقائى التقاط صور سينمائية لى قبل مغادرتى الميناء. كما لم أمانع — على مضض منى — فى أن يجرنى « رفاص » كابتن الثغر ، حتى يسير بى بين الأحواض المتناثرة فى مدينة « الكاب » ، اذ كان بودى أن أقوم بكل ذلك بنفسى وبمفردى . ولكن الناس أبدوا استعدادهم لمساعدتى ، واشتراكهم فى رفع الأشرعة أيضاً ، وكانت الرياح شديدة ، فقذفت « بالفايركرست » حتى جعلته يقطع ثمانية عقدات

فى الساعة ، فانقلبت الآية وأصبح الفايركرست يجر الرفاص ، بعد أن كان الرفاص يجره ! .

انطلق « الفايركرست » من الثغر إلى عرض البحر مدفوعا بقوة الريح . وترك « جربو » وراءه تلك المدينة ، ونيران جزيرة روبن Robben ، وأخطار الساحل ، ثم حول الدفة تجاه جزيرة « سانت هيلانه » Ste. Hélène وكانت تبعد عنه بنحو ألف ميل .

كانت الرياح غير معتدلة فى أول الأمر ، وكثيرا ما صادفته الأعاصير والعواصف ، حتى أنه لم يتمتع بهدوء البحر ، إلا عند ما سكنت الريح العاتية فى يوم ٣٠ مارس ، لدخوله فى درجة ٣٧° من خط العرض ، ثم انخفضت سخونة الهواء وظلت السفينة تتأرجح فوق الأمواج أثناء اقترابها من جزيرة « سانت هيلانة » .

وفى ١٩ ابريل ، دار « جربو » حول الساحل الشمالى الشرقى من الجزيرة ، وكانت أرضه جرداء قاحلة ، وتفادى قوة الرياح وهو بين جبال الجزيرة ، إلى أن اقترب من مدينة « جمس تاون » James Town ، حيث وضع فيها قدميه فى اليوم التالى .

كان وادى هذه المدينة ضيقاً ، بقدر ما هو خصيب ، كما كانت الصخور الحمراء الجرداء تحيط به من كل جانب .

ولنترك « جربو » يحدثنا لحظة : « وفى يوم من ذات الأيام، ركبت جوادا لأتنزه به فى المدينة ، ومررت بجانب الجبال ، وسط طريق تطلب تعبيده مجهودا كبيرا ، وكانت الخضرة التى تكسو قمم هذه الجبال، لاتختلف عن تلك التى تنبت فى أعالى الجبال الأوربية ، كما أن الدور فى العرب ، كانت تشابه تلك التى كنت أراها فى انجلترا ، وترامى تحت قدمى ، وادى « لونجوود » Long Wood الخشب[1]، وشاهدت على مقربة منه ، الوادى الصغير الذى يوجد فيه قبر نابوليون[2] .

وبصفة « جربو » رجلا فرنسيا يفخر بمجد بلاده ، فإنه أبى أن يزور قبر الامبراطور، وشرح لنا ذلك بتأثر شديد : « لم يقو شعورى على متابعة السير مع من كان فى رفقتى ، فى الأماكن التى يغشاها عادة السواح، ولقد اكتفيت بالمرور — فى خشوع — بالطرقات التى كان يمشى فيها الامبراطور الكبير أيام أن كان سجيناً فى هذه الجزيرة، ثم صعدت إلى سفينتى .

وفى ٢٩ ابريل، عند ما أراد أن يغادر جزيرة « سانت

---

(١) المكان الذى كان يعيش فيه نابوليون إلى أن توفى سنة ١٨٢١ .

(٢) القبر المؤقت الذى دفنت فيه رفات نابوليون، ثم رفعت منه وشحنت إلى فرنسا ، حيث وضعت فى قصر « الانفاليد » بباريس ١٨٤٠ ، أيام حكم لويس فيليب .

المؤلفة

هيلانة » متجها نحو جزيرة « الأسانسيون » Ascension صادف خروجه من الميناء ، دخول باخرة تحمل عدداً كبيراً من الركاب ، وماأن عرفوه حتى صاحوا يحيونه بغناء يقول عنه « جربو » أنه « نشيد يماثل تماماً فى نغماته ، نغمات المرسييز La Marseillaise .

وبعد ١٤ يوماً قضاها فى البحر ، ظهرت له جزيرة « الأسانسيون » على شكل هيكل أسود متكسر الجوانب ، قامت من حوله قمم تطاب عنان السماء ، وكانت مياه البحر فى هذه البقعة زرقاء باهتة ، ويقول « جربو » فى ذلك : « عند مانزلت إلى البر ، وجدت عددا من سكان المستعمرة واقفين فوق رصيف الميناء استعدادا لاستقبالى والاحتفاء بى » .

كانت شركة « الكابل الانجليزية » Comp. Anglaise du Cable تدير شؤون هذه الجزيرة . وقد عنت هذه الشركة باعداد مكان خاص للعبة التنس وكرة القدم « والكريكت . » وكانت أرض الملعب نظيفة لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً . وهكذا استطاع « جربو » أثناء إقامته فى هذه الجزيرة أن يمارس أحب الرياضة إلى نفسه .

ويقول « جربو » : « وهكذا مرت سراعا الأيام القليلة التى قضيتها بين أهل الجزيرة فى وئام وعناية أخوية ، وكم أسفت لعدم استطاعتى الإقامة بينهم مدة أطول . ولا شك

أن الحفاوة التي قابلني بها أعضاء هذه الشركة الانجليزية تركت في نفسي أثراً حميدا ، لا تستطيع الأيام أن تمحوه من فؤادي »

وفي ٢٦ مايو ، ترك الجزيرة في وقت كان النسيم العليل يداعب فيه سطح البحر ، ليتجه نحو جزر « الكاب فير » Cap Vert .

وشاهد البحار الفرنسي الكبير ، في ليلة ٨ يونيو ، النجم القطبي لأول مرة منذ ثلاثة أعوام .

وفي ١١ يونيو وصل إلى الدرجة الخامسة من خط العرض الشمالي ، فلم يعد يستند على النسيم ، واستهدف للعواصف الهائلة المرعبة . فكان طيلة أيامه تقريباً ، عرضة للأمطار الغزيرة ، والصواعق المنقضة ، والبرق الخاطف . ورغم سلوكه طريق السفن التجارية ، فلم تلتفت اليه واحدة منها أثناء مرورها بجواره ، حيث كان جل اهتمامها متجها إلى النجاة من الأمواج التي بلغ علوها وضخامتها ، الأطواد العظيمة .

وفي ٢١ يونيو ، عندما هدأ البحر قليلا ، لاحظ « جربو » أن سمكة من نوع القرش وأخرى من فصيلة « اللما » يتبعانه جنبا لجنب ، ويقول عنهما : « خشيت على نفسي من سمكة « اللما » الضخمة التي يبلغ عرضها ١٢ مترا ، أكثر من خشيتي القرش الذي كان بجوارها . . »

وعندما بلغ الدرجة العاشرة الشمالية ، شعر بنسيم عليل

يداعب سفينته من جهة الشمال ، ولكن تيار البحر المخالف لتيار النسيم كاد يعوق سيرها ، ويقول جربو « ولم أشعر قبلا بنعمة النسيم الذى كان يهب من الشمال الشرقى ، إلا فى يوم ٣ يوليو ، ولقد بصرت بالأرض قبيل الظهر .

كانت هذه الأرض ، جزيرة « برافا » Brava . ودار « جربو » حـــول جزر « سان انطونيو » St. Antonio « وسان فنسان » St. Vincent . وكانت لطمات الرياح تطيح بالفايركرست فترقده على جنبه . وكانت المياه تدخل من فتحات السفينة فتتلف كل ما أتت عليه .

ولما كان « جربو » قريبا من اليابسة ، فانه لم يترك الدفة لحظة واحدة لردامة الجو .

وفى ٩ يوليو ، هدأت الرياح قليلا ، فسار بسفينته على حذر بين جزر « سان فنسان » و « سان انطونيو » . ولما استيقن أنه فى مأمن من غضب الطبيعة وهو بجوار الساحل ، أراد أن يستريح قليلا . فنام ثلاث ساعات ، استيقظ بعدها فزعا على رجة قوية . ويقول « جربو » : « علمت من هذه الرجة إن السفينة تصادمت مع صخرة من صخور المرجان المتناثرة بجوار سواحل جزيرة « سان انطونيو » ، وما هى إلا ثوان حتى مال « الفايركرست » على جنبه ، وكاد رأس الصارى يمس الصخور من شدة ميله ، وكان فى استطاعتى أن أقفز

إلى الأرض دون أن أبتل ! أما هذا الصدام فانه لم ينتج عن خطأ فى القيادة ، وإنما يرجع إلى إنى استسلمت للكرى وأنا قريب من اليابسة ، لذا يجب على أن أرضى بما أصابنى . ثم عُدت أسوس الدفة بين أرخبيل « توامو تو » Tuamotou المنطرة وخليج توريس Torrès وكم كنت مخنقا لاضطرارى إلى الركون إلى هذا الخليج ! . ولكنه القضاء والقدر . وكان حتما على أن أقبل ما لا بد منه ، كما كنت أتوقع ، فى نفس الوقت ، ضياع السفينة لو هبت أقل ريح شديدة »

وانتصف الليل وابتدأت مياه البحر تتراجع واستهدف «الفايركرست» طيلة الليل ، رغم هذا الجزر ، للطمات الأمواج ، ولكن دون أن تؤثر فى سيره أو تتلف منه شيئاً حتى ظن «جربو» أن حظه السعيد عاد اليه ليرافقه هذه الليلة على الأقل . وعندما تنفس الصبح ، وأرسلت ذكاء خيوط شعرها الذهبى على صفحة البحر الزرقاء ، قفز « جربو » من سفينته ليتسلق فى خفته المعهودة صخرة من بين الصخور . وجال من فوقها ببصره الحاد حول هذه البقعة ، فرأى قفراً مخيفا فى سكونه لا تدب فيه أى حياة تقريباً ، ورأى على مدى البصر أكواخا ، فترك السفينة راسية ، ثم علق راية فى أعلى المجذاف بعد أن ثبته على الساحل ، ليلفت به نظر سكان هذه الجزيرة القاحلة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى تلك الأكواخ ، عسى أن يمده أصحابها يد

المساعدة التي يرتجيها . ولنترك « جربو » يكمل حديثه : «كانت طبيعة الأرض وعرة جداً لما فيها من هضبات وأكمات كثيرة متناثرة، وكنت اجتاز طريق بين كثبان الرمال، تحت أشعة شمس محرقة، فكنت تارة أعدو ، وطورا أمشي الهوينا ، حتى وصلت إلى القرية المنشودة . »

وبعد محادثات طويلة وبطيئة ، كاد يفرغ أثناءها صبر « جربو » استطاع أن يتصل « تليفونيا » بمأمورية هذه الجزيرة في الساحل المقابل له . وشرح للسلطات المختصة هناك ما آل اليه وإلى سفينته . ولم تمض ساعة حتى جاء رجال الشرطى ليحرسوا « الفايركرست » ويحموها من فضول الجمهور الذى هب إلى هذه السفينة . وعندما اطمأن البحار الفرنسى على مركبه ، ركب زورقا وذهب إلى « بورتو جرندى » Porto Grande حيث وصل اليها بعد أربع ساعات ، ووجد في هذه الميناء ، الباخرة البورتغالية « انفانتدون هنريك » فصعد اليها وطلب من قومندانها أن يعينه على تصليح « الفايركرست » وبعد ساعة كانت سفينة « جربو » — بفضل معاونة البحارة البورتغاليين — صالحة نوعا ما لتكملة سيرها . ولقد قامت تمخر عباب اليم قاصدة « بورتو جراندى » بصعوبة ملموسة لأن المياه كانت تتدفق إلى داخلها من ثقب طويل يبعد عن مستطح الماء ببضع

سنتيمترات . فامدته الباخرة البورتغالية بمضخة كبيرة كانت تمتص أول بأول المياه التي تتسرب من هذا الشق إلى الداخل.

ووصل جربو بالفايركرست » إلى « بورتو جراندى » « بعد جهد متواصل » .

وهناك ترك السفينة فى حوض التصليح البحرى لترميمها وعلم أن تصليحها سيتطلب فترة من الزمن تزيد على بضعة أشهر .

ويقول « جربو » فى هذا الصدد : لقد فات أوان وصولى إلى فرنسا قبل الشتاء كما كنت أود من صميم فؤادى ، لذلك استقر رأيي على البقاء فى « الكاب فير » طيلة فصل البرد حتى استطيع تكملة مؤلفى هذا . . » ثم استطرد يقول :

« لا شك أن هذه الفكرة فيها شيء من الحكمة والفلسفة ولكن هل شعورى هو الذى دفعنى إلى هذا ؟ إذا أردت تمحيص ما يجول بنفسى ، فانى اعتقد أن شعورى ليس له أى دخل فى بقائى فى هذه الجزيرة . ولكن الذى دفعنى إلى الاقامة هنا ، هو مجرد التفكير فى أن سياحتى اقتربت من نهايتها ، وإن « الفايركرست » سيصبح عاطلا ، كالجندى الذى يلقى سلاحه بعد ساعة الوغى وكسب المعركة . وكم كنت أود أن أخاطر بنفسى ، واركب الصعاب بقلب ملؤه الثبات والشجاعة ، لأزور بعض جزر « المدارات » ، لا لأن التي بعضا

التسيار فى فرنسا، حيث سأجد فيها من حرارة استقبال مواطنى لى ، ما يعوق حريتى وينال منها !

لقد نشأت صداقة متينة بين « جربو » و« أهل » بورتو جراندى ، حتى كانوا يتسابقون فى ارضائه وجعل مقامه بينهم محفوفاً بأنواع التسلية والسرور . ورغم طلب اصدقائه منه المكث بينهم بقية الصيف ، فانه — وهو المتشبع بحب البحار والانفراد فى أسفاره — رفض هذه الدعوة بلطف ، لأنه كره فى الحقيقة سكنى الأرض . ومن وصفه لهذه البقعة قوله : « رغم هذا الجو الذى لا يكدر صفوه سحاب ، ورغم أن العين لا تقع إلا على تربة حمراء وصخور جلمودية ، لا يرى المرء فيها آثاراً للخضرة ، فقد آثرت البحر عليها . وعندما يتهادى أحد الأهالى على الساحل ، ينطبع خياله على رؤوس الجبال فى حجم العالقة وربما كان يرجع ذلك إلى انعدام النبت فى أصل هذه الجبال . »

« وكانت تمتد بالقرب منى ، مدينة « منديلو » Mindelo بارصفتها التى تقصدها الصنادل دون انقطاع ، لتتزود بكميات الفحم اللازمة لها من المخازن الكبيرة التابعة للشركات الانجليزية . إنها بلا شك مدينة الفحم . وكانت هذه الصنادل الراسية حول « الفايركرست » تنتظر قدوم البواخر ، المتجهة نحو « الكاب فير » لتزودها بالفحم اللازم لها[1] .

---

(١) « الكاب فير » فى المحيط الأطلنطى غرب السنغال وهو تحت انتداب البرتغال .

« كان الفحم فى كل مكان ، على رصيف الميناء وعلى الساحل ، حتى أن بعض الزنوج كان يغطس فى الماء ليخرج منه قطع الفحم التى تكون قد سقطت من البواخر عند تعبئتها » .

واشمأز « جربو » من هذه الأكوام الحالكة فى سوادها وقد أحاطت به من كل جانب ، حتى أنه تسلى فى وضع كتاب عن رحلاته ، ويقول فى هذا الصدد : « أقمت فى هذه المدينة لأدون مذكراتى فى كتاب ، ولكن الهمة كانت تنقصنى كما كانت العزيمة تعوزنى . ولقد اخشوشنت راحتاى من كثرة الملاحة ، حتى أنى عندما أمسكت القلم ، كتبت خطأ رديئاً . وكنت متضجراً لذلك ، كما أسفت على الحرية التى تعودتها فى البحار . ولا أنكر أنى كنت ألعب . من وقت لآخر ، التنس فى ملعب « شركة الكابل الانجليزية » ولكن لم تدخل هذه التسليات سروراً إلى نفسى . »

كان خليقاً « بجربو » أن يتسلل إلى نفسه السأم لطول تفكيره فى العودة . . . فكان يلعب وفكره متجه إلى غير اللعب ، مما جعله لا يشعر بطعم هذه التسلية ، اللهم إلا ما استفادته عضلاته من مرونة من كثرة الحركة .

وفى أواخر أكتوبر ، رست الباخرة المدرسة « ادجار كينيه » (Edgard Quinet) التابعة للبحرية الفرنسية ، فى ميناء

« بورتو جراندى » (Porto Grande) وأرسل قومندانها إلى « جربو » دعوة يرجوه فيها تشريفه بالحضور ، وإلقاء محاضرة على التلاميذ البحريين عن سياحته الجبارة . فقبل هذه الدعوة رغم كرهه للخطابة فى الجموع ، لا سيما إذا كان الغرض منها التكلم عن مغامراته . ومع كل ، فما ابتدأ فى سرد حوادثه ، حتى ساد السكون بين المستمعين ، بين بحارة المستقبل . ويقول جربو : « وسررت كثيراً من شدة حرصهم على الإصغاء لحديثى . وما كان منهم ، بعد انتهاء محاضرتى ، إلا أن قاموا وأحضروا ملابس دافئة ، هدية منهم إلىّ ، واعترافاً منهم بجميلى . ولما كنت أكره بطبيعتى المساعدة ، فقد رفضت بلطف معاونتهم ، وقبلت هداياهم بكل سرور ، ليقينى بأنها جاءت من قلوب سليمة ونيات طاهرة .

وأدبرت سنة ١٩٢٧ بشتائها . وأقبل الربيع بفتنته . وكان « الفايركرست » قد تم ترميمه وتصليحه وطلاؤه ، حتى أصبح يلمع تحت أشعة الشمس ، لمعان قطعة النقود الجديدة .

وفكر « جربو » فى العودة إلى فرنسا . وانتابته نوبة سام وملل ، لأنه رأى فى استقراره فى وطنه ، إيذاناً بانتهاء جولاته البحرية الفريدة .

وفى يوم ٦ مايو ، ركب « جربو » السفينة ورفع أشرعتها على مشهد من الوفود المحتشدة لتوديعه ، فانطلقت به من « الكاب فير » إلى عرض البحر حيث داعبها النسيم العليل برفق . ومرت بها الأيام وهى تتهادى على صفحة اليم بين الجزر المتناثرة فى طريقها .. وتردد « جربو » فى العودة .

العودة ! . . كم من معان تضمنتها هذه الكلمة « لجربو » ! رأى فيها الذلة التى تفرضها عليه المدنية الخلابة بريقها الزائف ، رأى تفكير أهلها المحدود . فكيف يرضى بالأوبة وما ينتظره منها ، وهو الرجل الذى تعود القول الصريح والحرية المطلقة .

إن أبهة الشهرة كانت فى انتظاره أيضاً ، ولكنها كانت آخر شىء يفكر فيه ، حيث كان يرى فيها عوامل أخرى يتضايق منها . . فلابد له من مقابلة وفود المهنئين . والمثول بين يدى من سيضع على صدره شارة الفخار . ولا مناص له من سرد مغامراته للصحفيين الذين سيرمونه بوابل من الأسئلة ، كما أن هناك وفد الفضوليين وأسئلتهم التى تبتدىء « بماذا » و « كيف » ثم يأتى دور تدوين امضائه لآلاف ممن تعودوا الاحتفاظ بإمضاءات مشاهير الرجال . وهيهات أن يفلت من أقواس الشفاه المصبوغة ، وما وراءها من أحلام بائدة ! لا شك أن محبى الذكريات من الجنسين سيزعجونه .

فمن طالب قطعة من قميصه ، إلى مستبشر بنيل زر سترته ، إلى متفائل بأخذ قطعة من حبل سفينته ، إلى غيرهم . . . ثم لابد له أن يستسلم ، للظهور فى الحفلات ، لرباط الرقبة ، ولأسر البدلة والحذاء ، بينما لم يخلق هذا البحار الفذ ، ليسجن جسده فى البيوت والدور ، وتشل حركة أعضائه بالملابس الرسمية .

وطأطأ «جربو» رأسه ، بعد أن خامرته هذه العوامل وهو واقف يبوس الدفة . . . . نعم مهما حاول أن يستتر عن الناس ، فلن يفلح ، كما لن يفهمه الناس على حقيقته . لقد علم «جربو» أنه لن يتذوق — بعد دخوله أرض الوطن — لذة الهدوء التى لا يقدر قيمتها ، إلا ذلك الذى عرفها فى وحدته بين أديم السماء وصفحة الماء . واتصل حبل أفكاره بعظمة ذلك السائل الخضم ، وشرد فكره بين الأحلام والأمانى . وعقد النية على بناء سفينة جديدة [1] أصغر من

---

(١) عندما وصل إلى فرنسا ، صنع سفينة أخرى أصغر من «الفايركرست» وأطلق عليها اسم «الآن جربو» . وفى سنة ١٩٣١ ركب البحر بمفرده كعادته وساح مدة طويلة فى المحيط الهادى . وأقام بعض الوقت فى جزيرة «بورا بورا» ، وفى سنة ١٩٣٩ وصل إلى «تاهيتى» ، واندلعت نيران الحرب العالمية أثناءها ، فانطلق قافلا إلى فرنسا لينتظم فى سلك الجندية . وعندما وصل إلى «غينيا الجديدة» سمع أن فرنسا عقدت الهدنة مع ألمانيا . ثم قامت عاصفة شديدة جعلته يجنح إلى «ديلى DILI» «بجزيرة تيمور TIMOR =

« الماير كرست » لكنها أسرع منه وأسلس فى القيادة ، ليتخذها فى رحلاته المقبلة بدل سفينته التى عركتها الأيام ونالت منها الأعاصير حتى أصبحت تستحق الراحة من عناء التجوال .

وألقى بنظره وهو واقف على الدفة على سفينته وهى تشق الماء شقا قويا فى طريقها إلى العودة . . ووسوس إليه شيطان البحر بأن يعدل عن هذا الطريق ، ويقصد غيره ، فلا تزال معه مؤنة تكفيه ثلاثة أشهر مقبلة . وكاد يغلبه الشيطان ، وفكر هنيهة فى الاتجاه نحو جزر « بورا بورا » ليقضى بقية حياته بين أناس يعيشون فى بساطة الفكرة ، يرتدون القش ويزينون رؤسهم بتيجان من الزهور ! لكن الرياح كانت تدفع أشرعة السفينة ، فخيل إليه أنها مسوقة بيد القدر ، نحو فرنسا .

وشاهد « جربو » وهو على الدفة ، النجم القطبى وهو يرتفع فى أبراجه . ثم دخل بسفينته فى الطريق البحرى الذى اعتادت البواخر المرور فيه . وكان ركابها يهتفون له ، فيرد عليهم شاكراً لهم هذا الحماس .

وفى يوم ١٦ يوليو ، اقتربت منه الباخرة « ميشيجان »

= حتى وافاه القضاء المحتوم فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٠ ، فى نفس الوقت الذى قام اليابانيون فيه بضرب جزيرة تيمور بقنابلهم .

Michigan ودار الحديث بينه وبين رجالها . فانتهز هـــذه الفرصة وطلب منهم أن يرسلوا برقيات لاسلكية إلى أصدقائه فى فرنسا .

وقدموا له مؤنة فرفضها بلباقته المعهودة ، مكتفيا بقبول بضع جرائد . ويفسر لنا جربو سر هـذه الصحف قائلا : « وتصفحت الجرائد على أمل وجود ذكر لمباراة التنس التى لعب فيها « بوروترا » Borotra و« دى لاكريست » De La (١) Crest وهى المباراة الختامية لبطولة فرنسا فى هذه اللعبة .

ولا أكون مبالغة إذا جزمت بأن الوقت الذى قضاه « جربو » فى تصفح هذه الجرائد بلهفة ، كان فيه آخر نفحة من نفحات السرور التى مست قلبه فى طريق العودة .

وفى يوم ٢٠ يوليو ، دخل بحر المانش شاقا طريقه وسطا بين شاطئ فرنسا وانجلترا . واضطر أن يقف فى البحر يومين كاملين ، من جراء الضباب الشديد الذى حال دون تقدمه .

وفى صباح ٢٥ يونيو ، انقشع هذا الضباب ، فتابع « جربو » سيره وراء الطراد الحربى « ملهوس » Mulhouse وعرف نفسه إلى أحد ضباطه ، راجيا منه التفضل بإرسال برقية لاسلكية إلى صديقه « بير دى باسكيه » Pierre du

---

(١) هما صديقان حميمان « لجربو » .

Pasquier فى « الهـــافر » Havre يعلمه فيها قدومه إلى فرنسا سالماً .

وما زال يتهادى بسفينته حتى وصل إلى فنار وسيمافور « بارفلور » Barfleur فأرسل الإشارة الخاصة « بالفايركرست » ، إلا أن الرياح هبت على حين غرة ، فهاجت منها الأمواج وتدفقت تلطم جوانب السفينة بعنف ، مما أجهد كثيرا « جربو » الذى لم يذق طعم النوم ثلاث ليال سوياً .

وفى يوم ٢٦ يوليو ، هب إلى استقباله ، حوالى الساعة الحادية عشر صباحا ، الرفاص « لادروا » L' Adroit والباخرة « بيلوت » Pilote ، وقد أرسلتهما الأميرالية البحرية الفرنسية لمقابلته على أثر تسلمها برقية الطراد « ملهوس » . فقابلا الفايركرست وجذباه رويدا رويدا إلى ميناء « الهافر » .

كانت أرض الوطن مترامية أمامه . فقبض « جربو » أشرعته اليه . وسارعت إلى لقائه المراكب الخفيفة وقد اكتظت بالناس . أما على رصيف ميناء « الهافر » ، فقد تكدست الجماهير بشكل يصعب على القلم وصفه .

وجاءت اليه نبرات الأصوات وهى تهتف عالياً « يحيا جربو » ، فاهتزت لها نياط قلبه طرباً ، واقترب من وطنه ، من بلده ، من شعبه الذى بلغ به الحماس حداً كبيراً ....

ورسا الفايركرست . .

رسا « الفايركرست » بعد أن قضى فى البحار يجوبها سبعمائة يوم ، قطع خلالها أكثر من أربعين ألفاً من الأميال ، كانت الأعاصير تصارعه خلالها تارة ، وطوراً يصارعها .

ونزل « جربوع » من السفينة إلى الرصيف بلباسه الأبيض وسترته الزرقاء ، ثم ضم كعبيه إلى بعضهما ، ورفع يده بالتحية لممثلى البحرية الفرنسية الذين جاءوا لاستقباله . .

وهكذا خلد « جربوع » اسمه ، برروحه القوية ، فى تاريخ البحرية العالمية .

openkanal.com

الطراد المدمن

مقدمة

كانت ألمانيا تمتلك فى سنة ١٩١٤ ، عدا مستعمراتها الأفريقية الهامة ، بعض الجزر المتناثرة بين أرخبيلات المحيط الهادى وأسطولا بحرياً فى «تسنج تاو» Tsing-Tao على الساحل الصينى من الشرق الأقصى .

ولقد أنشأت المانيا بفضل جهودها الجبارة ، فى مدى ربع قرن ، أسطولا عظيما ، قسمته إلى عدة وحدات بحرية هى : وحدة الشمال أو بحر البلطيق ، ووحدة الاطلنطى ، ووحدة الشرق الأقصى .

وإذا كان تجوال البوارج الألمانية الحربية فى الشرق الأقصى أو فى غيره من المناطق يعد شيئاً طبيعياً ، فلم يكن القصد من إرسال وحدات ثقيلة وخفيفة من الطرادات والمدمرات فى أوائل ربيع سنة ١٩١٤ إليها ، التمرين أو التنزه أو حماية تلك الجزر النائية فى الجزء الثانى من الكرة الأرضية وإنما كان القصد منها شيئاً غير ذلك . . . . شيئاً سرياً !

ولا بد أن يكون الألمان قد درسوا هذا القصد دراسة عميقة طويلة قبل هذا التاريخ وعلى قدر إخفائهم لسرية هذا القصد ، بما كانت تقصه المانيا من نسج التمويه ، أو إذا

أرادت ، بانكارها استعدادها لحرب سنة ١٩١٤ كما تدعى ، فما بال تلك المعدات العظيمة وتسابقها فى التسلح لاسيما بكثرة الغواصات التى بثتها فى المحيط الهادى وفى كل بحر من بحار المعمورة ؟

وعلى كل ، فإن طرادات ومدمرات وحدة الشرق الأقصى الموضوعة تحت امرة الكونت «فون شبي» منذ سنة ١٩١٤ ، كانت تجوب البحار شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، ونخص بالذكر منها :

«شارنهورست» ، «نياسناو» ، «دريسدن» ، «ليبزيخ» ، «كارلشروهى» ، «كونجز برج» ، و«الامدن» (١) .

كانت جميع هذه الوحدات تامة التسليح . وعندما اغتيل ارشيدوق النمسا فى شهر يونيو ١٩١٤ ، واندلعت نيران الحرب فى أوربا ، تجمعت هذه الوحدات فى لمح البصر . وانتشرت بطريقة جهنمية وراحت ترعب الحلفاء الذين كانوا يطلقون عليها اسم « الأسطول التائه » أو « الباخرة الغامضة » . وكانت وحدات هذا الأسطول جبارة فى هجومها . ألم يغرق « فون شبي » فى « كورونيل » الأسطول الإنجليزى الذى كان تحت إمرة « كريستوفر كرادوك » Christopher Cradock

---

Sharnhorst—Gneisnau—Nuremberg—Dresden—Leipzig—Karshruhe—Konigsberg—Emden

كما راح الأسطول الحليف يرد الكيل بالكيل ، فاغرق « شتوردى » Sturdee فى « فلكلاند » Folkland وكذلك الأسطول الألمانى فى الشرق الأقصى بما فيه « فون شبى » نفسه .

وإن كنت لا أستطيع سرد مغامرات هذا الأسطول ، إلا أنى أرى من واجبى أن أنوه هنا بأشهر طراد ألمانى نشر الرعب حينا فى البحار ، أعنى « الأمدن » أحد وحدات أسطول « فون شبى » .

استقل « الأمدن » فى غدواته وروحاته عن بقية الأسطول فنال إعجاب أعدائه جميعاً من جراء ما قام به من أعمال لا يكاد العقل يتصورها ، تذكرنا بقصص « سركوف » و « سوفرن » و « رويتر » ، و « بربروس » و « الحاج على » و « نلسون » . ومع كل فقد فاقت مغامراته كل ما جاء عن هؤلاء من غرائب الأعمال .

لذلك ، لا يسعنا إلا صرف النظر عن جنسية ركب الأمدن أولئك البحارة الأمجاد وعلى رأسهم قائدهم الفذ ، ونحنى إعجاباً بشجاعتهم واحتراماً لنفوسهم الكبيرة التى وهبوها لمجد الوطن .

الطراد امدن

هل شهر يونيو من سنة ١٩١٤ . . .

وكان « الأمدن » Emden ، ذلك الطراد الحربى الذى أخرجته المصانع الألمانية سنة ١٩١١ ، احدى وحدات اسطول «الشرق الأقصى» الألمانى التابع للأميرال الكونت « فون شبى » Von Spee ، يحمل فوق ظهره بطارية قوية ، وقاذفة طوربيد ، ومدافع بعيدة المدى ، وأبراج ضخمة ، وكان هيكله الضخم ، يوحى إلى القوة والعظمة . قبع هذا الطراد المخيف فى مياه « تسنج تاو » Tsing-Tao الهادئة ، احدى المستعمرات الصينية التابعة للأمبراطورية الألمانية .

اتخذ « الأمدن » أهبته لمغادرة هذه المياه الصينية ، متجها نحو « شانجهاى » Shanghai ليجنح بعدها إلى « يانج تسى كيانج[1] » Yang-Tsé-Kiang ، ليستريح فيها بضعة أسابيع قبل رحلته الطويلة .

لذلك لم يمانع قائده فى ترك بحارته يتمتعون بأنواع التسلية واللهو .

كان السواد الأكبر من البحارة ينتمون إلى العائلات

---

(١) أحد الأنهر الثلاثة الصالحة للملاحة فى الصين .

الكبيرة والأسر النبيلة ، ونخص بالذكر من بينهم ، الملازم في المدفعية ، الأمير « دى هوهنزولرن سيجمارنجن [١] » .

De Hohenzolern-Sigmaringen

وكانت ميوله لا تتعدى ميول زملائه فى حب اللهو والمرح . وكانت مستعمرة « تسنج تاو » تساعدهم على تحقيق ميولهم هذه بما حوته من فنون التسلية : فمن رياض غناء ، إلى حدائق فيحاء ، ومن أندية للتنس ، إلى سباق الزوارق ، ومن حانات للمشروبات الروحية ، إلى مغازلات ربات الحسن والجمال . ويقول الأمير فى ذلك : وكثيراً ماكنا نشترك لإقامة حفلات ساهرة جمعت أنواع الملاذ ، فوق ظهر الطراد ، وكان فصل الصيف يكسوها رونقا خاصا وصبغة فريدة » .

ولم يك فى حسبان أولئك البحارة ، أن الحرب ستقوم فى ذلك اليوم المشؤوم ، يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩١٤ ، عندما

---

(١) هو فرانسوا جوزيف دى هوهنزولرن سيجمارنجن ابن عم الملك فرديناند ملك رومانيا . وتربطه صلة قرابة بالامبراطور غليوم الثانى . وكان يدين بمذهب الكاثوليكية كبقية أفراد أسرة هوهنزولرن . ولقد ترك مؤلفاً مؤثراً عن المواقع التى خاضها هذا الطراد وعن نهايته المحزنة . ولقد ظل هذا الأمير أسيرا مع من نجوا من كارثة الطراد « امدن » فى جزيرة « مالطة » خمس سنين ، من سنة ١٩١٤ — ١٩١٩ . ثم عاد إلى ألمانيا فى أوائل سنة ١٩١٩ بفضل تدخل البابا فى أمر الافراج عنه .

وافتهم الأنباء فى « تسنج تاو » ، عن مقتل الأرشيدوق « فرنسوا فرديناند » François - Ferdinand وريث عرش الأمبرطورية النمساوية المجرية وزوجته فى « ساراجيفو » Sarajevo . وقد كان لمقتلهما وقعاً سيئاً فى ميدان السياسة العالمية ، حيث أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى من جراء هذا القتل الشنيع . ويقول الملازم « دى هوهنزولرن » « ولن يدر بخلد أحدنا أن دم الأرشيدوق وعقيلته ، سيجر الدمار بين دول أوربا جميعا (١) ولكن القيصر فكر فى ذلك وانطلقت ألمانيا متحفزة للأخذ بثأر هذه الدماء المسفوكة .. وكانت الحرب العالمية الضروس ..

تغير كل شىء فى يوم وليلة . وقام قائد الطراد ينادى بحارته . وانتهت الحفلات ، وانتهت السهرات ، وانتهى احتساء الخمر ، وانتهت مداعبـــة بنات حواء . إنها لساعة رهيبة ... لقد صدرت الأوامر السرية إلى « فون مولر » Von Muller قائد الطراد « امدن » ، لذلك قام يحشر رجاله ليلقى عليهم أوامره بدوره . واستعد الطراد لخوض الحرب .

ثم أصدر « فون مولر » أوامره إلى جميع البواخر

---

(١) الأمدن ، تأليف دى هوهنزولرن ص ٩ .

التجارية الألمانية المنبثة فى عرض نهر «تسنج تاو» بالاجتماع فى الميناء .

واستولى الطراد «امدن» على ١٠,٠٠٠ طن من الفحم المتكدس بكميات هائلة فى مخازن «تسنج تاو» لتوزيعها على مختلف البواخر التى جاءت إلى ميناء «تسنج تاو» تلبية للاشارة المرسلة إليها، لتنقلب، بعد تعديلات فنية، إلى بواخر حربية، من شأنها مساعدة أسطول «فون شبى» الراسى فى مكان ما . وهذا المكان المجهول، كان معروفا فقط من «فون مولر» الذى هب للذهاب إليه مسرعاً .

وأمر «مولر» بالاستغناء عن كل ما هو قابل للحريق، من جميع البواخر، حتى لا تصبح قوتا للنار إذا ما شبت فى إحداها . وهكذا تركت فى الميناء الأبسطة الفاخرة، والستائر النفيسة، والأثاثات الخشبية النادرة .

ويقول هوهنزولرن فى ذلك : وإذا فكر المرء فى مايجده عادة فوق ظهر طراد من شأنه جوب آفاق البحار، لعلم المصاعب التى تنجم عن مثل هذا الأمر! .. ولقد استبدلت الرياش بالحديد والصلب، حتى أصبحت غرف البحارة بعد نزع ماكان فيها من هذه التحف الخشبية والمنسوجات الثمينة أشبه بزنزانة السجن .

انطلق «فون مولر» فى يوم ٣١ يوليو، من «تسنج تاو»

حتى لا يتعرض لحصار قوات العدو التى قامت تتجسس بالقرب منه . ويقول الملازم « دى هوهنزولرن » : « وفى نفس هذه اللحظة ، قامت قوات العدو متجهة فى طريقنا ،[١] فلو أننا تأخرنا بعض الوقت لاستهدفنا لما يزعجنا . »

وفعلا كان الأسطول الانجليزى يشق طريقه شطر « هونج كونج » Hong-Kong ، كما اندفع الطرادان المصفحان الفرنسيان « مونكالم » Montcalm و « دوبلكس » Dupleix تصحبهما بعض الطرادات المضادة للطوربيد ، لتجوس خلال البحار بين « فلاديفوستوك » Vladivostock واليابان وبديهى أن يتحاشى « فون مولر » مواجهة هذه الوحدات حيث يعلم أن هناك واجباً وطنياً يناديه قبل بدء المعارك . لذلك أسرع فى اتجاهه بعتاده ونسافاته نحو الجنوب . وظل دائم الاتصال باللاسلكى « بتسنج تاو » ليقف على الحالة السياسية الدولية .

وفى يوم ٣ أغسطس جاءه البرق يحمل اليه خبر اندلاع الحرب بين ألمانيا وروسيا . مع إظهاره العداوة لفرنسا .

اتجه « فون مولر » فوراً نحو الشمال مخترقا الطريق التجارى الذى اعتاد أن يؤمه الأسطول التجارى الروسى ، بين

---

(١) كتاب الأمدن ص ٢٠ .

« ناجازاكى » Nagasaki وفلاديفوستوك » ، للاستيلاء على البضائع الروسية .

وجاء اليه البرق مرة أخرى يبشره بأن الطرادين الفرنسيين « مونكالم » و « دوبلكس » قد حولا طريقهما ، فتربص « فون مولر » أمام مضيق « تسوشيما » Tsou-Shima ، ولم يلبث إلا قليلا حتى ظهرت له الباخرة الروسية « ريازان » Riasan التي أسرعت هاربة إلى المياه اليابانية[1] . عندما بصرت بالطراد الألماني ، ولا يخفى على القارىء أن اليابان كانت فى ذلك الوقت على الحياد ، أما « فون مولر » فانه أسرع فى أثرها حتى أدركها ، وأرسل اليها إشارة التسليم الاجبارى . . . وأوقفت الباخرة محركاتها ، واقترب منها « الامدن » فى خيلائه وأمر بحارتها بالنزول إلى الطراد ، فانصاعوا لهذا الأمر بكل أدب ونظام . . . وأخذوا أسرى ! وهنا ، القى « فون مولر » بنظرة خبيرة إلى الباخرة الأسيرة ، فرأى صلاحيتها لتكون طرادا مساعداً ، لصلابة هيكلها وسرعة سيرها . فأرسل أحد ضباطه ليقود « الريازان » على أثر « الأمدن » وهو متجه شطر « تسنج تاو »

ويقول « دى هوهنزولرن » فى ذلك : واتصلنا بالبرق

---

(١) لم تكن اليابان قد دخلت الحرب مع ألمانيا بعد .

« بتسنج تاو » نسأل عن ظهور العدو فى هذه البقعة ، فجاءنا الرد بالنفى » .

وهكذا دخل « الامدن » بفريسته الأولى إلى « تسنج تاو » بكل هدوء فى يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ .

واضطر « الامدن » وهو فى مرساه ، أن يتزود بـ ٩٥٠ طنا من الفحم ، استعداداً للمستقبل الغامض . وقام المأجورون من الصينيين بشحن هذه الكمية الوفيرة من الوقود دون توقف . وطلب « فون مولر » الإستعانة ببعض بحارة من سفن « اللويد الألمانية » Lloyd و « همبورج أمريكا » Hamhourg America line بعد أن أخفى جنسية هذه البواخر حتى ليخيل للناظر اليها أنها سفن تابعة لشركة « بلو فونل لاينر » Blue Funnel liner أو « بنسل انداورينت » P. &O. [1]

ولما كان الألمان أبرع شعوب الأرض قاطبة فى هذا النوع من التمويه والخداع فى الحروب ، فقـــد أدهشوا أعداءهم كثيرا طيلة الحرب بمثل هذه المفاجآت .

ولم يقف نشاط الألمان عند هذا الحد . بل سارعوا إلى بث الألغام فى مياه « تسنج تاو » وتكدست السفن الألمانية على اختلاف أنواعها وأحجامها فى الميناء ، استعدادا لخوض المعارك البحرية عند أول إشارة .

---

(١) هى شركة Peninsul & Orient الانجليزية .

وربما يتساءل الإنسان : إلى أين تذهب هذه المدمرات ؟ والجواب أنها ذاهبة للحاق بأسطول الأميرال « فون شي » الرابض فى خليج جزر « ماريان » Marianne[١]

ولكن لنعد إلى « الامدن » أنه تجهز بأجهزة الحرب وعدتها . وكان نشاط البحارة فيه ملموساً محسوساً . وجاء راهب « كاثوليكى » ليبارك الضباط ورجال الطراد ويقوى من عزيمتهم ، كما حضر قسيس « بروتستنتى » للبحارة الذين يدينون بهذا المذهب . كان أولئك الأبطال فى غير حاجة إلى تقوية عزائمهم وإنما هى العادة فى مثل هذه الظروف التى تقضى بمجىء رجل الدين قبل الدخول فى ساحة الوغى . وكم من بطل من أولئك سيحرم من حنان أم عجوز ، أو حدب والد كهل ، أو حب عروس لم تهنأ بزفافها ! إنها الحرب . .

وتحركت آلات « الامدن » وعلا صوتها الرهيب ، وتبعته السفينة « برنس ايتل فريدريك Prince Eitel Fredrick » عن كثب ، وقد تزودت بسلاح الطرادات لتكون له عوناً فى مناوراته .

لم يتقابل الركب الألمانى إلا بالبواخر اليابانية ، فكانوا يتبادلون التحية العسكرية . . . ثم أمسى البحر ، بعد مرور هذه السفن اليابانية ، خالياً الأديم ، ظاهر الافق . واعتدل

---

(١) فى المحيط الهادى

الجو ، فانتهز « الامدن » صحو الطبيعة ليمرن بحارة السفينة « برنس ايتل » على الرماية صوب هدف عائم أعد لذلك خصيصاً .

وكلما اقترب « فون مولر » بضعة أميال من جزر « ماريان » أرسل برقية إلى « فون شبي » يستفسر منه عن الحالة . فكان يصله هذا الرد الموجز : « لا تراسلني بالاشارات اللاسلكية . ففهم « فون مولر » القصد من هذه الجملة التي قلت فدلت ، وأسرع فى سيره .

وفى يوم ١٢ أغسطس ، شاهد قمم جبال جزر «ماريان» الخالية تقريبا من السكان . ورأى السفينة « تيتانيا» Titania رسول الاسطول الالمانى فيها — رابضة فى عرض خليج « باجان» Pagan وعرفت « تيتانيا » المدمرة « امدن» فسارعت إلى استقبالها بعد أن أعطتها إشارة خاصة . ثم قامت تسحبها إلى أن أوصلتها إلى بقية قطع الأسطول الالمانى التى اتخذت من خليج « باجان » « ماوى لها » ويقول « هوهنزولرن » فى ذلك « وكانت جميع هذه القطع منهمكة فى الاستزادة من مقادير الفحم . وعندما رسا « الامدن » صدرت الاوامر إلى قائده بالحضور إلى السفينة « شارنهورست » Sharnhorst سفينة الاميرال « فون شبي » . فلبى «فون» مولر نداء رئيسه ووجد قواد وحدات الاسطول مجتمعين فى مجلس استشارى حربى»

ظل هذا المجلس منعقداً بضعة أيام ، اتفق خلالها على الخطط التي يجب اتخاذها حيال العدو . وكان «فون شي» رغم هدوئه المعتاد ، على شيء من توتر الاعصاب لدوام فكره في الاسطولين الإنجليزي والفرنسي . أنها لمهمة ثقيلة تلك التي ألقيت على عاتقه لمواجهة الأعداء المتحالفين ضد بلده وضد وطنه كما كان يخشى «فون شي» أن يتحالف الاسطول الياباني مع العدو ، وكان أسطول اليابان قويا في ذلك الوقت . . . كانت هذه الافكار تجول بخلد الاميرال الالماني أثناء الاجتماع حتى أنه أعد خطته على أساس دخول الحرب بنسبة واحد ضد عشرة !

وكان الرأي السائد في هذه الجلسات ، القيام فورا بحرب خاطفة لارباك وحدات العدو وادخال الرعب في قلبه وارسال طرادين في المحيط الهندي ، لاصطياد السفن التجارية وقطع الطريق البحري التجاري فيه ، توطئة لشل حركة العدو الاقتصادية .

وفكر « فون شي » طويلا في هذا ، ثم صمم على أن يغادر الاسطول جميعه في ١٨ أغسطس جزر «ماريان» . . ولكن إلى أين ؟ ظل ذلك سر القائد الأعلى « فون شي . »

اتجه الاميرال الالماني الفذ في مقدمة أسطوله ، مخترقا

طريقه قبل المشرق. ويحدثنا الملازم البحرى «هو هنزولرن»[1] عما دار بينه وبين زملائه ، بحارة الامدن ، عندما رأوا الركب ينحرف إلى الجهة الشرقية : « ظننا أن الاسطول متجه نحو السواحل الغربية الامريكية . وكنا على حق حيث كنا نعلم أن العدو يتبادل تجارته بين أمريكا الشمالية واستراليا بكل نشاط . كما فكرنا لحظة فى الذهاب إلى « الكاب هورن » Cap-Horn ، كما عللنا النفس بالأمل ، أمل العودة إلى الوطن العزيز بعد الكفاح المرير !

كان جميع الضباط من البحارة — ماعدا «فون مولر» — يجهلون المصير الذى كان ينتظرهم ، لذلك كم كانت دهشتهم كبيرة عندما وافتهم برقية سرية من السفينة «شارنهورست» فى يوم ١٩ أغسطس نصها : « للطراد امدن حرية التصرف والاتجاه . حظا سعيدا . »

وهكذا أراد «فون شبى» أن يكون هذا الطراد حراً طليقا فى مهاجمة سفن الأعداء ، وشن الاغارات عليها ، إنّى شاء ، منفرداً عن بقية الاسطول .

وسارع «فون مولر» بالرد على هذه البرقية قائلا : « شكرا على ثقتكم بى . رحلة موفقة وحظا سعيداً للاسطول » .

كان لوقع أمر «فون شبى» أثراً بليغاً فى نفوس بحارة

---

(١) كتاب الأمدن ص ٣٢ .

« الامدن » حتى إنهم لم يتمالكوا أنفسهم من شدة الفرح ، فراحوا يرقصون فوق ظهر طرادهم : ويقول هوهنزولرن « لقد تركنا أحراراً فى تصرفاتنا وهى بغية كل بحار[1] وأعطيت الأوامر للباخرة « ماركومانيا » Markomania باتباع « الامدن » ، لتموينه عند الحاجة . »

وما هى إلا ساعات حتى غاب فى الأفق أسطول « فون شبى » وأصبح « فون مولر » سيد نفسه ، فقام يبحث عن سفن الاعداء بقلب ملؤه الشجاعة والاقدام والولاء لوطنه حتى أنه نال اعجاب واحترام أعدائه جميعاً ؟ وكان جديراً بهذا الإعجاب ، لأنه — بلا ريب — يعد فى تاريخ البحرية الحديثة والمعاصرة : من أكبر البحارة نبلا فى الأخلاق ، واقداما فى النزال .

---

(١) هزم الأميرال « ستردى » Sturdee ، أسطول « فون شبى » وإباده فى أواخر عام ١٩١٤ فى موقعة « فولكلاند » Folkland المشهورة على أن « فون شبى » اباد قبل ذلك أسطولا انجليزياً فى « كرونيل » Coronel

وصاح « هوهنزولرن » فرحا : « لقد أصبحنا فى حل من الاسطول ، نتبوأ من البحر حيث نشاء » . ولما كانت بعض زجاجات الشمبانيا المعتقة لا تزال باقية ، فقد شربها البحارة رغم الاخطار التى كانت تحدق بهم — نخبا لمناسبة تحول طرادهم إلى « قرصان » البحار .

وفى يوم ١٩ أغسطس ، عرج « الامدن » تتبعه الباخرة التى تحمل له الزاد والمؤنة على خليج « انجور » Angour ليستزيد من كميات الفحم . وجاء البرق من محطة « شنجتاد » يخبره بوجود الباخرة الضخمة « الاميرة أليس » (Princesse Alice) التابعة لشركة « فوردنتشر لويد » Hordentcher Lloyd فى المياه الصينية وكانت قافلة من جزر الفيليبين Philippines (١) .

وفعلا قابلها « الأمدن » فى يوم ٢١ أغسطس بجوار جزيرة « انجور » واتجه « الأمدن » نحوها وأوقفها وأخذ منها كل ما كان فى حاجة اليه من أغذية وتموين ، كما طلب الاستعانة ببعض رجالها . وأخبره ربانها بأن الجيوش الألمانية

---

(١) هو أرخبيل تابع لجزر الملايو فى بحر الصين . وقد تنازلت عنه أسبانيا للولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ بعد الحرب الأسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٦ . وهو الآن يتمتع بالحكم الذاتى .

قد احتلت مدينتى «نامور» Namur «وبروكسل» Bruxelles ثم اتجه «الأمدن» بعد أن وقف على هذه المعلومات نحو الغرب، دائراً حول جزيرة «تيمور» Timor حيث تقابل مع الطراد الألمانى العتيق «جاير» Geier الذى أغرقه الانجليز فيما بعد.

وأخبره ربان «الجاير» بأن اليابان قد أعلنت الحرب على ألمانيا. مما جعل فقدان «شنتج تاو» أمراً لا مناص منه. كما أخبره بأنه فى طريقه إلى الغرب، باخرتان انجليزيتان هما: «همبشاير» و«يرموث» Hampshire, Yarmouth تقومان بدوريات فى البحر. فرأى «فون مولر» من الحكمة، أن يتجنبهما إلى حين.

وفى يوم ٢٦ أغسطس، وصل «الأمدن» أمام جزيرة «تانا جامبيا» Tana-Djambea من الممتلكات الهولندية. واتجه نحوه الطراد الهولندى «ترومب» Tromp، وعرف «فون مولر» كيف يحترم البلاد المحايدة، فأرسل التحية العسكرية إلى السفينة الهولندية كما قام بزيارة قومندانها. وجلس يحاذبه أطراف الحديث، بين زجاجة من البيرة وعلبة من السجائر. وتفاهم البحاران الكبيران بلحن الحديث. وهكذا وقف «فون مولر» على أحدث الأنباء، رغم قلة فصاحة زميله الهولندى. وعلى كل فان هولندا كانت، رغم

حيادها شديدة الميل إلى جانب ألمانيا . وبعد أن نال « فون مولر » مراده ، ذهب إلى طراده واحتذى «الترومب» مجاملة منه ، حتى خرج من المياه المحايدة .

وحياه القومندان الهولندى قائلا : سفراً سعيداً .

فرد عليه « فون مولر » : شكراً لك .

ثم اتجه نحو الشمال . وعندما اختفى عن السفينة الهولندية حول سيره نحو الجنوب قاصداً مضيق « سومبك » Sombock ليتخذ منه مأوى ومخبأ .

وقام فون مولر إلى باب غرفته فأوصده عليه وعلى مساعده « فون موك » Von Mucke وصفى « فون موك » إلى حديث رئيسه وهو يبسط له خططه .

وكان ضمن هذه الخطط ، الذهاب إلى المحيط الهندى حيث تكثر سفن الحلفاء التجارية ، لشل حركة سير القوافل فيه أثناء اتجاهها صوب أوربا ، ونشر الرعب فى البحار وفى كبريات موانىء الشرق الأقصى ، ومنها أيضاً الخروج سريعاً من مضيق « سومبك » إذ لا يستبعد وجود بعض البواخر الحربية الحليفة فى هذه المياه ، ولا سيما (مونكالم) الفرنسية و (همبشاير) و (يرموث) الانجليزيتين .

وضرب (فون موك) جبهته بكفه صائحاً : (يرموث) إن هذه السفينة الحربية تشابه تمام الشبه (الأمدن) فى هيكلها

ومدافعها ، فى كل شىء ماعدا المداخن ، فلها أربعة وللأمدن ثلاثة . ثم أراد أن يتحقق من قوة ذاكرته التى وعت معلومات جمة عن قطع الأسطول الأجنبية ، فراح يتصفح دليل السفن الدولى ، ووجد أن ذاكرته لم تخنه ، فإن « اليرموث » له أربع مداخن فعلا . . . . . والتفت إلى « فون مولر » وقال : — ولماذا لانزيد مدخنة على الأمدن؟ وسرعان ماصنعت المدخنة الرابعة ووضعت بجانب الثلاثة الأصلية . ثم أجريت بعض تعديلات طفيفة فى الطراد الألمانى من مقدمه إلى مؤخره ، حتى شابه تماماً « اليرموث » الإنجليزى .

يالله من بحار ضالع ، وقرصان بارع . ولكنها مهارة عرفناها عن الألمان . ويقول « هوهنزولرن » وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود مدخنة رابعة صنعت من قطعة من التيل الغليظ الذى يكسو ظهر الطراد ، طولها مترانووضعت أمام المدخنة الأولى بعد أن أسندت بقطعتين من الخشب ثم أعطيت فيما بعد ، شكلا بيضاوياً . وهكذ أصبح يخيل إلى الناظر إلى « الأمدن » أنه الطراد الانجليزى (يرموث) الذى كان فى ذلك الوقت يقوم بمناوراته فى مياه الشرق الأقصى . وإنى واثق من أن أكثر سفن الحلفاء اغترت فيه .

وأردنا أن ندخل فى يوم ٢٨ أغسطس ، المحيط الهندى

حيث عزمنا على القيام بأعمال القرصنة فيه . وهكذا أخذنا عدتنا وحذرنا لكل طارئة ، كما عملنا مافى وسعنا لنتسلل اليه دون أن نلفت أنظار العدو (١) .

ولما كان الليل يرخى سدوله سريعاً فى الشرق الأقصى ، فقد ركبنا المدخنة الرابعة وخرجنا من المضيق فى سكون متجهين أمامنا . ولم نقابل أثناء سيرنا إلا بعض سفن شراعية ، ثم درنا حول جزر (جاوه) و (سومطره) ولما كنا فى أشد الاحتياج إلى كميات كبيرة من الفحم ، فقد ولجنا خليج جزيرة سيمالور Simalur وتزودنا بخمسمائة طن من الفحم ، ملنا بعدها نحو (سباخ كولومبو Sabang Colombo ولم نجد فى هذه البقعة سفينة للعدو نهاجمها ، بينما تقابلنا مع بعض البواخر الهولندية ، ولكن هولندا كانت وقتئذ على الحياد .

وفى يوم ٧ سبتمبر اتخذ (الأمدن) طريقه فى البحر بين (كولومبو) و (رانجون) Rangoon ولم يصادف فى سيره أى سفينة للحلفاء لينقض عليها . وكان من المجهد حقاً أن يظل البحارة يحدقون النظر من خلال المنظار ليل نهار ، فكل واحد منهم يود أن يكون أول من يعلن عن وجود باخرة للعدو . . . . ولكن طال انتظارهم .

وفى يوم ٩ سبتمبر ، تنفسوا الصعداء حيث رأوا عن

---

(١) الأمدن ، تأليف هوهنزولرن ، صفحة ٤٤٩ وصفحة ٤٥٠ .

بعد دخانا يتصاعد الى السماء فاستعدوا للنزال ورفعوا علمهم الحربي ، وانطلق بهم (الأمدن) كالسهم نحو الفريسة . كان ذلك الدخان يتصاعد من الباخرة التجارية الانجليزية (اندوس) Indus وأرسل (الأمدن) أول اشارة اليها يأمرها بالتسليم : (قفوا وابطلوا الآلات) ولكن الباخرة الانجليزية التي كانت تحمل زادا وخيلا للجيوش الأوربية المتحالفة ، أبت الانصياع لهذا الأمر . فأرسل « فون مولر » إشارة ثانية بالتسليم أعقبها بقذيفة ارهابية مست جانب «الاندوس» فسارع ربانها برفع راية الأمان . وفي أسرع من البرق — وقد اشتهر الألمان بالسرعة في الأعمال الحربية — نقلت صناديق المؤونة والذخائر إلى « الماركومانيا » كما نقل بحارتها مع رئيسهم ثم نسفها « الامدن » فهوت إلى القاع . . . ثم اتبع «فون مولر» سيره في هدوء . . .

وفي صبيحة يوم ١٠ سبتمبر أبصر بحارة « الامدن » بدخان في الأفق . وكانت السفينة الانجليزية «لوفات» Lovat وحمولتها ٦٠١٢ طنا تتجه شطر « بومباى » لتنقل منها الجنود الهنود إلى جبهة القتال في أوربا . واستعمل فون مولر نفس الطريقة التي استعملها مع « الاندوس » وبعد أن نقل رجالها وعتادهم إلى « الماركومانيا » أغرق (اللوفات) بطوربيد من الامدن .

ولما كانت هذه السفينة تحمل فيما تحمل كثيرا من الصحف ،

هم البحارة الألمان بتصفحها للوقوف على آخر الأنباء ، لاسيما بعد أن انقطع اتصالهم بمحطتهم الرئيسية فى (تسانج تاو) التى حاصرها اليابانيون . . . ولكن لاح دخان جديد فى الأفق ، فألقوا بالصحف من أيديهم وقاموا يخوضون معركة ثالثة . . .

واتجه الامدن نحو فريسته الجديدة . وكانت الباخرة الانجليزية (كابنجا) Kabinga وحمولتها ٤٦٥٧ طناً ، وقد اكتظت بالبضائع فاستولى عليها الامدن ولم يشأ (فون مولر) فى هذه المرة أن يغرق (الكابنجا) ويفسر لنا (هوهنزولرن) ذلك قائلا : إن القومندان (فون مولر) استصوب الاحتفاظ بهذه السفينة ليرسل عليها الأسرى إلى أقرب ميناء ، فضلا عن أن (الكابنجا) كانت من السفن السريعة . ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن (كابتن) هذه الباخرة قد أسر هو وزوجته وابنه . كما كان فى عدم نسف هذه الباخرة التجارية ، الدليل المادى على نضوج العقل الألمانى فى استيعابه للحرب الخاطفة التى كان يضمرها لأعدائه (١)

ثم عين (فون مولر) اثنين من رجاله لقيادة (الكابنجا) وعليها الأسرى ، كما عين لها بعض المساعدين من البحارة .

---

(١) « الأمدن » صفحة ٦٥ .

ولم يفته إتلاف خطة اللاسلكى المزودة بها ، ثم تابع سيره وفى أثره (المركومانيا) و (الكابنجا)

وفى نفس اليوم ، وبعد مضى ثلاث ساعات لاح فى الأفق هيكل سفينة .

ويقول هوهنزولرن فى ذلك : (واتبعنا معها نفس الاجراءات التى اتبعناها مع السفن الأخرى . فلما استسلمت أرسلنا اليها ضابطين مناوهما :(فون لفتزوف) Von Levetzov و (فون زمرمان) Von Zimmerman فأخبرانا بالاشارات أنها الباخرة الانجليزية (كيلين) Killin وتحمل ٦٠٠٠ طن من الفحم الهندى .) فحم ! يا لحظنا السعيد . ولكن (فون مولر) وقد حنكته التجارب ، أبدى تحفظه قبل سروره ، فلم يشأ أن يغرق هذه السفينة إلا فى الصباح حتى لا تلفت نيرانها — وهى تشتعل ليلا — أنظار البواخر المعادية ، فتأخذ حذرها . لذلك أمر بتفريغ حمولتها ونقل رجالها وسحبها وراء (الكابنجا) و (المركومانيا) .

وفى ١٣ سبتمبر ارسل « الامدن » إشارة تحذير وتسليم إلى الباخرة الإنجليزية « دبلومات » Diplomat وحمولتها ٦٧١٥ طنا ، واستولى على شحنتها وقوامها ١٠٠٠٠ طن من الشاى ، كانت مرسلة من « كلكوتا » إلى انجلترا . ثم أغرقها بعد أن تركها آخر بحارتها .

وفى نفس اليوم ، شاءت الصدف أن يتقابل «فون مولر» مع الباخرة الإيطالية «لوريدانو»[١] Loredano فرجا قومندانها أن يوصل البحارة الأسرى إلى أقرب ميناء موال لألمانيا . فأبى ، ويقول «هو هنزولرن» : « ولم نرتح إلى سحنة هذا القومندان الإيطالى المذبذب لذلك اتخذنا حذرنا منه وحولنا الدفة نحو الجنوب حتى يظن أننا نريد ذلك الطريق بينما غيرناه فوراً إلى الشمال ، حيث رأينا من الحزم الابتعاد عن الطريق التجارى فيما بين «كولومبو» و «كلكوتا» .

واتجه الطراد الألمانى فى طريق «مدراس — كلكوتا» وفى ١٥ سبتمبر استولى على حمولة فحم أخرى . أن الحظ يلازم «الامدن» ، ويقول «هو هنزولرن» فى ذلك « ونقلنا بحارة السفينة المعادية إلى «الكابنجا» مع بقية الأسرى ثم تركناها تحملهم إلى أقرب ميناء وصاح الركب محييا الامدن ثلاث مرات بالكلمة الإنجليزية الشائعة : « هرا Hourrah ثم غابت بهم السفينة فى ظلمة الدجى[٢] .

وفى ١٦ سبتمبر ، جاء دور الباخرة الإنجليزية «كلان ماتسون» Clan Matheson وحمولتها ٤٧٧٥ طنا . واستولى «فون مولر» على ما عليها من بضاعة ومؤونة وأسر رجالها

---

(١) كانت إيطاليا فى سنة ١٩١٤ على الحياد .

(٢) «الأمدن» صفحة ٧١ .

ثم نسفها فذهبت تهوى إلى قاع اليم .

واستطاع الامدن فى مساء هذا اليوم أن يلتقط برقية مرسلة من الباخرة الإنجليزية « همبشاير » إلى السفينة الفرنسية « مونكالم » هذا نصها : « احترس من الامدن »

لا شك أن الباخرة الإيطالية « لوريدانو » هى التى وشت « بالامدن » وحذرت الطراد الإنجليزى منه ، ولكن لا ضير ، فان « فون مولر » الداهية كان قد غير طريقه كما ذكرنا وهكذا اتجه الطرادان الإنجليزى والفرنسى فى طريق مضاد للطريق الذى قام فيه الامدن بشن غاراته على السفن التجارية .

وبالرغم من الإجراء الحكيم الذى اتخذه « فون مولر » فقد رأى ، زيادة فى الحيطة أن يتجه نحو مضيق « ملقا » Malacca حيث تقابل مع الباخرة النرويجية « دوفر » Douvres وحمولتها ٤٠٠٠ طن . وكان كابتن هذه السفينة فى منتهى الرقة والأدب فلم يمانع فى أخذ أسرى الباخرة « كلان ماتسون » وتقاضى عليهم ١٠٠ دولار مكسيكى ، وهى العملة الرائجة فى الشرق الأقصى ، ويقول « هوهنزولرن » : « وتم نقل الأسرى على ما يرام وفى أسرع وقت » .

إن ملازمة الحظ « لفون مولر » فى جولاته البحرية ، حفزه إلى أن يجرب حظه فى إغارة جريئة خاطفة على احدى موانىء الشرق الأقصى ، واختمرت هذه الفكرة فى رأسه

وراح يلتقط بدهائه المعهود جميع المخابرات السرية اللاسلكية التى تتبادلها سفن الحلفاء فعرف خططهم ، ووقف على خباياهم وأحاط بنواياهم . وعلم فيما علمه من برقياتهم أن (الصبشاير) ترك ميناء « مدراس Madras » . فقام فورا إلى رجاله يبيئهم إلى خوض الأخطار ، وأخذ من تابعته « الماركومانيا » مايكفيه من زاد وفحم لرحلته . ثم تواعدمعها بعد يومين فى مكان « ما » .

وهكذا انطلق « الأمدن » بمقذوفاته التى تحمل فى بطونها النار والدمار إلى ميناء « مدراس » أكبر ميناء على ساحل « كورومندل » Coromendel ومدراس وهى ثالث مدينة فى الهند من حيث الأهمية ، فيها مقر الحاكم الانجليزى ، وعدد سكانها ٥١٧٠٠٠ نسمة . . .

مدراس

يقول « هوهنزولرن » : وكان الجو صحواً حتى خيل إلينا أننا نستظل تحت سماء المناطق الحارة .

وظل العمل مستمراً فوق الطراد استعداداً للاغارة . وبعد أن تناولنا وجبة الغذاء نادانا « فوق موك » فاجتمعنا عنده وظل يشرح لنا الخطة التى سنتبعها وجعل يملى على كل منا التعليمات التى يجب اتباعها فيما لو أصبح « فون مولر » أو

« فون موك » فى عداد الموتى . ثم أمرنا جميعاً بخلع الملابس التى علينا واستبدالها بملابس نظيفة حتى لا تتعرض جروحنا إلى جراثيم الفرغرينه التى يخشى عواقبها فى المناطق الحارة أكثر منها فى المناطق الأوروبية » .

« ثم وضعنا — عند ما جن الليل — المدخنة الرابعة ، كما زدنا الضغط على خزانات البخار لنستطيع عند الحاجة السير بالطراد بأشد سرعة .

« وفى الساعة ٨ مساء ، شاهدنا أنوار ميناء مدراس — كما لو كانت فى أيام سلم ، فدهشنا لهذه الطمأنينة التى يعيش الانجليز فى جوها . لاشك أنهم كانوا لا يتوقعون هجوماً ألمانياً على هذا الميناء المحصن . وكلما اقتربنا كلما زادت دهشتنا من هـــذه الأنوار التى تنبعث من كل موضع من الثغر ومن المدينة . وكنا حوالى التاسعة ، على مقربة من مدراس ونحن على أتم استعداد للضرب . ثم انطلق الطراد صوب هـذه الأنوار على سرعة ١٧ عقدة ، وفى التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، كنا على بعد ٣٠٠٠ متر من الأرض ، فأوقفنا ، الأمدن وآلاته (١) .

ومرت دقيقة رهيبة فى سكونها ، أمسك كل منا أنفاسه

---

(١) الأمدن لمؤلفه هوهنزولرن صفحة ٨١ و ٨٢ .

خلالها . . ثم دوى فى آذاننا هذا الأمر المقتضب : « انيروا الكشافات الأمامية ، أطلقوا النار » .

ودوت التذائف تشق سكون الليل فى صوت كصوت الرعد ، صوب أهـــدافها . . وانطلقت ألسنة النيران من خزانات البترول . ولم يرد علينا العدو ، وظلت بطاريات الميناء فى سكونها إذا استثنينا بضع قذائف تساقطت بجوارنا لاندرى من أين ألقيت .

ولنترك « هوهنزولرن » يحدثنا عن هذه الموقعة الرهيبة « أطلق الأمدن » ١٥٠ قنبلة على خزانات البترول فأحرقها ، وأتلف أرصفة الميناء كما أعطب باخرتين . ثم أسرع فى خروجه من الميناء متجهاً نحو الجنوب ، ثم نحو الشمال » .

ولم يحدث خلال الليل ما يستحق الذكر أو التنويه . وتذوق البحارة من جند وضباط قسطاً من الراحة .

ثم أردف « هوهنزولرن » قائلاً — وكانت هذه أول موقعة بحرية يشاهدها — : « إن سحب الدخان المتصاعدة من البترول والتى كنا نراها على بعد ٦٠ ميلا ، لأدل دليل على دقة أعمالنا . »

وفى صباح يوم ٢٢ سبتمبر ذهب « الأمدن » حسب

وعده لمقابلة « الماركومانيا » فى المكان الذى أسره إليه فى عرض البحر . ونقل « فون مولر » مارأى نفسه فى حاجة إليه من زاد ولحم . ثم ذهب يبحث عن فريسة تحمل وقوداً على الأخص ، لأنه كان فى أشد الاحتياج إلى كميات من الفحم . . . . .

obeikandl.com

السفينة الخفية

في يوم ٢٤ سبتمبر ، اتجه « الأمدن » — وهو على بعد ٢٠ ميلا من شاطىء « سيلان » — شطر أهم طريق تجارى فى المحيط الهندى ، وهو طريق كولومبو — بنانج — سنغافورة ، وكله أمل فى أن يأسر بعض السفن المشحونة بالفحم .

وتقابل مع الباخرة الإنجليزية « كنج لود » King Lud وحمولتها ٣٦٥٠ طنا فى اتجاهها نحو السويس . فأوقفها وفتشها فوجدها مليئة بكل أنواع البضائع ما عدا الفحم ثم مال « الأمدن » إلى طريق « كولومبو — مينيكوى » Colombo Minikoi ، فأسر السفينة الإنجليزية « تيمريك » Tymerik ، وحمولتها ٣٥٠٠ طناً ، وكانت غاصة بالسكر ولم يجد فيها فحما فأغرقها . . ثم أغرق الباخرة الإنجليزية « جريفيفيل » Gryfevale ، وحمولتها ٤٤٣٧ طنا وكانت متجهة نحو عدن .

أين الفحم ؟ لقد دخل السأم نفس (فون موللر) . لابد له من فحم يوقد به مرجل سفينته ، ليمضى مطمئنا فى خطته الحربية البحرية . أنه يخشى أن تصبح سفينته طعمة لطرادات الحلفاء عندما تنتهى شحنتها من الفحم . فى استطاعته أن يلجأ إلى ميناء محايدة فيظل فيها حتى تضع الحرب أوزارها ، ولكنه أبى ذلك بشمم .

وفى يوم ٢٦ سبتمبر ، اقتنص « الأمـــدن » الباخرة الإنجليزية (بوريسك) Buresk وحمولتها ٤٣٥٠ طنا . فلما فتشها وجد فيها ٦٠٠٠ طن من أجود فحم (كرديف Cardiff) كانت مخصصة للاميرالية البريطانية فى الشرق الأقصى . . . ما أحسن هذا الحظ ٦٠٠٠ طن فى قبضته ، يالها من مفاجأة وعلا صياح البحارة الألمان فى سرور عظيم : إنه فحم ! .

وأمر (فون مولر) بنقل هذه الكمية الضخمة من الوقود إلى (الأمدن) كما أمر بنقل البحارة الإنجليز الذين أسرهم منذ يوم ٢٤ سبتمبر إلى « اليورسك » الذى تبعه .

وفى اليوم الثانى ، ابتسم له الحظ فأسر السفينة الانجليزية ريبيرا Ribera وحمولتها ٣٥٠٠ طن ، ووجد فيها سجل الأشارات السرية ، فاحتفظ به ، وأغرق السفينة .

ويقول لنا الضابط (هوهنزولرن) بأن هذا السجل أعلمنا بأن (الريبيرا) ستقابل أثناء مرورها فى المحيط الهندى بسبع وستين وحدة بحرية انجليزية تحرسها المدمرة الانجليزية (سوفتشور Swiftsure) والطراد الروسى (اسكولد Ascold). لاشك أن (الأمدن) وجد الحظ حليفه ؛ لقد وقعت فى قبضته فى نفس اليوم الباخرة الإنجليزية فويل Foyle ، وحمولتها ٤٤١٧ طنا . ولم يشأ (فون مولر) نسفها إلا فى صباح اليوم التالى حتى لا تهتدى السفن الانجليزية إلى مكانه ، من جراء

ضوء النيران التى يحدثها انفجار السفينة ، فيما لو ضربها بطوربيد فى الليل البهيم .

كان (الفويل) يحمل شحنة من الويسكى وسيجارات الهافانا الفاخرة ، فوزع منها (فون مولر) على بحارته وعلى الأسرى أيضاً . ما ألذ الحياة فوق من هذه السفينة المسحورة .

وفى ٢٨ سبتمبر وقف (الأمدن) عند منتصف الليل فى مكان فى عرض البحر ، ووقفت كذلك البواخر الثلاثة التى لم يغرقها ، وهى : « ماركومانيا » ، « بورسك » و « جريفيفل » ثم أمر جنوده وضباطه الذين كلفهم بحراسة هذه السفينة الأخيرة بالصعود إلى (الأمدن) . وهكذا أخلى سبيل السفينة « جريفيفل » .

ويقول « هوهنزولرن » ، ولشد ما أخذتنا الدهشة من هذا التصرف الكريم ، لا سيما عندما رد عليه البحارة الانجليز — وقد فك أسرهم — بثلاثة صيحات من كلمة الاستحسان الموروثة : هرا Hourra ، ثم اتجهوا بسفينتهم شطر (كولومبو) بينما سلكنا طريقنا إلى الجنوب نحو (ملديف) Maldives .

وفى فجر اليوم الثانى ، وصل (الأمدن) إلى جزيرة (ملديف) وفى أثره السفينتين اللتان استبقاهما . فأخذ طريقه بين صخور المرجان فى خليج ضيق ، ثم أخذ شحنته

من الفحم من (المركومانيا) وملأ مخازن (البوريسك) بالكميات الباقية منه ، حيث رغب فى استبقاء (البوريسك) معه وارسال (ماركومانيا) إلى ميناء محايدة فى الهند الهولندية تحمل رسالات خاصة من (الأمدن) .

وسرعان ما أخذ كل بحار من بحارة (الأمدن) قلما وقرطاسا ليخط فيه ماشاء لأهله وخلانه . ويقول هوهنزولرن « كان كل واحد منا يأمل وصول خطابه إلى وطنه ، وكان هذا الأمل ضعيفاً ، فقد تصادف (المركومانيا) فى طريقها بواخر العدو فتأسرها » .

لذلك راجع (فون موللر) بنفسه جميع الخطابات زيادة منه فى الحيطة ، حتى إذا ما أسرت السفينة وقرأت الرسائل ، لم يستدل منها العدو على حركات (الأمدن) . وتركت (ماركومانيا) السفينة الألمانية حاملة رسائل البحارة وتبعتها أنظارهم حتى غابت فى الأفق .

وبعد يومين ، اتجه (الأمدن) والسفينة الأسيرة نحو جزر (شاجوس) Chagos لأسباب قاهرة .

كان على (الأمدن) أولا ، أن تغيب مدة من الزمن عن ساحة القرصنة ، لاسيما وأن بواخر الحلفاء كانت تبحث عنها بكل نشاط . وثانياً ، كانت آلاتها فى حاجة ماسة إلى إلى الكشف عليها وتغيير الفاسد منها .

لا شك أن عملية التصليح كانت صعبة فى جزيرة بعيدة ليس فيهـــا الاستعدادات اللازمة للكشف والتنظيف والتصليح . ولكن « فون مولر » كان يأمل الوصول إلى هذه الجزيرة بكل جوارحه . ويحدثنا « هوهنزولرن » مفسراً : « كنا نود أن نخلص جدران السفينة من الأعشاب والقواقع التى التصقت بها ، وكانت تعوق السفينة نوعاً ما . كما كنا نريد طلاءها والكشف على آلاتها . ولقد قام المهندسون بواجبهم على الوجه الأكمل ، وانتهزنا هذه الفرصة لتنظيف المدافع الرشاشه ، وبقية الأسلحة . ولقد قام الجنود بالتمرين على إطلاق البنادق على أهداف متصلة بالسفينة « بوريك » . مكنت هذه التمرينات بعض البحارة الرديف من بلوغ درجة الكمال فى إصابة الأهداف . ولم نمنع سائق السفينة من التمرين على إطلاق المدافع حتى إذا ما فقدنا أحد رجال المدفعية ، وجدنا فى الحال من يحل محله » .

وفى ٨ أكتوبر وصلت « الأمدن » حوالى الساعة السابعة مساء إلى جزيرة « ديجوجارسيا » Diego-garcia قبل أرخبيل « شاجوس » . ولقد كان لظهورها مع الباخرة التى تتبعها وقع كبير فى النفوس .

ويقول « هوهنزولرن » لم نكد نصل حتى جاء إلينا زورق صعد منه إلى « الأمدن » مدير وكيل شركة الزيوت

« بديجوجارسيا » وهو من مواليد مدغشقر ولا يتكلم إلا الفرنسية .

وكان ركب الامدن جميعهم يتكلمون الفرنسية . أما الضابط « هوهنزولرن » المنحدر من جهة والدته من البوربونيين وأسرة براجانس ، فإنه كان أحسن من يتكلم اللغة الفرنسية فيهم ، ولنتركه يحدثنا :

« تكلم قائدنا معه هنيهة ، ثم صحبه إلى غرفة طعام الضباط ، وناوله قدحا من الويسكى والصودا المثلجة . وتناول الحديث شتى النواحى ، ولشد ما عجبنا عند ما استيقنا من أن وكيل الشركة لا يدرى شيئاً عن الحرب . . . وسرعان ما استخلصنا منه على سر له قيمته : تأتى سفينة شراعية كل ثلاثة أشهر من جزيرة « موريس » إلى « ديجوجارسيا » وهى حبل الوصل الوحيد بين هاتين الجزيرتين . وكان وكيل الشركة فى انتظار هذه السفينة » .

وفعلا كان سكان هذه الجزيرة لم تصل إليهم أخبار العالم منذ آخر شهر يونيو . إنها فرصة سعيدة « للامدن » . ولكن المدير راح يمطرهم بوابل من الأسئلة على حد تعبير « هوهنزولرن » الذى يضيف قائلا : « كان لزاماً علينا أن نجيبه ، وما أكثر الحكايات التى يستطيع البحار أن يقصها من مخيلته . فقصصنا عليه ما ابتكرناه من الحكايات . وردنا

عندما سألنا عن سبب زيارتنا ، بأن السفينة فى حاجة إلى التشحيم والتنظيف والتصليح ، وهى مهمة تتم فى يومين . . . . »

كانت هذه هى الحقيقة . ولكن المضيف راح يتابع أسئلته مع الضابط ، فأخبرناه بأن الأسطول الألمانى يجرى مناورة واسعة النطاق ، واتخذ هذه المناورة المحيط الهندى ، وذلك مع الانضمام إلى الأسطول الانجليزى والفرنسى .

حقاً لقد كانت مناورة ولكن . . . عدائية . ولكى يتخلصوا من حديثه ، فكر الضابط هوهنزولرن فى مخرج منه لا يخلو من الفكاهة حيث قال له : أريد يا سيدى المدير الوقوف على بعض الأخبار ؟ . . . . ألم يعلم سيدى المدير ، بأن البابا « بيوس » العاشر مات ؟ .

كان المدير يجهل هذا الخبر ، وراح يتحسر على البابا بكل ما أوتى من إيمان . وقلده هوهنزولرن فى حسرته . . . وعلى كل فإن هذا المدير كان يصدق كل ما يسمعه ، وعندما تركهم ، أرسل إليهم بهدية من الفاكهة ، فقبلها البحارة الألمان ، وأرسلوا إليه بدورهم بعض زجاجات الويسكى وبعدد غير قليل من السيجار . . . .

ولكن السفينة الشراعية — التى تأخرت عن موعد

وصولها إلى « ديجو-جارسيا » لم تحضر قط . وظل « الامدن » مطمئناً أثناء إصلاحه من يوم ٩ إلى ١٤ أكتوبر ، فحكمت جدرانه وكشف على آلاته . وفى يوم ١٥ ، ترك « الامدن » الجزيرة التى آوته ، واتجه نحو جزيرة مينيكوى Minikoi ، ونحو الطريق البحرى الذى اعتادت سلوكه البواخر التجارية .

وفى مساء ١٦ ، أرقف « الامدن » الباخرة الانجليزية « كلانجرانت » Clan-Grant وحمولتها ٢٩٠٨ طنا . وفى ١٧ أكتوبر ، تقابل مع الكراكة الانجليزية « بونرابل » Ponrabbel فأغرقها . وفى اليوم الثالث أسر الباخرة الانجليزية « بن موهر » Ben-mohr التى كانت آتية من اليابان تحمل شحنة من الدراجات والشدد وقطع الغيار . . . . وكانت حمولتها ٤٨٠٦ طنا ، فأغرقها على الفور . ثم تقابل مع الباخرة الفاخرة « تروبلوس » Troilus وحمولتها ٧٥٦٢ طنا ، فلم يغرقها ، بل نقل إليها رجال السفن التى أغرقها وأمرها باتباعه . وبعد ساعات قليلة صادف الباخرة « سانت اجبرت » وحمولتها ٥٥٠٦ طنا فأغرقها .

واحتفظ له الحظ فى يوم ٢٠ أكتوبر بمفاجأة سارة . فقد أسر الامدن فى هذا اليوم الباخرة « اكسفورد » وحمولتها ٤٥٤٠ طنا وكانت مشحونة بـ ٥٥٠٠ طن من فحم « كرديف » ويقول هوهنزولرن : كانت هذه الباخرة كأختها

« بورسك » تحمل هذا الفحم للاميرالية الانجليزية فى الشرق الأقصى .

فلتنتظر الأميرالية الانجليزيه إذن شحنتها من الوقود ! فلقد نقل الامدن الشحنة كلها فى سفينته التى كانت الهدف الذى تبحث عنه الطرادات والمدمرات الطليقة . . . .

ولم يكد البحارة الألمان الانتهاء من التفريغ ، حتى شاهدوا الباخرة « شلكانا » Chilkana وحمولتها ٩٢٣٠ طنا التابعة لشركة الملاحة الهندية الانجليزية ، وكانت تحمل أدوات الطبى والسجاير وعلب الأكل المحفوظة والشوكولاتة والبيرة والبن . آه ، إن رجال الامدن سيهللون فرحا وسرورا بهذا الصيد السمين . وسرعان ما أوقفوها وأفرغوا شحنتها ، ثم وضعوا فيها لغما فنسفت لساعتها ، وغاصت بين أمواج البحر .

اكتظت السفينة « ترويلوس » بأسراها من رجال البواخر المغرقة ، وفكر « فون موللر » فى التخلص منها ومن عليها بإرسالها إلى إحدى الموانى المحايدة . وقبل أن يتركها تأخذ سيرها نحو الميناء الذى حدده ، أمر بإفساد آلات اللاسلكى فيها ، إلا أنه أعطى ربانها الانجليزى ، وكان برتبة « كابتن » ، الزاد الكافى ، ولم ينس المهندس الألمانى أن يستعمل علمه وخبرته فى جعل ماكينات الباخرة تتحرك

ببطء شديد حتى لا يستطيع قائدها الانجليزى السير بها بسرعة .

ثم قال بحارة الامدن للسفينة بعد أن أطلقوا سراحها « حظاً سعيداً » .

فرد الانجليزى مردداً ثلاث مرات : حظا سعيداً . وكان الانجليزى يحب الصراحة فى الحرب وكان «فون مولر» نبيلا فى معاملاته .

وذهب الامدن فى يوم ٤ اكتوبر ، إلى عرض البحر ليستخرج رجاله وأطلق (فون مولر) عنان فكره ، أنه حتى الآن أنزل بالاسطول الانجليزى خسائر فادحة ، ومع ذلك فإنه لايزال يريد الانقضاض على العدو . ولكن أين؟ وكيف ؟ وكثيرا ما يتساءل الخبراء فى الفنون الحربيـــة والبحرية ، لماذا أحجم طول هذه المدة عن الهجوم على وحدات العدو ؟

ويرد (هوهنزولرن) مفسراً لنا خطة (فون مولر) : (كان لزاما علينا أن نضيق العدو فى تجارته أولا فى أكبر عدد ممكن من سفنه . أما الآن وقد تم لنا ذلك فسوف نخوض غمار نوع آخر من الحرب البحرية) .

وفعلا ، اختمرت فكرة الهجوم فى رأس (فون مولر)

الجبار . فيمم شطر « بنانج » Penang ليغرق من السفن ما يستطيعه أثناء تكدسها فى هذا الميناء .

واستعد « فون مولر » لتنفيذ خطته الباسلة ، وهو يعلم أن الهجوم على العدو فى البحر فى الوقت المناسب ، يعتبر فى الوقت نفسه ، دفاعاً عن النفس .

فأمر بوضع المدخنة الكاذبة فى مكانها ، وقام كل ضابط بحار إلى مكانه ، وجىء بالذخائر ، ثم انطلق « الأمدن » سريعا وهو على أتم استعداد ، بمخر عباب البحر نحو « بنانج »(١)
وكانت المدمرات الفرنسية تدور حوله ونذكر منها « بستوليه » Pistolet و « موسكيه » Mousquet و « فروند » Fronde و « ابرفيل » Iberville.

---

(١) فى سنة ١٧٦٦ تزوج الكابتن الانجليزى « لايت » Light بابنة أحد ملوك ماليزيا الذى أعطى لزوج ميناء « بنانج » مهرا فباع « لايت » هذه الميناء فيما بعد لشركة الهند Cie des Indes فأقامت فيها مدينة « جورجتاون » Georgetown التى أصبحت محط رحال السفن التى تقوم بالتجارة مع الصين ومع سفن هولندا فى سلوكها طريق « بادانج — سنغافوره » Padang-Singapour ، ويواجه شاطىء خليج « بنانج » الجنوبى ، شواطىء « سوماطره » التى هى تحت الانتداب الهولندى ، وانضمت الوحدات الحربية التى تقوم بالمناورات فى هذه الجهات سنة ١٩١٤ إلى الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، تحت أمرة الأميرال الانجليزى « جرام » Jerram الذى قاد فيما بعد الأسطول الثانى المصفح إلى « جولاند » Jutland.
(المؤلفة)

obeikandi.com

بنـــانج

بنانج ؟ . . جزيرة عند مدخل مضيق « ملقا » Malacca تكاد تتصل بشبه جزيرة « ماليزيا » Malaisie .

كان ذلك فى ليلة ٢٧ — ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ . واختفى القمر تحت سحب سوداء ، كما أسدل الضباب رداءه على الشاطىء الماليزى . ولاحت مرتفعات الجزيرة كالأشباح ، وكانت بعض الأضواء تنم عن وجود مدينة « جورج تاون » النائمة . كما كان يتلألأ فى الظلام سنا نورين أحمرين عند مدخل المرفأ الذى أضيئت أرصفته . وكثيراً ما طلب قومندان المدمرة « ايرفيل » الفرنسية بإطفاء الأنوار ، ولكن مدير الميناء لم يستمع لنصيحته .

كان مدير الميناء يكره الظلام ، فقد حدث منذ شهر ، أن حاول تجربة اطفاء الأنوار ، وصادف هذا الوقت ، ساعة دخول الطراد « يرموث » Yarmouth فكاد يرتطم بسفينته فى طريقه . لذلك أنار الميناء ، لا سيما وأن النور لازم لميناء تكدست فيه أنواع السفن . أليس من المنطق أن تستطيع كل سفينة المضى إلى حال سبيلها ، وهى مبصرة ، لا أن تتحسس المياه فى سيرها ؟

obeikandl.com

وألح قومندان الابرفيل (١) مرة أخرى فى إطفاء الأنوار ورفض مدير الميناء إجابته .

حقا إن الفرنسيين عصبيون . أليس هذا المكان آمناً مطمئناً ؟ كيف لا ، ولم ينطق ضابط لاستعلامات فى بنانج ، حتى هذه الساعة ، أى إشارة مقلقة . لانذكر أن « الامدن » كان منذ ٩٥ يوما على بعد ٢٠٠٠ ميل من مضيق « ملقا » ولكنه غاب بعد ذلك متجهاً نحو الجنوب ، وذهبت فى أثره ست من أسرع الطرادات الحليفة . ولاشك انها استقضى على هذه السفينة التى أتقنت فن القرصنة . وأنى لها من الافلات من ست طرادات . إذن لاخوف هناك ، ولا مانع من ترك الأنوار القليلة فى الميناء الذى ليس فيه إلا ثلاثة مدمرات فرنسية هى : « فروند » و « بستولير » و « ابرفيل » والطراد الروسى « يمتشوج » Yemtchoug المزود بثمانية مدافع قطر ٦٢ سم ، وثلاثة قاذفات طوربيد ؟ كانت كل هذه السفن راسية لحماية الميناء . أليس فيها الكفاية ؟

لاشك . ولكن يجب على الإنسان أن يتخذ حيطته ، وعلى كل ، فقد قام « البستوليه » فى الصباح بدوريته . وكان « الفروند » مفككا الآلات لتصليحها ، وكانت مراجل « الابرفيل » فى حالة يرثى لها بعد ثلاثة أشهر قضاها فى عرض البحر ، حتى

---

(١) Iberville

أن الأميرال جيرام [١] الذى كان على رأس الأسطول الفرنسى الانجليزى فى الصين ، صرح له بإجازة لمدة عشرة أيام لإصلاح المراجـــل والآلات . وكذلك كان حال الطراد الروسى « يمتشوج » ، فقد صرح له الأميرال بخمسة عشر يوماً . إذن لم يبق إلا الطراد الفرنسى القديم « موسكيه » وكانت سرعته الضئيلة تتناسب مع تسليحه البسيط ، وكان عليه أن يقوم بدوريته من شمال بنانج إلى جنوبه . فكان هو المدافع الوحيد عن هذه الميناء المضيئة كحفل عروس والتى يدخل الداخل فيها كما لو كانت سوقا ، يالله المصيبة ! وهل يستطيع « الموسكيه » الدفاع ؟ إن مثله كمثل الوعل الذى أدمى قرنه فى نطاح الصخور الشماء .

وأصبح الامدن ، بعد أن ركب المدخنة الكاذبة يشبه تماماً (اليرموث) الانجليزى وكان يمخر عباب اليم فى ضوء القمر فى طريق (بولو بدانج) Poulo-Pedang

وغاب القمر فى الساعة الثالثة صباحاً ، وسط الضباب الكثيف . وأبصر (الموسكيه) فى الساعة الثالثة والنصف — وكان يخالف فى اتجاهه اتجاه (الامدن) — الأربعة مداخن ، فظنها مداخن اليرموث ، فمال إلى بنانج .

لقد حان وقت العمل . انطلق الأمدن بسرعة ١١ عقدة

---

(١) عين الأميرال « جيرام » فيما بعد على رأس الأسطول المصفح الثانى فى موقعة « جوتلاند » .

شطر مدخل الميناء ، ويقول (هوهنزولرن) : «وكان يدلنا على الطريق ، النور المنبعث من الشمندوره »

ولم ينتبه حارس السيمافور لحقيقة السفينة وهى داخلة بمداخنها الأربعة . لقد ظنها « اليرموث » قافلة من رحلتها ، تبغى الدخول فى الميناء . ودخلت (اليرموث) الميناء .

دخلت اليرموث الميناء ومضت عليها دقيقتان . ثم خمس . ثم سبع . لم يشك فيها أحد . وعلى حين غرة ، دوى صوت كصوت الرعد فى أرجاء الميناء ، وقامت المدافع تدوى بصوتها الرهيب ، وتوالت قذائفها تحصد السفن والأرواح . ماهذا ؟ ما دهانا ؟ ؟

لقد فهم رجال الميناء . . أنه ليس (اليرموث) وإنما هو (الامدن) لاشك فى ذلك . . إنه يتجه فى سرعة مخيفة نحو الطراد الروسى (يمتشوج) ولم يكن القومندان [1] فيه ،

---

(١) اجتمعت هيئة أركان الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٥ فى « فلاديفوستوك » Vladivostock وحكمت بالسجن على قومندان اليمتشوج ثلاث سنوات ونصف وتجريده من ألقابه العسكرية . ويظهر من فحوى الحكم الصادر ضده إن القومندان كان مستهترا فكان يترك السفينة مع خمسة من الضباط ليتريض ، كما كانت زوجته تصحبه دائما فى رحلاته البحرية . كما يتضح أنه لم يأخذ الحيطة الكافية فى مثل هذه الظروف الحربية فلم تكن الطوربيدات مستعدة للقذف كما كانت أنوار السفينة باقية كما لو كانت فى وقت سلم (أنظر كتاب Combat set Batailles sur mer صفحة ٨٧ لمؤلفه Farrère et Paul Chack.) .

فقد تركه منذ برهة مع زوجته ، كما نزل منه بعض الضباط ، ولم يزل على سطحه إلا بعض الجنود . فسارعوا — وقد استسلموا لثورة الجنون من جراء الموت المحقق الذى يحدق بهم، إلى مدفع يصوبونه نحو السفينة الألمانية، دفاعا عن شرف بلادهم . ولكن « الامدن » أرسل طوربيدا نسف به الطراد وغاص بين قرقعة تشيب لها الرؤوس . وصعد دخان كثيف غشى الميناء ، وكانت القذيفات تصفر خلاله نحو « الامدن » . إنه الطراد (ابرفيل) يطلق نيرانه على غير دقة فأطاح بمداخن سفينة يابانية . ولم يصب (الامدن) وانقشع الدخان . ولم يبق من الطراد الروسى غير أعلى الصارى ! ثم انقض الامدن كالثور نحو (الابرفيل) .

ولكن فى هذه اللحظة ، خان السراب البحرى (الامدن) ، وما أكثر السراب فى البحر ، فأفلت منه (الابرفيل) ونجا من موت محقق ، ويزيد (هوهنزولرن) بأن سفينته ظهرت عند مدخل الميناء [1] يخف بها الدخان الكثيف من كل مكان وظن (الامدن) أنها سفينة حربية حليفة، فدار حول نفسه بسرعة ويمم شطر العدو الجديد .

وأخذ قومندان (الابرفيل) منظاره وأخذ يرمق ،

---

(١) « الإمدن » صفحة ١٣٦ .

فرأى هو الآخر ذلك الدخان الكثيف ، ولعب السراب دوره معه أيضاً ، وتساءل أقاذفة طوربيد أم لاقطة ألغام ، أم هو (الموسكيه) يطلق مدافعه ؟

وانقض الامدن على هذه السفينة ، ويقول (هو هنزولرن) ، حاولنا من مقعد ربان السفينة أن نستبين هذه البواخر ، ولكن الدخان الكثيف الذى كان يحيط بها ، حال دون ذلك ، فاضطررنا إلى فتح فوهات المدافع ، واصليناها نارا حامية على بعد ٥٦٠٠ متر ، ولكن لسوء الحظ ، لعب السراب دوره فلم نصبها . وأخيرا تبينا أنها سفينة تجارية صغيرة . فأوقفنا إطلاق النيران » .

« وبالرغم من عدم أهمية هذه السفينة الصغيرة ، فقد كان ظهورها منجاة (للابرفيل) وسفن شحن أخرى . وكان فى نية قومندانها أن ينسفها ولكنه آثر ، وقد خرج من الميناء ، ألا يدخلها [1] » .

دامت هذه المعركة الوحشية عشرين دقيقة فى ميناء (بنانج) ، واتجه (الامدن) الذى غشه السراب ، إلى عرض البحر ، واجتمع ضباطه فى غرفة الطعام ، وتناقشوا فى حوادث الموقعة . ثم تناولوا الطعام فى هدوء وارتفعت الشمس فى الأفق الصافى ، وصاح بحارة (الامدن) مرددين صيحة الاستبشار والسرور (هرا) ثلاث مرات .

---

(١) « الإمدن » صفحة ١٣٦ .

الواقعـــة

وفى نفس اليوم « يوم ٢٨ اكتوبر » فى الساعة السادسة صباحا، شاهدت السفينة الحارسة للمدمرة الفرنسية «موسكيه Mousquet وهى قافلة نحو « بنانج » Penang ، شبح سفينة حربية . ولم تتمكن من معرفة جنسيتها لبعد المسافة بينهما . فلقد كانت أبراجها وصواريها ومداخنها ترقص ملتبسة فى بعضها تحت أشعة الشمس . ولكنها هى الأخرى تكاد تكون راجعة من بنانج . ربما كانت باخرة حليفة .

ودار العقرب ليقف على السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين . يخيل للرائى أن لهذه السفينة القادمة أربع مداخن. نعم ، لها أربع مداخن . أنها تشبه « اليرموث » Yarmouth أنها اليرموث دون شك .

وطير خبر هذه السفينة إلى القائمقام تيروين «Theroinne قائد الموسكيه، فنهض من مكانه ليصعد إلى القنطرة ثم أمر بتحويل مدمرته نحو هـــذه الباخرة بعد أن أمر بارسال إشارات التعارف . ولما كان نظام البحرية يقضى بأن يبدأ ذو الرتبة العالية بمخاطبة من هو دونه فى الرتبة، انتظر «الموسكيه إشارة من المدمرة القادمة « ولكنها لم تخاطبه »

وتحرك العقرب إلى السادسة والدقيقة خمسة وأربعين ، وكانت المسافة بينهما لا تزيد عن ٦٠٠٠ متر . هاهما يقتربان إلى ٥٠٠٠ متر والمدمرة الكبيرة لا تتكلم ولا تسأل . وأخيرا اضطر الموسكيه إلى أن يصعد عليه . وردت عليه المدمرة الغريبة بأعلامها الالمانية !

انتفض « تيروين » مذعوراً . إنه « الأمدن »

وفى لمح البصر ، أرسل الأمدن خمس قنابل فلم تصب الموسكيه ثم أتبعها بقنابل أخرى كان حظها مثل القنابل السابقة .

« إلى أماكن القتال أيها البحارة » .

« نحن فى أماكننا جميعا » .

وكان « تيروين » يعلم أن القتال لن يكون سجالا ، « فالأمدن » تفوقه بكثير بفضل بطاريتها القوية ، وكان لا بد « للموسكيه » العجوز أن يصمد لضربات عدوه العنيد . والفرصة الوحيدة الباقية لديه هى الاقتراب من المدمرة الألمانية فى أسرع وقت إلى مسافة ٦٠٠ متر ليقذفه بطوربيد فيقضى عليه قبل أن يعاجله عدوه بقنبلة . وصمم « تيروين » Theroinne قائد « الموسكيه » على ذلك حتى لو كانت نسبة النجاح فى إصابة « الأمدن » واحداً إلى عشرة . فان تعذر عليه ذلك ولقى حتفه ، فعلى الأقل يكون أرضى ضميره وصان شرف الوطن . ثم صرخ « تيروين » فى رجاله بصوته الجهورى : إلى المحركات

والآلات. أسرعو السير! آه: لو تمكنت من إصابته وإيقافه ونسفه. ثم تقدم «الموسكيه» الكهل نحو «الامدن» المنقض بسرعة مخيفة على عدوه.

«هلموا إلى الطوربيد»

أنها لبسالة. أنه لجنون الإقدام. فالقوى غير متعادلة. لقد تشابه «الموسكيه» بالرجل الذى لا يحمل إلا نبوتاً غليظا ويحاول منازلة رجل ممسكا بسيف مهند وجاء أمره متأخرا حيث أحكم «الإمدن» ضربته الثالثه فأصاب سطح «الموسكيه» فأطارت مقدمته ونسفت أجهزته اللاسلكية وأحدثت فجوة فى القزان الخلفى فتدفق منه الماء المغلى.

— «اقذفو»!

ولكن بم يقذفون؟

وجاءت الضربة الرابعة من «الأمدن» فنسفت العدد والأجهزة والآلات فتعطل عن السير وانبطح تحت القنطرة الباقية الموصلة إلى غرفة القائد، جميع الضباط والجنود، وطارت شظية أصابت «تيروين» ولكنه لم يعبأ بجراحه وزأر فى رجاله.

— «ارجعوا إلى مدافعكم!»

وقام فوق الجزء الباقى من ظهر «الموسكيه»، بضعة رجال تسيل منهم الدماء وعلى رأسهم الضابط «فلديو دى تورسى»

وقد احترق نصفه، «يصوبون مدفعاً عيار ٤٧ نحو «الأمدن» الذى أخذ يصب نيرانه على «الموسكيه» دون هوادة.

فاضطر «تيروين» بعد استيقانه بخيبة الأمل، لأن يطلب من الضابط «كاريسان[١]» الذى لم يصب بسوء «أن يتحقق من عدم وجود مدفع يصلح للاستعمال!»

وما أن ترك «كاريسان» محله حتى أصابته شظية أطارت ساقه. فأخذ يزحف على بطنه لينفذ أمر رئيسه. وعاجل «الأمدن» عدوه بضربة خامسة راح ضحيتها المهندسون السائقون والميكانيكيون وبقية الجزء المقيمين فيه.

لا. لقد انتهى «الموسكيه» أنه يحتضر. وأخذ يغوص شيئاً فشيئاً. وأطلق عليه «الأمدن» الطور بيد القاضى فغاصت مقدمته. ووصلت المياه إلى قدمى «تيروين» الذى «كان الدم يسيل من جرحين فى رأسه[٢]». فصاح يلقى آخر أمر إلى بحارته:

— «اذهبوا إلى البحر!»

وقفز بعض الرجال إلى الماء. وألقى «تيروين» إلى رجاله الجرحى رغم اصابته القاتلة، أحزمة الانقاذ، ووقف

---

(١) أطلق اسم «كاريسان» على الغواصة الألمانية أ. ب. ٩٩ التى آلت إلى فرنسا طبقا لمعاهدة فرساى. أنظر كتاب «حرب المدمرات» جزء ٢ ص ١٢٧

(٢) أنظر كتاب «المواقع الحربية» لمؤلفه كلود فاريير ص ٩٦.

« فون مولر » وضباطه فوق « الإمدن » يشاهدون هذه المأساة وقد بدا على وجوههم التأثر الممزوج بالاعجاب من بسالة أعدائهم

وغاص « الموسكيه » مع قائده البطل الذى صمد إلى النهاية رافعاً العلم الفرنسى عاليا ! . والتقط « الإمدن » ٣٦ بحاراً ، منهم ١٦ جرحى ، وضابطاً واحداً هو الملازم « كاريسان » . ويصف لنا « هوهنزولرن » هذا الموقف بقوله : « وحتى لا يكون جذب أولئك البحارة الجرحى مؤلما ، فقد أمر « فون مولر » بأن ترفع نفس زوارق الانقاذ بجرحاها إلى سطح المدمرة حيث توجد المتاريس ، ثم نقلوا إلى غرفة الاسعاف ورقدوا على الأسرة[١] .

وحف الاطباء من حول « كاريسان » لتضميد جراحه . فرفض قائلا : « أطلب منكم المبادرة باسعاف رجالى أولا »[٢]

وكان اليوم كله تعب ونصب وأعياء ونشاط غير عادى .

ويحدثنا هوهنزولرن قائلا : « وكان أغلب البحارة الفرنسيين من غير ملابس ، فاعطيناهم ملابس داخلية وملابس رسمية . لقد كان موقف رجال « الإمدن » وهم يواسون إخوانهم البحارة المنكوبين ، مؤثراً للغاية وكانوا لا يفتأون يمدونهم بالشوكولاته والسجاير والمثلجات ؛ ثم نقل الملازم

---

(١) « الأمدن » لمؤلفه جوزيف دى هوهنزولرن ص ١٤١ .

(٢) « الهزائم الحربية البحرية » لمؤلفه كلويد فاربر ص ١٠٠ .

« كاريسان » لخطورة جراحه إلى غرفة مستقلة ، وذهبت لزيارته بعد أن أجريت له العملية الجراحية . فقد اضطر الأطباء إلى بتر قدمه اليمنى. وتحمل مصيبته فى سكون وصبر، ولكنه كان يئن من شدة الألم . فأخبرته بعدد البحارة الذين أنقذوا وبحالتهم الراهنة . فأسكن هذا الخبر كثيرا من آلامه وشكرنى على اطمئنانه على رفقائه فى الأسر بما حدثته عنهم (١). ومات جريحان فرنسيان أثناء الليل .

وفى التاسعة من صباح يوم ٢٩ اكتوبر ، هرع بحارة « الإمدن » إلى سطحها على أثر مناداتهم بالبوق .

« ووقف الضباط بملابس التشريفة ووقف بعض البحارة بأسلحتهم. وتقدم الفرنسيون . وتساءل الجمع ، هل سينفذ حكم الاعدام رميا بالرصاص فى أحدهم ؟ . كلا هاهما نعشان متقبلان ملفوفان بالعلم الفرنسى ذى الألوان الثلاثة ، وهاهو القومندان « فون مولر » بملابس التشريفة وخطب القائد الألمانى بلغته، خطبة وجيزة جداً، تعد كلماتها ، ثم التفت إلى الأسرى الفرنسيين وقال: «فلنصل على أرواح هذين الجنديين الباسلين اللذين ماتا متأثرين بجراحهما فى معركة رهيبة. »

« ثم ألقى النعشين فى اليم ، ونكس العلم الألمانى لحظة (٢)».

---

(١) « الامدن » ص ١٤٣ .

(٢) المواقع الحربية البحرية ص ١٠١ .

وهكذا ضم البحر المخضم رفات البحارين، فكان لهما قبرا وكان لهما رمسا ! وتابع « الإمدن » سيره بسرعة فائقة .

وأقبل الليل . وكان طويلا على الجرحى المكتظين فى غرفة الاسعاف الضيقة بالنسبة لعددهم . « واتجهنا لمناوراتنا الحربية نحو الطريق التجارى بين « بنانج ورنجون » على أمل الانقضاض على فريسة أخرى، فننقل اليها أولئك الأسرى لإنزالهم فى ميناء محايدة، وعندما تنفس الصبح، ووقف عقربا الساعة على الخامسة ، لاح فى الأفق دخان ، فتوجه (الامدن) نحوه فورا، وعندما اقتربنا منه، عرفنا فيه باخرة تجارية ضخمة فاطمأننا على مصير اخواننا الفرنسيين . وكلف (فون مولر) الملازم لوترباخ [1] بأمرها بالوقوف الاجبارى [2] »

كانت هذه السفينة التجارية سفينة انجليزية حمولتها ٣٥٠٠ طن واسمها (نيوبرن) أقلعت من انجلترا قاصدة (سنغافورة) وعليها أطنان من الملح . فأوقفت آلاتها عندما تلقت الانذار. ويقول (فارير) [3] «ودخل الرعب فى قلب قومندانها عندما علم أنه أصبح فريسة الامدن . ثم زالت عنه الغمة، عندما تلقى من (فون مولر) ذلك الأمر :

---

(١) Lauterbach

(٢) « الامدن » ص ١٤٧ و ص ١٤٩ .

(٣) المواقع الحربية البحرية ص ١٠١ و ص ١٠٢ .

« حول طريقك فوراً شطر « سابانج »[١] لتوصيل البحارة الفرنسيين إليها .

« أسرع فى السير لأن الضابط الفرنسى الجريح فى حاجة ماسة إلى العلاج فى مستشفى » .

فأطاع الأمر . ويردف كلود فارير قائلا : « وقام البحارة الألمان بنقل رجالنا الجرحى إلى « النيوبرن » بكل عناية . وكان الأمير « هوهنزولرن » ابن أخ الأمبراطور يشرف بنفسه على هذا النقل ، كما كان يحمل الجرحى ويضعهم فى الأماكن التى خصصت لهم .

ووصل الجرحى الفرنسيين إن المستشفى وارتدوا الملابس الهولندية البحرية . ولفظ كاريسان نفسه الأخير بعد أن شاهد رجاله وهم مستلقين على أسرتهم فى « المستشفى الصغير النظيف » الذى استقبلهم . وكانت الساعة الثانية عشر ليلا . وارتسمت على وجه كاريسان علامة الانشراح لأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل .

---

(١) توجد سابانج فى شمال جزيرة سومطرا (أندونسيا) (المؤلفة)

إلى أرخبيل كوكوس

إن « الإمدن » الذى ظل ثلاثة أشهر يشن غاراته البحرية على بواخر العدو قد أتى بالعجائب حيث أغرق « كانبجا » و « أندوس » و « لوفات » و « دبلومات » و « ترابوك » و « كلانماتيون » .

ثم ضرب مدينة مدراس وأفسد مخازن البترول فيها . وعندما حول دفته نحو « كولومبو » أسر السفينة « بورسك » وأغرق « جرينفيل » و « كنج لود » و « تيمريك » و « زيبيرا » و « فويل » وكلها بواخر انجليزية . ثم استراح قليلا فى « ديجو جارسيا » حيث أخذ شحنته من الفحم وفحص آلات الإمدن وقام بتنظيفه ثم انطلق جريا وراء بواخر العدو ليزيد على قائمة صيده الباخرة « سان اجبرت » التى أسرها ، و « كلان جارانت » و « بونرابل » و « بن مور » و « ترويلوس » و « شيلكاناه » التى نسفها جميعا . وهى أيضا بواخر انجليزية .

ويقول الضابط الأديب « كلود فارير » المشهور باعتزازه بفرنسيته : « تم كل ذلك ولم يمس رجال « الإمدن » شعرة من أسير أو يحاولوا إهانته ، كما كانوا يعملون كل ما فى وسعهم لإرسال الأسرى من المحاربين وغير المحاربين إلى أوطانهم كلما سنحت

الفرصة . حقا إن الفخر فى ذلك يعود إلى الكابتن « فون مولر » قائد « الإمدن » إن « فون مولر » غنى عن التعريف فى نبل أخلاقه (١) . »

وبعد ذلك اتجه « الأمدن » صوب « بنانج » فأغار عليها وأغرق الطراد الروسى « يمتشوج » و« الموسكيه » الفرنسى . وحمل من ظل على قيد الحياة من رجاله ونقلهم إلى « النيوبرن » ليعالجوا فى إحدى مستشفيات « سابانج » التابعة لهولاندا .

ثم أراد « الإمدن » بعد ذلك أن يتقفى آثار أعدائه بحيله المعروفة عنه ، فيمم شطر « كولومبو » أمام الباخرة « نيوبرن » ، ثم عند ، ما غابت عنه حول طريقه وانطلق إلى عرض البحر ليغيب عن أفق أعدائه . .

كيف اختفى « الإمدن » عن أعين أعدائه الذين مافتئوا يبحثون عنه ؟ إنه لسر عجيب ، وأين اختفى ؟ . آه لو علم أعداؤه مكان اختفائه ؟! ولكن أنى لهم أن يعرفوه! . ويحدثنا « كلود فاير » قائلا :

وبعد ضربة بنانج غاب « الأمدن » واختفت آثاره !! ودخل الرعب فى قلوب البحارة ، فكانت السفن ترتعد فى تجوابها بين « هونج كونج » و« بحر العرب » ولم يدر الأميرال

---

(١) المواقع الحربية البحرية ص ٩٨ .

« جرام » أين يوزع طراداته العشرة من انجليزية وفرنسية ويابانية وروسية وهى بعض الوحدات التى يتألف منها أسطوله فى الصين . وكان وهو فى سنغافورة، دائم الانحناء على أجهزة البرق ليعرف أين كانت آخر ضربة من ضربات «الإمدن»

وقلقت القلوب من غيبة « الامدن ». وكيف يصدق العقل سكون «فون مولر» من يوم ٢٨ أكتوبر إلى ٧ نوفمبر؟ ويردف « فارير » قائلا: «ليست لدينا أنباء عن « الامدن » منذ عشرة أيام . لم تشاهد سفينة حليفة أو محايدة شبح « الامدن » المخيف فى هيكله ، المنخفض العلو ، المستطيل الدقيق » .

ولما كان لابد للسفن أن تسير فى البحر رغم الذعر الذى نشره « الإمدن »، فقد أوفد الأميرال « جرام » أربع طرادات لحراسة قافلة قوامها ٢٦ باخرة بين تجارية وحاملة جنود، قامت من استراليا فى أول نوفمبر قاصدة اوربا بما عليها من قمح ورجال . والطرادات الأربعة هى : «سينوتور» الإنجليزى و«ملبورن» و«سدنى» الأستراليان ، و« ايبوكى»، اليابانى . وبينما كانت فى سبيلها ، ألهم « جرام » أن يأمر الطراد «سدنى» بترك القافلة والإتجاه نحو الجنوب للقيام بالاستكشاف فى مضيق «لاسوند» ، فأبرق إليه بذلك

فانحدر « سدنى إلى الجنوب . وسوف يرى القارىء فيما بعد نتيجة هذا الإلهام .

وإذا كان « الإمدن » قد غاب عن أعين أعدائه . فإنه ذهب ليلحق بالسفينة « بورسك » التابعة له ليتزود منها بما يلزمه من فحم ووقود، وقد تواعد معها فى مكان ما فى عرض البحر . وكان هذا المكان بالتحديد هو مضيق « لاسوند » . وظل يومى أول وثانى نوفمبر يتزود بالفحم وينظف آلات « الامدن » ومحركاته ، وقد بلغت دوراته على حد قول « هوهنزولرن » عشرة ملايين دورة، أى أنها قطعت ٣٠,٠٠٠ ميل بحرى . إنه رقم قياسى بديع !

وخصص « فون مولر » يوم ٣ نوفمبر — بعد أن اطمأن على الوقود والآلات — لراحة البحارة، وقامت الموسيقى تصدح بنغمات رقصة الفالس . ويقول « هوهنزولرن » : « وحفزت الموسيقى كثيرا من رجالنا إلى إلانة عضلات سيقانهم » .

وبينما كان البحارة يرقصون ، أغلق « فون مولر » غرفته عليه وعلى مساعده الفذ « فون موك » ليرتبا موقعة جديدة .

واتجه « الامدن » يوم ٣ نوفمبر نحو الغرب ثم نحو الجنوب فوصل إلى مضيق « لاسوند » حيث يجوب مياهه الطراد الإسترالى « سدنى » ، دون أن يفطن إلى وجوده ! ! وفى

يوم ٥ : أرسل « الامدن » السفينة « بورسلك » نحو أرخبيل كوكوس أو « كيلينج » ؟؟ ماذا يبغى « فون مولر » من وراء هذا الأمر؟ . إن جزر « الكوكوس » هى عبارة عن ست أو سبع جزر صغيرة اصطفت على شكل نصف دائرة حول بركة من المياه ، وأهم جزيرة من بينها هى جزيرة « ديركسيون » وطولها ٢٠٠٠ متر وعرضها ٧٠٠ متر وأمامها على بعد ١٥ كيلو متراً صخرة تلطمها الأمواج، أطلق عليها اسم (كلينج الشمالية) ولا يوجد فيها الا خزان واحد من الماء العذب ! ؟ .

هذا هو الظاهر لنا ، ولكن عقل (فون مولر) الجبار رأى ما خفى علينا . أن لهذه الجزر شأن كبير فقد أقامت شركة التلغرافات « ايسترن اكستنشيون[1] » منذ سنة ١٩٠٢ أسلاكا للبرق تصل بين انجلترا والمحيط الهندى والمحيط الهادى . ولولاها لما كان لهذه الجزر أى شأن . وكانت هذه الأسلاك مقامة على جزيرة (ديركسيون) ومن بينها الاسلاك التى تصل لوندن بسنغافورة وباتافيا ، ولها فرعان. فرع يمتد إلى جزيرة موريس ، والفرع الاخر إلى (برث) (باستراليا) .

ثم وضع فى هذه الجزيرة ، منذ عهد قريب جهاز للبرق

---

(١) Eastern Extension

اللاسلكى من أحدث طراز ، وكان كثيراً ما يتكلم عن حركات « فون مولر » ، لذلك صمم على أن يتخلص مرة واحدة منه ومن أسلاك البرق الممتدة فى قاع البحر .

ويشرح لنا هوهنزولرن ذلك بقوله : كان على الضابط (فون موك)، اليد اليمنى « لفون مولر » ، الاتجاه ببعض البحارة إلى جزيرة « ديركسيون » لينسف محطات البرق جميعاً . ولا تخفى أهمية هذه العملية من حيث قطع الصلة بين استراليا والهند وزنزيبار »

ولا شك أن هذه المناورة فيها خطورتها . ولقد برهنت الأمور فيما بعد على أن « فون مولر » لا يجيد فن البحرية فحسب . بل أنه من أفذاذ الرجال الذين يجيدون الفنون الحربية البحرية على حد تعبير « كلود فارير »

إن نسف محطات البرق فى جزيرة « ديركسيون » معناه عزل استراليا عن بقية العالم فلن يمكنها إرسال القمح والرجال إلى جبهات القتال فى فرنسا وغير فرنسا ، إذن ماذا يخفيه القدر لحرب سنة ١٩١٤ ؟

وفى ٧ نوفمبر ، انطلق « الأمدن » صوب « الارخبيل » فلم يجد « البورسك » فى انتظاره حسب اتفاقه معه على بعد ٤٠ ميلا غرب الارخبيل .

أضجر هذا الخلف « فون مولر » دون أن يقلقه . سوف يحضر « البورسك » بعد قليل . والتقط « فون مولر » رسالة برقية أثناء الليل تقول بأن طرادا حليفا يجوب خلال مياه « لاسوند » مستكشفا . لم يعبأ « فون مولر » بهذا النبأ فلديه الوقت الكافى لتنفيذ خطته قبل وصول هذا الطراد اليه وآثر الخوض فى مياه المحيط الهادى ليجرب قنابله فى خليج عدن ثم منها ليسد الطريق التجارى الموصل إلى « بومباى » حيث يكثر فيه سير السفن التجارية . وعلى كل فطرق الهرب كثيرة فى أرخبيل « كوكوس » إذا ما جاءت سفن الاعداء تقلقه أثناء إغارته . وإذا لزم النزال ، نازلهم « الامدن »

وكان الاستعداد فوق « الامدن » تاما لنسف المحطات . ولاح الفجر بضيائه ، فظهرت جزيرة « ديركسيون » كأنها خالية من الأنس ، فكل ما فيها ساكن إذا استثنينا رؤوس أشجار جوز الهند الخضراء وهى تهتز كلما داعبها النسيم العليل .

ودخل « الامدن » فى الخامسة من صباح يوم ٩ ، خليج جزيرة « ديركسيون » ويقول « هوهنزولرن »[1] فى ذلك :

« ونزل البحارة الذين وقع عليهم الاختيار للأغارة ، فى زورق بخارى وزورقين من زوارق الانقاذ ، وقام « فون موك » يدير هذه الحركة وهو واقف فى الزورق الأول بينما تبعه

(١) الأمدن ص ١٥٦

الملازم الثانى «شمدت» فى الزورق الثانى، وكان فى كل زورق مدفعان رشاشان. وسحب الزورق البخارى الزورقين الآخرين إلى أن أصاب اليابسة. ورفعت الزوارق الثلاثة العلم الألمانى.

وبزغت ذكاء من خدرها فى السادسة، وشاهد البحارة قنطرة بين خط الصخور الأبيض، كما شاهدوا أيضاً بعض المبانى وبعض أكواخ يقطنها أهالى الجزيرة، ثم محطة البرق وصارية اللاسلكى المشرفتين على الجزيرة. وعلى بعد قليل بدت لهم أربعة أو خمسة زوارق «ماليزية» تتأرجح فى الخليج بجوار مركب بيضاء يخيل إلى الرائى لصغر حجمها أنها لعبة طفل، وكان إسمها: «عائشة».

— «هلموا إن كل شىء فى الجزيرة هادىء ونصف أهلها نيام.»

وقفز البحارة وعددهم ٣ ضباط و٤٦ جنديا إلى أرض الجزيرة وهم يحملون ٤ مدافع رشاشة. وأرسلت المحطة قبيل مرسى البحارة الالمان بدقائق، أشارة تلغرافية تقول: «باخرة أجنبية فى الميناء» ثم راحت عبارات طلب الانقاذ تدوى فى الفضاء. فليلتقطها من يريد التقاطها!.

هلاك الإمدن

وأسرع « فون موك » منذ أن وضع قدميه على الأرض بتنفيذ خطته . وهجم بحارته على محطة الأسلاك وأخذوا يدمرون ما فيها من أجهزة الارسال والاستقبال، ثم كسروا الخزانات الخشبية. واستولوا على ما بداخلها من أوراق هامة وسجلات الاشارات والشفرة السرية .

وأطاروا عامود اللاسلكى بلغم . ثم نزل البحارة إلى البحر ليقطعوا الاسلاك الممتدة فيه بعد جذبها إلى الأرض، ولكن الأسلاك لم تطاوعهم ، فعملوا فيها بالبلطات ولكن بدون جدوى . فضربوا فيها بالرصاص فالتوت ولم تتكسر . ولم يكن حظ الديناميت بأحسن وكاد اليأس يستولى عليهم لولا أن جالت بخلدهم فكرة نشر الأسلاك .

فنشروا سلكا منها وهو الموصل لاستراليا ولكن هناك سبعة أو ثمانية أسلاك أخرى لابد من تحطيمها ، لكنهم لم يعثروا على أى أثر لها .

أين هى؟ وإذا كان رجال اللاسلكى سلموا أنفسهم للأسر دون أى مقاومة فانهم لا يتكلمون وكان مدير المحطة ينظر إلى أعمال التخريب بثبات وصبر عجيبين، كما لم يجب على أى سؤال وجه اليه، مكتفياً بجذب الدخان من « غليونه »

ومرت ساعة . ثم نصف ساعة . فوجدوا سلكا آخر فهموا بنشره ، ولكنهم سمعوا صفارة الامدن تدوى فى الفضاء . ثم أخذت تشير عليهم بالأنوار : «اسرعوا» . فاسرعوا فى عملياتهم بقدر ما سمحت لهم الظروف وانتهوا من نشر الأسلاك .

ومرت عشرون دقيقة أخرى .

ثم أرسل الإمدن أمراً « مقتضباً » : « اجتمعوا »

فتركوا كل شىء فى هذه المرة واستقلوا الزوارق ليعودوا إلى مدمرتهم وعلى حين غرة ، أبصر « فون موك » بالإمدن وهو يغير اتجاهه بكل سرعة نحو الشمال ، ماذا حدث يا ترى أنه لم يشاهد دخانا فى الأفق ؟ إلى أين ذهب الامدن وماذا سيفعل ؟ ودوى فى الفضاء صوت انفجار فجأة اهتزت منه الزوارق الثلاثة التى لم يكن فى استطاعتها اللحاق بالأمدن . إن الامدن قد اشتبك فى عراك . وتتالت الطلقات ، وكان الرد عليها مخيفاً .

فبادر « فون موك » الذى لم يرتبك بالعودة إلى الجزيرة . ولنتركهم ساعة فى مكانهم هذا ، لنرى ماذا دها الأمدن . .

لقد شاهد « الأمدن » دخانا أبيض فى الأفق لم يتمكن « فون موك » ولا رجاله من رؤيته ، مقبلا نحو الجزيرة . فظنه « الأمدن » السفينة « بورسك » التابعة له والتى تأخرت عن موعدها .

ويقول « هوهنزولرن » « إن الدخان الذى رأيناه مقبلا علينا ظنناه « البورسك » فلم نشك فى جنسيته »

ولكن البحارة المختصين بالسهر على حراسة الامدن ، استطاعوا أن يروا بمنظارهم بعد أن اقترب الدخان قليلا أن ماظنوه « البورسك » إنما هى سفينة انجليزية واستدلوا على ذلك بطول صواريها . ولم تمر لحظة حتى رفعت السفينة أعلامها البريطانية .

لذلك نادى « الامدن » رجاله الذين أمرهم بتحطيم المحطات التلغرافية ليلحقوا به ، وظن «فون موك» أن السفينة القادمة إنما هو الطراد « النيوكاسل » Newcastle الذى التقط إشارات النجدة التى أرسلها رجال المحطة عندما هجم عليهم « فون موك »

لذلك لم يعبأ بهذا الطراد لأنه يعلم أنه لا يحتوى إلا على مدفعين قطر كل منها ١٥ ملليمتر وعشرة مدافع من قطر عشرة ، وسرعته لا تزيد على ٢٥ عقدة فى الساعة ولا بد للامدن من أن يحطمه

ويقول « هوهنزولرن » : وكنا نظن ، رغم شدة الطلقات التى ستتبادل بين مدمر تنا والسفينة الانجليزية ، أن الغلبة ستكون لنا ، وسوف نخرج من هذا القتال فائزين منتصرين ، لأن الأيام السالفة برهنت على قوة إحكام رجالنا للضربات

وشجاعتهم فى وجه العدو (١) .

ويقول « فارير » : وعمل « فون مولر » حسابه ليعطب الباخرة الانجليزية بضرب جدرانها ثم يطلق عليها طوربيداً فيهلكها (٢) .

ولوثوق « الامدن » من قوته واعتداده بنفسه ، بدأ باطلاق قنابله وهو على ٩٠٠٠ متر فردت عليه السفينة البريطانية بطلقة أخطأته بادىء الأمر . ولكن الماء الذى كانت ترفعه هذه القنابل يدل على أنها من قطر كبير ، أكبر من « النيوكاسل » . إذن ليست هذه السفينة النيوكاسل !

واقترب « فون مولر » من عدوه ليضربه ضربة محكمة .

وكانت ضربات « السدنى » — لأن هذه السفينة إنما كانت المدمرة « سدنى » — فى غاية الإحكام بعد ذلك ، رغم أنها كانت على مسافة ٧٠٠٠ متر ، ولا يخفى على القارىء أن هذه المدمرة كانت فى قوة الإمدن أو تفوقه .

وهبطت القنابل الواحدة تلو الأخرى على الأمدن ، فأطارت محطة اللاسلكى ونسفت أحد مدافعه وجاءت القنبلة الثالثة فدمرت مكبرات الصوت الخاصة برجال البطاريات ، مما اضطر « فون مولر » إلى إصدار أوامره بقوة

---

(١) انظر (الامدن) صفحة ١٥٧

(٢) انظر المواقع الحربية البحرية صفحة ١٢٤ .

صوته الجهوري وسط الانفجارات، فكانت الأوامر لا تصل إليهم على تمامها كما أن « الأمدن » في هذه المرة أيضا أخطأ غريمه بضرباته :

وبعد خمس عشرة دقيقة مرت بين أتون النيران المتبادلة، تهدمت صواري ومداخن الإمدن واكتسحت مدافعه وتطايرت أشلاء رجاله ومات أكثر الضباط وتعطب محرك الدفة، وقتل الرجال المكلفين بها ! لقد انهك « سدني » قوى « الإمدن » .

ويقول « فارير » : وربما ينجو الإمدن لو أحكم ضربة واحدة . فانطلق في سيره نحو المدمرة الاسترالية ليقترب منها فيصيبها الإصابة التي يتوق إليها [١] .

وفي بضع ثوان ، أرسل «سدني» قنبلة على ظهر الأمدن المصفح فجاءت فوق غرفة قذف الطوربيد، ويقول «هو هنزولرن» وعلى أثر هذه الضربة تصدعت القنطرة، مما جعل الماء يتدفق إليها والغاز يكتنفها .

فقام بعض البحارة بسد الفجوات بالأخشاب التي كانت لديهم [٢] .

لم يهتم الأمدن بهذه الكوارث المتلاحقة . وظل يقترب

---

(١) المواقع الحربية البحرية ١٢٥ .

(٢) الأمدن صفحة ١٥٩

حتى وصـــل إلى ٣٠٠٠ متر مؤملا فى الطوربيد الباقى لديه أن ينقذه .

وكان على « هوهنزولرن » نفسه أن يقذف هذا الطوربيد . فدخل هو ورجاله إلى الغرفة المصفحة وقد أصبحت فجوة من جهنم . وسمع دوى بعض القنابل وهى تسقط على الأمدن وجاء بعضها فوق رأسه فكادت الغازات المنبعثـــة من الانفجارات أن تقتلهم رغم ماوضعوه على أنوفهم من قطن واق (لم تكن الأقنعة الواقية اخترعت بعد) .

ويردف « هوهنزولرن » قائلا : « وكنا نسمع من وقت لآخر هذا النداء : (إلى الطوربيد) فنرد قائلين : نحن على استعداد ، فيأتى الأمر (استعدوا للدفاع يميناً)

فوضع فور الطوربيد فى أنبوبته . « وكنا جميعا فى منتهى السرور والانشراح بمجرد تفكيرنا فى إصابة العدو . ولكنه أمل ضائع [1] .

لقد تفادى « سدنى » الطوربيد بسرعة وأخذ يكيل الضربات للامدن دون رحمة ولا هوادة ، فلم يبق على طوربيداته . وهنا جاء الأمر إلى « هوهنزولرن » بالخروج من مكمنه قبل أن تغمره المياه فخرج ومن معه من الرجال

---

(١) الامدن صفحة ١٦٠ .

إلى سطح الطراد فهالهم ما رأوا من بشاعة المنظر ، فلم يصبح « الإمدن » إلا مجموعة من الحديد والدماء . ومع ذلك لم يسلم « الأمدن » نفسه بل أفهم « سدنى » بدوام طلقات مدافعه « بأنه لن يرضى بالأمر وسيقاوم إلى آخر رمق » كما يقول فاريز .

ولكن « الإمدن » وصل إلى حالة النزع الأخير . فليس فيه مدفع أو مدخنة أو صارية على حالتها ويقول « هو هنزولرن » : « وهنا ، صمم « فون مولر » على عدم التسليم ، وجنح إلى صخور المرجان المتناثرة فى جزيرة « كيلنج الشمالية » لينسفه هناك حتى لا يقع فى أيدى الأعداء من جهة ومن جهة أخرى ليبقى على حياة البحارة الذين سلموا من الموت حتى الآن ، لأنه إن لم يفعل ذلك فسيجعل رجاله يستهدفون لموت محقق (١) .

فسارع على قدر قوة ما تبقى له من الآت ، إلى الجزيرة ويقول « هو هنزولرن » : واستطاع فون مولر أن ينجو بأعجوبة من « السدنى » وهو يمخر عباب أليم بسرعة ١٩ عقدة فقط . فاتجه بمدمرته نحو الشمال حتى وصل إلى جزيرة كيلنج حيث تمكن من الاختفاء بين صخور المرجان .

---

(١) « الامدن » صفحة ١٧١ و ١٧٢ .

ويردف « هو هنزولرن » قائلا : وعندما وصل الإمدن إلى صخور المرجان . أوقفنا آلاته واطفأنا نيرانه التي ما فتئت تشتغل حتى ساعة وصولنا إلى هذه الجزيرة » .

وكما أن القلب المريض ينبض ببطء إلى أن يقف عن الحركة ، فإن آلات الإمدن أخذت تتضاءل حركتها إلى أن وقفت . وكانت الساعة ١٢,١٥ من يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١٤

لقد دامت معركة الإمدن العملاق، ساعة وأربعين دقيقة ستظل ماثلة في صفحة التاريخ .

obeikandl.com

حول الحطام

وفى الحادية والدقيقة خمسة وعشرين ، استعد «جلوسوب» Glossop قومندان « سدنى » لأن يقذف العلم الألمانى الذى ما زال يرفرف على ما تبقى من هيكل « الإمدن » ، ولكنه أبصر بدخان فى الأفق فظنه الطراد الألمانى « كونجزبرج » Konigsberg فأمر رجاله بالذهاب إليه لمقاتلته .

ويقول « فارير »(١) : ما أجمل هذه الضربة المزدوجة التى حظى بها « السدنى » ! لقد انطلقت المدمرة الأسترالية فى سرعة فائقة نحو السفينة الجديدة ، ولكن سرعان ما خاب أمل جلوسوب وهبط حماسه حيث كانت السفينة المقبلة « البورسك » حاملة الفحم والوقود « للامدن » وقد تأخرت عن موعدها . . وأطلقت « البورسك » مدافعها رغم يقينها بالهلاك رداً على « سدنى » وكان بحارتها فى نفس الوقت يستعدون لنسفها حتى لا تقع فى أيدى العدو . . وغاصت فى اليم وسارع « جلوسوب » بالتقاط البحارة الألمان ليعود إلى حطام الإمدن ليأمره بالتسليم .

ويقول «فارير» (٢) : ووقفت المدمرة «سدنى» على بعد ٤٠٠ متر من المدمرة الألمانية فشاهدت علمها الألمانى وهو

---

(١) و (٢) المعارك الحربية البحرية صفحة ١٢٦ و ١٢٧ .

يشرف من عل على هيكلها المحطم . وفكر القومندان الاسترالى هنيهة فى قذفها بقنابله ، ولكنه عدل عن ذلك . وأمر برفع أعلام الاتفاق الدولة التى قام نسيم الماء يداعبها .

« هل تقبلون التسليم » ؟

ولكن « فون مولر » ظل صامتاً .

وعاد جلوسوب يقول :

« هل تستسلمون ؟ »

ولكن سؤاله ظل دون جواب . وظل العلم الألمانى يرفرف عالياً .

ويقول « فارير » : واغتاظ « جلوسوب » وحنق على هذا العلم فأمر رجاله بضربه [١] .

وقامت حرائق جديدة على حطام « الإمدن » وقتل عدد من بحارته . ومرت الدقائق طويلة على « جلوسوب » ، وتساءل لماذا صمم رجال الأمدن على ترك علمهم يرفرف بينما انتهت مدمرتهم ، ولماذا يعرّض « فون مولر » رجاله للهلاك المحقق ؟. لعل « الأمدن » خالياً من رجاله . وحملق « جلوسوب » فى منظاره فرأى رجالا على الحطام يصمدون خلف الحدايد والأخشاب المتبقية من المدمرة السيئة الحظ [٢] .

---

(١) المعارك الحربية البحرية صفحة ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) « الامدن » صفحة ١٧٦ .

ودخل الغم قلب ذلك الاسترالى الخشن ، لا شك أنه كسب المعركة وقضى على « الإمدن » ذلك العملاق المخيف ، وضمن للحلفاء طرق الملاحة التجارية ، ولا شك أن الحكومة فى لندن ستسر لهذا النبأ . وسينال الفخار والتقدير من وطنه ومن الامبراطورية الانجليزية . وربما ينال لقب « سر » .

ولكن من المحقق أن يرتفع إلى رتبة أميرال . وسوف يسجل التاريخ اسم « المدمرة سدنى » مقرونا باسمه . ثم تلاشت فرحة النصر عنه فجأة . أنه يعلم حسن حظه فى القضاء على « الإمدن » الجبار الذى نشر الرعب حينا من الزمن ، ويعلم كيف دافع « الإمدن » عن نفسه دفاع الأبطال البواسل ، إذن فيستحق « الإمدن » كل احترام . . . ودخل الاعجاب برجال هذه المدمرة الألمانية ، قلب « جلوسوب » بصفته بحارا قبل كل شىء . ومن صفة البحار أن يكون كريم الخلق . . ولكن طالما أن هذا العلم الألمانى يهتز فـــلا بد لجلوسوب أن يضربه .

وأمر باطلاق قذيفة أخرى .

ولما كان الإمدن قد احترقت منه الاشارات الدولية المتفق عليها بحرياً ، فأمر « فون مولر » بارسال برقية « مورس » يقول فيها : « أنا لا أفهم . ليست عندى شفرة « الاشارات » .

ويلوح أن « جلوسوب » لم يفهم معنى هذه البرقية حيث

يقول «هوهنزولرن» [١] : «لا ادرى ماذا فهم الانجليز من برقيتنا . ولكن كم كان اندهاشنا كبيراً عندما واصل «سلدنى» ضربنا بلا هوادة ، وصاح فينا «فون موار» على الفور : «ليبحث بنفسه من يجيد العوم منكم»

فقفز إلى الماء بعض البحارة وحاولوا الوصول إلى الجزيرة. فمنهم من وصل اليها ومنهم من قضى نحبه تحت الأمواج المتلاطمة .

ثم هدأ غيظ «جلوسوب» عندما رأى العلم الأبيض يرتفع من «الإمدن» المحطمة . وأمر بوقف النار .

ويشرح لنا هوهنزولرن [٢] هذه المأساة قائلا : إن قانون التسليم يحتم وجود أسلحة صالحة للاستعمال معنا ولكن مدمرتنا لم تكن إلا حطاما ليس فيها سلاح واحد صالح للاستعمال . فلم تكن المسألة إذن مسألة تسليم . ولقد أنزلنا العلم لأن «الإمدن» ، وقد أصبح حطاما، لم يكن من حقه أن يتركه مرفوعا ، كما أن سفك الدماء بعد الحالة التى وصلنا اليها ، كان غير ذى معنى . ومع كل فقد نسينا العلم مرفوعا لأننا عندما اختفينا بين صخور المرجان ، كان لدينا من الأعمال ما هو أهم من تنزيل العلم . »

---

(١) «الامدن» صفحة ١٧٦ .

(٢) إن مغامرات البحارة الذين نزلوا من الامدن وصعدوا الى جزيرة «دبركسيون» تستحق أن يفرد لها باب خاص (المؤلفة)

ولم يخبرنا «هوهنزولرن» عن هذه الأعمال الهامة وطبيعتها، ولكننا نفهم منها أنهم كانوا مشغولين فى حرق الشفرة الخاصة بالاشارات، وسجلات المدمرة والخطط الحربية والأوراق السرية، أى اتلاف كل ما يمكن أن يستفيد به العدو.

ويردف «هوهنزولرن» قائلا: وبعد أن أقلعت المدمرة الاسترالية عن ضربنا، أرسل قومندانها أحد رجالنا عن وقعوا فى الأسر عند غرق الباخرة «بورسك» وهو الملازم «فيكتشر» وبصحبته بعض البحارة. ثم أخذ «السدنى» طريقه نحو الجزيرة، فظننا أنه يريد أن يحمل معه رجال «فون موك» الذين عاثوا الفساد فى محطات اللاسلكى. كما ظننا أنه لا بد أن يأتى الينا فى صباح اليوم الثانى».

ويخبرنا «فارير» بأن الغرض من ذهاب «سدنى» إلى جزيرة «دير كسيون» هو الاطمئنان على محطات البرق فيها».

ووصلت المدمرة الاسترالية عند الجزيرة فى الليل. وعندما تنفس الصبح، وجد «جلوسوب» محطة البرق قد تحطمت كما لاحظ تكسير الأسلاك الممتدة فى البحر إلا سلكا يمكن استعماله فى الاشارات البرقية نوعا ما. ولكنه لم يجد أثرا لبحار المانى فى الجزيرة. والسبب يرجع إلى أنهم استقلوا زفاصا كان فى الميناء وانطلقوا به إلى عرض البحر..

وفى هذه الأثناء ، كانت تجرى فوق « الإمدن » عمليات القاء المرقى فى البحر بعد وضع الأثقال عليهم ، وتضميد جراح من هم على قيد الحياة ، بما تركته الحرائق من قطع الملابات والمفارش والقطن (المناشف) ، وارواء غلة عطش الجرحى بما يوجد من ماء فى المواسير التى لم تأت عليها شظايا القنابل ، فكانت الآلام البحارة كبيرة .

ويقول « هوهنزولرن » : « وكنت أمشى على بطئ بين حطام مقعد السفينة وهو محل إقامة ربانها لأبحث عن صديق « لفتزوف » فوجدت جثته مهشمة بجوار أحد الصوارى المنسوفة ، فتعرفت عليه بشكل رأسه ويديه وما على كم سترته من علامات تدل على أنه ملازم .

ويقول « هوهنزولرن » عندما شاهد أشلاء صديقه : « لقد حزّ الألم فى قلبى لوفاة صديق وزميلى فى الحرب » .

وأقبل الليل بظلمته ليزيد من وطأة الموت الذى تفشى على حطام « الامدن » . وكان « فون مولر » يحاول جاهدا أن يخفف من ويلات وآلام بحارته بكلماته التشجيعية .

وأخيراً عاد « سدنى » فى يوم ١٠ نوفمبر من جزيرة « ديركسيون » ، واقترب محترساً بقدر الامكان من حطام المدمرة الألمانية الراسية بين صخور المرجان ، ثم أرسل رسولا من قبله مع زوارق الانقاذ ، وظل رجال المدمرة الاسترالية

ينقلون الجرحى من « الامدن » من الظهر إلى الساعة الخامسة عصرا ، وكانت عملية شاقة بلا ريب ، لأن الأمواج كانت تتلاطم بشدة فى هذه المنطقة الصخرية . وابتدأت عملية الانقاذ بنقل الجرحى الذين هم فى حالة خطره ثم ذوى الجراحات الخفيفة . ثم الذين لم يصابوا بسوء ثم الضباط .

وانتقل ركب « الامدن » إلى « سدنى » ماعدا « فون مولر » الذى ظل واقفاً على « الامدن » بخيلائه المعهود . كيف يتسنى له ترك مدمرته وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من جسده بل من قلبه وروحه ؟ إن « فون مولر » أحب مدمرته حباً جماً فاق حب الوالد لفلذة كبده . وشعر « فون مولر » بثقل فوق قلبه . إنه ألم الوداع الأليم الذى لا يشعر به إلا أبناء البحار الذين اتخذوا من البحر أباً ومن المدمرة أماً ومن البحارة أولاداً وإخواناً . وقف « فون مولر » فوق حطام أعز شىء لديه فى الدنيا بعد نفسه ، فوق « الامدن » صامتاً لا يتحرك ولا يتكلم ، يرسل نظرة على شريكته فى الحياة ، فينقلب اليه البصر خاسئاً وهو حسير .

ولم يستطع « جلوسوب » إلا أن يمجد هذا البطل الألمانى الذى كان اسمه يرعب السفن ويهز القلوب . فأرسل اليه زورقه الخاص . واشتد الألم على « فون مولر » عند رؤية هذا الزورق الذى يحمل فى ظاهره النجاة وفى باطنه النفى والأسر ويقول « فارير » وعند ما وصل إلى « سدنى » استقبل

استقبالا يليق ببطولته، فكان استقبالا رائعاً لا يقام إلا لقائد عاد منتصراً من المعمعة . »

ثم حول « السدنى » وجهته إلى « كولومبو » Colombo ومر بالمنطقة التى فقد فيها « الإمدن » سبعة من ضباطه ومائة وعشرة من بحارته ، ثم قابلته سفينة فى طريقه فحياها .

وكان « جلوسوب » كثير الاهتمام « بفون مولر » فأجلسه فى غرفته الخاصة . وتبادل بحارة « السدنى » مع بحارة « الامدن » المرحة والأخوة ، فقاموا يقاسمونهم السجائر والشوكولاته والملابس والكتب . وارتدى البحارة الألمان الملابس البحرية الانجليزية وقاموا يحتسون البيرة ، تلك البيرة التى حرموا منها الانجليز مدة من الزمن .

وأما الجرحى فكانوا فى غرفة الاسعاف ، وكان الانجليز يسهرون عليهم ويهتمون بالعناية بهم إلى حد يوجب الاشادة بهم مدى الدهر .

وعندما وصلوا إلى « كولومبو » جاءت المدمرة الانجليزية « همبشاير » Hampshire لنقل « فون مولر » وبحارته إلى جزيرة « مالطة » حيث أودعوا الأسر فى يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى قلعة « سان سلفاتور » S. Salvator ثم فى قشلاق « فردالا » Verdala حيث لقوا من الجيش الانجليزى بعض معاملات سيئة ، وشتان ما بين رجال أخلدوا إلى الأرض وبين من طهرت المياه سجاياهم وأخلاقهم .

وبالرغم من أن النفي والأسر كانا صعبين على نفوس أولئك الأبطال الألمان ، فان بارقة من السرور والارتياح دخلت على نفوسهم عنـــد ما كانوا يقرءون فى الصحف الإنجليزية الاشادة بعمليات ومغامرات الإمدن البحرية .

ولقد قالت جريدة «الديلى كرونكل» Daily chronicle إن قومندان « الإمدن » لم يظهر مهارته وشجاعته كضابط بحار ذى كفاءة ممتازة وبسالة تستحق التنويه فحسب ، بل أنه أظهر من كرم الخلق مع رجال السفن التى أسرها ما يؤثر فيذكر . ولقد وجب علينا الاعتراف بذلك »

وجاء فى «الديلى نيوز» : « أن الشعب الانجليزى لشديد الأسف على شىء واحد إلا وهو فقدان « الامدن » عددا كبيرا من رجاله . . إن اسم «الامدن» سيظل كاسم «الاباما» Alabama حيا فى تاريخ البحرية »

وقالت «التايمس» Times : وإذا كان قتال جميع الألمان يشابه قتال قومندان « الامدن » لما أصبح الشعب الألمانى مكروها من العالم بأسره . . »

وإن التايمس لعلى حق .

ظل ركب « الإمدن » فى جزيرة مالطة إلى عام ١٩١٩ ويقول « هو هنروارن » فى نهاية قصته ما يأتى :

«لقد دقت ساعة الخلاص لى يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، ولا أستطيع وصف ما غمر قلبى من الغبطة والسرور فى تلك اللحظة.

إننى اصبحت حراً فتركت مالطة فى مساء نفس اليوم بصحبة الكونت « برنارد فون ماتوسكا » Bernard Von Matuska على باخرة إيطالية أرسلتنا إلى « سيراكوزا » Syracuse يوم ١٢ نوفمبر . ثم أكملنا سفرنا بالقطار عن طريق « مسينا - نابولى » Messine-Naples حتى وصلنا إلى روما . وتركنا هذه المدينة مساء يوم ١٤ منه إلى « ميلانو » Milan ومنها إلى « زيوريخ » Zurich حيث استرحنا فيها ٣ ساعة .. وفى عصر يوم ١٧ نوفمبر وصلنا إلى « كونستانس » Constance حيث كان والدى فى انتظارى . وفى الساعة التاسعة من يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٩ كنت ولله الحمد فى « سجمارنجن » Sigmaringen مسقط رأسى العزيز .

لقد قضيت خمس سنوات من أحسن سنى شبابى فى المعتقل أقاسى بؤس الأسر . . خمس سنوات عرفت فيها الخماسة والرفعة كما ذقت فيها مرارة العيش . لقد حاربت بشرف وقمت بواجبى نحو وطنى بقلب ملؤه الحب والوفاء لبلدى العزيز . ولقد شربت من كأس الهموم والآلام، وما ضاع منى من آمال، ضاع إلى الأبد. ومع كل، فانى احتفظ فى قلبى بذكرى عزيزة تخفف من أوجاعى ألا وهى خدمتى فى المدمرة «إمدن»

ولنعد إلى الملازم «فون موك» رئيس البعثة التى اختصها «الامـــدن» بتخريب ونسف أجهزة البرق فى جزيرة «ديركسيون». إنه لم يستطع اللحاق بالمدمرة. فآثر العودة إلى الجزيرة مع رجاله الستة والأربعين..

وما أن وصل «فون موك» إلى الجزيرة حتى تسلق سطح أحد البيوت، وأخذ يتابع بمنظاره المعركة التى كانت تدور بين «الامدن» والمدمرة الاسترالية «سدنى».

واستيقن عندما شاهد شدة المعمعة بين المدمرتين، أن الغلبة لن تكون فى هذه المرة لمدمرته التى بثت الرعب حينا فى البحار. فإن القنابل كانت تتساقط محكمة على «الامدن»، وكان قلبه يتمشى فى صدره من شدة الغضب والضجر والغم أثناء متابعته هذه المعركة المخيفة بمنظاره. ومرت الدقائق سراعا. وغابت المدمرتان عن ناظره بين طلقات المدافع ونيران الطوربيد، متجهتين نحو الشمال.

رفع «فون موك» المنظار عن عينيه، وهو لا يأمل اطلاقاً فى نجاة «الامدن». وعاد يفكر فى موقفه الدقيق فوق الجزيرة النائية هو ورجاله! لا بد له أن يقوم بأى عمل ينقذه من المأزق الذى أصبح فيه.

لم تنسه هذه المواقف التى تشيب لها الرؤوس، رفع

العلم الألمانى فوق الجزيرة . نعم سيناضل العدو بكل ما أوتى من جرأة وشجاعة ، حتى ينقذ شرفه العسكرى . ثم ماذا ؟

لا شك أن قنابل « السدنى » ستنسفهم جميعها بعد أن تكون قد أتت على « الامدن » ، ثم هناك الاسر بعد نفاذ الذخيرة ، ثم السجن فى « سنغافورة » أو فى أى مكان آخر إلى أن تضع الحرب أوزارها . إنه مستقبل لا يحسد عليه إنسان . !!

واستاء « فون موك » من وجوده فى هذا « الحيص بيص » وأبى أن يكون فريسة سهلة الاقتناص . ففكر فى الهرب ، الهرب قبل مجيء « السدنى » أو أى باخرة أخرى من بواخر الحلفاء ، يكون سكوت هذه المحطة الهامة قد دفعها إلى معرفة ما يدور فى جزيرة « ديركسيون » وصرخ « فون موك » فى رجاله يجمعهم . ثم ذهب بهم إلى الميناء ، حيث توجد سفينة صغيرة كان قد لاحظ وقوفها فى الفجر . عندما غزا الجزيرة . كانت هذه السفينة تحمل اسم « عائشة » وقد كتب بالمداد الأسود على جدارها الأبيض .

ولكن « عائشة » كانت مهملة منذ مدة طويلة حتى أصاب العطن أخشابها من طول مكثها فى الماء دون حراك . كانت هذه السفينة تستعمل فيما مضى لنقل ثمار جوز الهند إلى الجزيرة ولكن أحداً لم يحاول ركوبها بعد ركودها الطويل . فهى لن تتحمل أى اصابة ، ولكن الضابط الألمانى صمم على ركوبها

قائلا : أفضل أن يكون البحر لى رمساً من أن استسلم للعدو (١).

واستيقن أهل الجزيرة من كلام « فون موك » أنه حقيقة ابن بحر خلق ليأمر وليطاع ، فقاموا من تلقاء أنفسهم — خشية بأسه — لاحضار كل ما ظنوه أنه فى حاجة اليه لرحلته الغامضة . فجاؤه بالماء العذب وبالأكل على مشهد من الإنجليز المقيمين فى الجزيرة الذين كانوا يهزون اكتافهم قائلين : « إنهم مجانين ، إنهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة !

وقام رجال « فون موك » ، وثلاثة أرباعهم لم يضعوا أقدامهم فى سفينة شراعية ، بالإصلاحات اللازمة كما لو كانوا نوتيين حاذقين لمهنتهم . وكان جهد البحار منهم يعادل جهد أربعة . فرتبوا أدوات المركب ، وأصلحوا البكرات ، ونشروا الأشرعه ، وشدوا الحبال ، بينما كان دوى المدافع يسمع من بعيد : — أسرعوا أسرعوا ! وأسرع البحارة بتجهيز كل شىء ، لأن « السدنى » إذا وصل إلى الجزيرة قبل أن يغادروها ، فانه سيقضى عليهم لا محالة (٢) .

واختفت الشمس ، وقام النسيم العليل ، وكان كل شىء مجهزاً على السفينة الشراعية ، وعندما عسعس الليل ، سحب الرفاص الذى كان استعمله «فون موك» للسطو على الجزيرة ، السفينة «عائشة» مع زورقيها ، وصعد «فون موك» إلى أعلى

---

(١) المواقع الحربية البحرية ص ١٣٢ .

(٢) انظر ركب « عائشة » تأليف « فون موك » .

الصارى ليدل الركب على الطريق بين صخور المرجان الخطرة . ولكى يخدع الانجليز الذين كانوا يرمقون حركاته فى اندهاش ظاهر ، اتجه كمن يريد السواحل الأفريقية . . . حتى إذا ما جاءت «السدنى» تستخبر عنهم ، أخبروها بوجهته الخادعة ، فلن تجد له أثراً مهما طال بحثها عنه .

واجتازت عائشة الميناء وئيداً حسب أمر «فون موك» ثم انطلقت إلى عرض البحر ميممة كما قلنا ، نحو السواحل الأفريقية فى الظاهر .. حتى إذا غاب «فون موك» عن رؤية الجزيرة ، ترك الرفاص وحاله ، ثم حول اتجاهه نحو الشمال الغربى ، وقامت «عائشة» يداعبها النسيم ، فسلكت طريقها فى اليم ، كما لو كانت فى أيام صباها . ولكن أمامها ٨٠٠ ميل لتصل إلى أول ساحل . فهل فى استطاعة هذه السفينة العجوز أن تتحمل هذا السفر الشاق ، وسط الأمواج المتلاطمة ، ولا يزيد وزنها على ١٠٠ طن ، وجدرانها تتماسك بمعجزة ستسير فى البحر ليالى وأيام طوال .. وكانت أخشاب عائشة تئن تحت ثقل ركابها ، فهل تقوى يا ترى على احتمال الأعاصير؟ الأعاصير التى لا تعرف الرحمة ؟

ولكن «فون موك» كان يسير على بركة الله ، كان «فون موك» ذلك البحار الجرىء الذكى المفكر ، رقيق الشعور ، قوى العقيدة ، فأفهم رجاله الذين بدأ الخوف يساورهم من

المركب ، بأن « عائشة » هو اسم زوج الرسول الكريم ، وأنه وضع نفسه تحت رعايتها ، فستنقذهم أجمعين[١] .

وابتعدت المركب . وهى أشبه فى حجمها الضئيل بالنسبة للكون ، بالعصفور فى أجواء الفضاء . ولكنها تحمل الرجل الثانى الذى كانت تعتمد عليه « الإمدن » وبصحبته ٤٦ بحاراً

اندفع الركب تحت رعاية « عائشة » زوج رسول الاسلام وأنها سترحل بهم إلى بلاد الإسلام . .[٢] .

وبدأ « فون موك » ينظم نفسه على ظهر « عائشة » التى تحولت إلى سفينة حربية ، وكان عليه أن يأوى ٣ ضباط و ٤٦ رجلا فى المكان الذى كان مخصصا لضابط و ٦ بحارة من أهل « مالايزيا » . إنها لمعضلة !

وغص المخزن الوحيـــد فى هذه السفينة بالبحارة ، مما ضايق الصراصير التى كانت مطمئنة فيه منذ زمن بعيد . فلم يذق البحـارة طعم النوم ، فكانوا فى هـذا الحيز الضيق عبارة عن اكوام من الأجساد . وكان اهتزاز السفينة يقذف بهم على بعض ، وأراد بعضهم أن يصنع من الحبال المتآكلة وخرق التيل ، اسرة متأرجحة ، فكانوا عند ما يلطم الموج أركان السفينة ، يقعون على إخوانهم ، مما أرق الجميع .

أما الضباط فكانت لهم حجرتان ، غير أنهم أعـــدوا

---

(١) ركب عائشة « لفون موك » .

(٢) المواقع الحربية والبحرية .

إحداها لحفظ المؤن ، وحتى لا تصل الصراصير المعلونة إليها سدوا جميع الشقوق التى كانت فيها ، ولكن هذه الدويبات توصلت إليها رغم هذه الحيطة من شقوق أخرى لم يروها .

وحرموا من ألوان الطعام ، فليس عندهم إلا موقد واحد صالح للاستعمال نوعا ما . فكانوا يضعون على ظهر المركب أجزاء من الصاج ، ثم يوقدون عليها مستعينين فى طبخهم بماء البحر المالح لقلة الماء العذب ، لأنهم وجدوا صفيحتين من الأربعة التى ملؤها ماء قبيل مغادرتهم جزيرة «دير كسيون» ، فقد أكلهما الصدأ وأسن ماؤهما ، ومع ذلك فإنهم اخذوا فى حكهما ، حتى رفعوا عنهما الصدأ ، على أمل انتظار ماء الأمطار لملئهما ، واتفق الركب على أن يشرب كل منهم نصف قدح ماء فى اليوم الواحد ، إلى أن تهطل الأمطار .

ودفع حب الاستطلاع البحارة إلى التفتيش والتنقيب فى أركان المركب ، فعثروا على جهاز لقياس الأبعاد ، وعلى ساعات ، ومؤلف فى التعليمات البحرية الخاصة بالمحيط الهندى يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٤٥ ، وخريطة كبيرة للسير فى هذا المحيط ، إلا أنها كانت خالية من البيانات . ثم عثروا أيضا على دليل فى علم الفلك للبحارة طبع فى سنة ١٩١٢ . فاستنتجوا على ضوء هذا التاريخ أن « عائشة » كانت صالحة للملاحة حتى سنتين ، يا له من حظ ، لقد أصبح فى مقدورهم بفضل هـــذه الأجهزة ، وتلك المؤلفات ، أن يتحسسوا

الطريق . . إنهم على كل حال أسعد حظاً من « خريستوف كولومبوس » الذى لم يكن معه مثل هذه الأدوات .

ورمى « فون موك » برأسه إلى الوراء ، وضحك بملء شدقيه تلك الضحكة التى لا يعرفها إلا أولاد البحار المتفائلين .

ليس هذا كل ما عثروا عليه . مهلاً إنهم عثروا فى ركن مظلم من أركان المركب على شىء يشبه الناى ، فأصلحوه ، ونفخوا فيه ، فأحدث صوتاً ، فهتفوا قائلين : ما أحلى الحياة هنا على نغمة الموسيقى ، واستبشرت القلوب وأخذ أحدهم يشنف آذان أخوانه بنغمة أغنية شعبية المانية .

إنه لعجب حقاً . ستة وأربعون رجلا تائهون فى البحر الخضم ، يرفعون أصواتهم بالغناء . وليس لهم أديم إلا من الماء ، ولا غطاء إلا السماء .

* * *

إلى « بادانج » على بركة الله

واتجه فون موك ، نحو الشمال .

وقامت الأمواج تضرب السفينة من خلفها ، مما جعل الزورقين الصغيرين الموثوقين وراءها يرتطمان بها ، ويعوقان سيرها ، فأمر « فون موك » بقطع الحبلين فانفصل الزورقان .

ثم جاءت العواصف بدورها وهطلت الأمطار . وسارع البحارة إلى ملء جميع ما عندهم من أوان ، من هذه المياه السماوية ، وأخذ بعضهم فى حلق لحيته وشاربه ، وفضـــل

البعض الآخر تركهما ، ولكنهم اتفقوا جميعا على قص شعر رءوسهم . فكان كل واحد منهم يقوم بحلق رأس زميله . وكان منظرهم مضحكا حقا . فقال لهم قائدهم مازحاً : « من أراد منكم الأناقة فعليه أن يستعمل ماء البحر بدل ماء الكولونيا » .

وبالرغم من مزاح القائد الألماني على هذه السفينة ، فإن الطاعة كانت عمياء . فكان كل بحار منهم يقوم بالعمل المنوط به بكل دقة ، من تنظيف ظهر المركب والمدافع الرشاشة والبنادق والمسدسات . كما كانوا يقومون بالتمرينات الرياضية على أنواعها ، مما قوى فيهم العزيمة وزاد في روحهم المعنوية

وكلما اقتربوا من خط الأستواء . كلما قامت الزوابع الهوجاء . وكانت الأشرعة لا تتحملها . فكانت تتمزق عند كل لفحة منها ، وكان البحارة يرقعونها بالخرق الموجودة أصلا في السفينة ، ثم اضطروا إلى استعمال ملابسهم المصنوعة من التيل لترقيعها . . . فاذا ما استمر الحال على هذا المنوال لما وجد البحارة ما يسترون به أجسامهم فيما بعد .

ويقول « فارير » : « وتطور الركب الألماني شيئا فشيئا حتى أصبح البحارة عبارة عن قراصنة قد طالت لحاهم بقدر ما تعرت أجسامهم » .

ولكن الأمواج والأعاصير لم ترأف بضعف « عائشة » فكانت تهاجمها من كل جانب حتى كادت تفصل منها بعض الأجزاء . . . ودخلت المياه إلى قاعها ، ولسوء حظهم كان

جلد « الطامية » الماصة تالفاً ، فقـــد أكلته الصراصير ، وارتفعت المياه ، فاستعاضوا بالخرق المبللة بالزيت بدل الجلد المتآكل ، وقاموا ينزحون المياه ، وعند ما بزغت الشمس الحارة فى هذه المنطقة ، أذابت حرارتها القار الذى قلفط به البحارة الشقوق حتى لا تدخل منها المياه ، وقل الزاد ، فقللوا كميات طعامهم .

وجاء يوم ١٧ نوفمبر وهم على هذه الحالة اليائسة .

لقد اجتازت « عائشة » الدرجة الثامنة منذ أيام ، وإذا أخذنا بأقوال الفلكيين ، فلا بد أن يهب النسيم العليل من الشمال الغربى ، ولكن النسيم لم يظهر إلا بعد ستة أيام ، وجاء يوم ٢٣ ، فقامت « عائشة » تتأرجح فوق أديم اليم ، مما أثلج قلب « فون مولك » .

كان « فون مولك » يريد الوصول إلى « بادانج » (١) Padiang الواقعة على الساحل الجنوبى الغربى من « سوماطرة » بأى ثمن ، ذلك لأمرين : أولهما لأن أوراق السفينة تدل على أنها غير معروفة إطلاقاً فى هذه الجهات ، وثانيهما لوثوقه بوجود قنصل فى هذه المستعمرة الهولندية وبعض البواخر الألمانية يمكنهم الصعود على ظهر أحداها هو ورجاله .

ولكن ربما قابل قبل وصوله إلى « بادانج » حاملة

(١) كان عدد سكانها وقتئذ ٣٠٫٠٠٠ نسمة وهم الآن ٤٧٫٠٠٠ . وكانت مركز حكومة الساحل الغربى لسوماطرة . وتقوم فيهـا تجارة البن والكافور وتجارة الذهب بكثرة شديدة (المؤلفة) .

طوربيد انجليزية أو فرنسية ، وفكر « فون موك » مليا فى هذا ، ثم حتم إن شاءت الأقدار أن تفاجئه بما لا يحب ، أن يترك « الحاملة » تقترب من سفينته ثم يقفز هو ورجاله الستة والأربعون على ظهرها دفعة واحدة بأسلحتهم (١) !! .

إنها فكرة جنونية تدل على منتهى البسالة ، لم نسمع بمثلها فى قصص « سركوف » و « بوفى » (٢) ، ويقول « فاريز » : « أن هؤلاء الرجال أحسوا بتولد روح القراصنة القدامى فيهم ، إنهم يريدون النزال « والبلطة » فى أيديهم والسكين بين أسنانهم » .

وفى يوم ٢٥ نوفمبر ، اجتازت « عائشة » القناة الكائنة بين جزيرة « سيبريت » وجزيرة « سيبارة » . لم يبق الركب إلا على بعد ثلاثة أيام من « بادانج » ، وترامت لهم فى الناحية الشرقية من الأفق ، قمم جبال سومطرة الشاهقة ، وكان رجال « عائشة » يسيرون بها وأسلحتهم تحت أيديهم ، ولقد أحدثوا أربعة ثقوب فى جدارها لتكون طاقات لأفواه المدافع الرشاشة ، وهى السلاح القوى الوحيد لدى هؤلاء البحارة الألمان ، وكان يخيل للناظر إليهم أنهم صبية يقومون « بلعبة القراصنة » . ولكن إذا كان هذا الوصف ينطبق عليهم ، فإنهم لم يكونوا مازحين فى تسلحهم . بل كانوا يلعبون مع الموت الزؤام .

— أنظروا ! وجاءتهم الفرصة المنشودة ، لمحوا طرادا ،

---

(١) انظر كتاب ركب عائشة لمؤلفه « فون موك » .

(٢) Surcouf, Bouvet

فقفز كل واحد منهم إلى سلاحه يقف به وقفة الاستعداد .

ولكن الطراد ظل واقفا بعيدا ، وخيل إليهم أنه لا يتحرك وصعد أحد الضباط إلى الصارى وسعه المنظار ليقرأ اسم هذا الطراد ، ضاربا صفحا بالخطر المحدق بعينه وبمنظاره بل بنفسه . واستطاع معرفة اسمه . إنه طراد هولندى يدعى « لانكس » Lynx .

وسكت النسيم . وتقدمت « عائشة » ببطء . وسكت الطراد ثابتا فى موضعه طيلة يوم ٢٧ نوفمبر بهيكله الرمادى وكأنه يتأمل سفينة « فون موك » البيضاء . لا شك أن الطراد الهولندى كان يراقب هذه السفينة المتداعية . ثم حاول فى الليل الاقتراب منها عن كثب . وهنا تناول « فون موك » مصباح الاشارات ليقول بتلك العظمة التى اشتهر بها الألمان :

« ابتعد عنا . إنك تشل حركة سيرنا » .

واندهش قومندان « اللانكس » من هذه الجرأة ولكنه لم يتزحزح . وتضايق « فون موك » . وأراد أن يطمئن هذا القومندان على جنسية « عائشة » فرفع فى صباح يوم ٢٨ نوفمبر الراية الألمانية فى أعلى صارى السفينة . وأرسل إليه أشارات فحواها : « أنا سفينة حربية ملك صاحب الجلالة القيصر ، وسأرسو فى ميناء « بادانج » وسأظل فيها ٢٤ ساعة بما لى فى ذلك من حق » .

ثم أراد أن يستفسر عن « الامدن » . فأرسل اشارة

أخرى إلى « اللانكس » يقول فيها : « هل لديك أخبار عن « الامدن » ؟ ! » .

وفاه بهذا الرد المختصر : « نسف الامدن » . . .

واقتربت « عائشة » من « بادانج » . وقابلت فى سيرها الفلائك المالزية بأشرعتها المفصلية . وكان سراب البحر يجعلها فى عين الرائى أشبه بوطواط هائل الجثة ينشر جناحيه فى الفضاء .

ثم ظهرت مدينة « بادانج » تحيط بها قمم البراكين المتناثر عليها النبت الأخضر . ولاحت دورها بين الأشجار الوارفة كباقات الزهور .

واستنشق بحارة « عائشة » ريح اليابسة وفيه أريج أشجار ونبت الغابات ، فملؤا به صدورهم ، وكانت الأمطار تهطل بين الآونة والأخرى فتغيب تحت ثقلها تلك المناظر الخلابة

ولكن لم تنفتح أسارير « فون موك » لهذا الجمال الفتان ، ان القلق يساوره ، ويلوح أن أفكاره شاردة ، إنه يفكر فى المصاعب التى سيلاقيها عندما يدخل الميناء . إنه يعلم جيداً أن السلطات الهولندية لا تعرف المزاح فى الرسميات ولا سيما فى قانون الحياد ، وحالة « عائشة » ليست عادية ! . وخشى أن يجد الهولنديون بنداً من بنود هذا القانون يعرقل سير « عائشة » ، لأنهم إن وجدوه فلن يتورعوا عن مضايقته به ، إنها خاتمة مقلقة ! . وأخذت « فون موك » نخوة البسالة التى نشأ عليها ، وراح يحدث نفسه بأن اللذة لا يفوز بها إلا الجسور .

وسيكون « فون موك » جسوراً ! . . .

مغامرات سياسية

إقترب الزورق من « عائشة » وراح يدور حولها .

ما أغرب هـــذه الباخرة ؟ ! . وصعد البحار إلى ظهر السفينة بدون أى حماس . ولما رأى وجوه هؤلاء القراصنة طلب فورا ثمن ترحيلهم .

ولكن خزانة « عائشة » كان لا يوجد فيها غير شلن وبنسين . فما كان من « فون موك » إلا أن بادره بقوله إن قنصل ألمانيا سيدفع كل شىء .

— « قنصل ألمانيا ؟ ! » .

— نعم « دون شك . أنظر إلى أعلى ! » .

ورفع البحار بصره فشاهد فى أعلى الصارى الراية الألمانية الحربية . ماذا يريد بعد ذلك ؟ .

واتخذ البحارة الألمان وقفة أخرى ، فاصطفوا وفى أيديهم البنادق . . . وقبل البحار هذا العرض خوفا من أولئك القراصنة . وقال : لا مانع ، ليدفع عنكم قنصل ألمانيا .

واجتازت « عائشة » خليج « بادانج » على هذه الحالة ودخلت الميناء فى الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٤ .

وأبرق « اللانكس » بوجود هذه السفينة الحربية العجيبة

ما حضر أهل « باداخ » إلى الخروج إلى رؤيتها . وعامت بذلك البواخر الألمانية التجارية الأربعة الراسيات فى الميناء .

واقتربت عائشة أثناء دخولها الميناء من السفينة الألمانية « راينلاند »⁽¹⁾ وصاح « فون موك » : « أرسلوا إلينا أقواتاً بسرعة فنحن فى أشد الحاجة إليها ! » ورددت الباخرة « راينلند » هذا النداء إلى البواخر الثلاثة الأخرى وهى : « كلايست » و « نينوا » و « شوزينج »⁽²⁾ فتحمست لتلبية نداء « فون موك » وبعد ما رست « عائشة » سارعت إليها الزوارق الألمانية تحمل إليها القوت والملابس والأغطية والتبغ .

ولم يكد يطمئن « فون موك » على وجود ما هو فى حاجة إليه ، حتى جاءه الأمر التالى من السلطات الهولندية :

« لا تنزل الأرض إطلاقاً » .

ولا شك أن « فون موك » كان ينتظر مثل هذه المضايقات . وتقبل البحارة الألمان هذا الأمر بشىء من المضض ، رغم أن هذا المنع إنما اتخذته السلطات الهولندية حيطة منها على الحياد .

لقد كان هؤلاء المساكين الذين جابوا أخطار البحار فى أشد الحاجة إلى النزول إلى الأرض للتنزه على الأقل ، وكانت مدينة « باداخ » تغريهم بطرقاتها الغاصة بالناس وبدورها التى تحيط بها الأشجار الوارفة والنخيل الباسق . وكم تمنوا الحياة ولو وقتاً قصيراً فى هذه الجنة الزاهرة التى حرمت عليهم ،

---

(١) Rheinland

(٢) Kleist, Niniva, Choising

واهتزت قلوبهم طرباً بمشاهدتها من بعيد .

ثم توالت على « فون موك » المضايقات السياسية . ولم تكن السلطات الهولندية تضمر العداء للألمان ولكنها كانت ضيقة العطن بقدر ما هي بعيدة عن حب التفاهم . وقام قنصل ألمانيا بكل ما في وسعه ، وتخاطبت محطة البرق في بادانج مع باتافيا Batavia وردت « باتافيا » على بادنج ، وتوالت الأوامر والمذكرات والمعارضات . وقبلت طلبات « فون موك » . ثم رؤى عدم قبولها ، ثم نوقشت مرة أخرى ، ثم رفضت ثم عرضت على بساط النقاش مرة أخرى ، وتضايق « فون موك » ولكنه ملك أعصابه . وعلى كل فلم يطالب القائد الألماني منهم الحصول على الكوكب الدرى ، وإنما طلب منهم القوت وهو من حقه .

ولكن الهولانديين ظلوا يجيبونه بقولهم : « إنما نحن على الحياد » ، ورد عليهم — « فون موك » قائلا : « لا بأس . وها هي قائمة ما نحن في حاجة إليه من مؤن نريدها غداً ، وسآخذها غداً صباحاً قبل انقضاء الأربع وعشرين ساعة الممنوحة للبواخر المحاربة في أوقات الحرب ، وشكراً مقدماً » .

« شكراً مقدماً ؟ » لا بد أن يكون هذا الربان قد اعتراه الجنون ، نعم هو مجنون ولكنه من أحسن أنواع المجانين الذين خلقهم الله ليضربوا الأمثال لذوى العقول الجامدة .

أليست العقول المتهورة هي التي اشتهرت بالبسالة وخلقت الرجال العاملين ؟ نعم أيها القارىء . واحمرت الدنيا في عيني « فون موك » من معاملة الهولنديين الخشنة التي لا ترتكز على أبسط قواعد المنطق . فصاح محتجاً : « كيف يجرؤ هؤلاء على معاملة سفينة حربية ألمانية بهذا الشكل؟ . أليسوا جميعا بحارة حربيين فوق ظهر « عائشة » قد سجلت أسماؤهم في القوائم السنوية لجنود الأمبراطورية الألمانية؟ ألا يوجد في أعلى صاريها الراية الألمانية البيضاء بصليبها الأسود ؟ . حقا إن « عائشة » لم تدخل بعد في قائمة البواخر الألمانية ، ولكن ليس هذا من شأن الهولنديين ، ولكن من اختصاص رؤسائه فقط ، وأما تحاياتهم فإنها تحتم عليهم إمدادهم بالقوت اللازم لهم والوقود الكافي ، حتى يصلوا إلى أقرب ميناء من وطنهم . وسينتظر « فون موك » وصول هذه المؤن ، ثم يترك هذه الميناء سريعاً .

وجاء إليهم الهولنديون ينصحونهم بالمكث في الميناء فإن « عائشة » متفككة بقدر ما أكل عليها الدهر وشرب . ثم إن هناك بارجة يابانية في أعالي مياه « بادانج » إن هي رأت « عائشة » وقذفتها بطوربيد أو قنبلة ، لأتت عليها وعلى ركبها .

كان « فون موك » يعرف ذلك جيداً ولكنه آثر

الموت فى البحار من البارجة اليابانية أو أى باخرة أخرى ، على أن يظل أسيراً للعقلية الهولندية الضيقة . لذلك رأى أن يسارع بترك « بادانج » قبل أن يطالب الحلفاء بإلحاح فى حجز « عائشة » فى هذا الميناء إلى ماشاء الله .

وعزم « فون موك » على الرحيل بما معه من المؤن التى أرسلتها إليه البواخر الألمانية الراسية وهى مؤن قليلة فى الواقع ، ولكنها أفضل من لا شىء . وصاح القائد الألمانى : « شكرا لكم ، سأبرح ميناءكم خالى الوفاض كما دخلتها ، ولا شك أن حكومتى ستقدر لكم إيواءكم لنا على هذه الصورة ، ومعاملتكم التى خلت من حقوق الإنسانية فى أوقات الحرب . »

ولكن لكل وجهة نظرة . وما أن انتهى « فون موك » من كلامه حتى أمر بحارته بالخروج من هذه المياه .

كانت الساعة الثامنة مساء ، ورفعت « عائشة » هتافها وسارع إليها زورق من الميناء واقترب منها ، وكان هذا الزورق يتبع السلطات الهولندية ، ويحمل للركب الألمانى المؤن والمياه والأدوية . ياللعجب إن الهولنديين قد حنت قلوبهم على الستة والأربعين بحاراً !

وتنهد « فون موك » مسروراً بما تعطف به عليه الهولنديون الأتقياء . وهنا انتهز أحد بحارة الزورق وكان من أهل « ماليزيا » فناول سراً « فون موك » وريقة من قنصل المانيا .

واهتز قلب البحار الألماني الكبير ، كما يهتز قلب العاشق عند ما يقرأ خطاباً من محبوبته . وغاب هنيهة فى غرفته وفتح الوريقة فوجد فيها : «إلى قائد عائشة ، إنى انتظر تعليماتك» وألقى «فون موك» نظره على ، خريطة المحيط الهادئ وكتب الرد التالى : « سأكون حتى يوم ٢٠ ديسمبر حول نقطة العرض ٣,٢٠ جنوبا و ٩٩,٢٠ من نقطة الطول شرقاً ، وسأكون قريباً من هذه النقطة بقدر ماتسمح لى به التيارات الهوائية والمائية ، كما أنى لن أبتعد أكثر من ٢٠ ميلا عنها» . وناول هذه الوريقة للرسول الأمين دون أن يراه أحد .

فلو أن باخرة ألمانية استطاعت أن تأتى إليه فى هذه النقطة ، لكان خيراً « لفون موك » وابتعد الزورق . .

كانت الساعة التاسعة مساء ، وجاء رفاص تجارى إلى « عائشة » ليخرج بها من الخليج . وشم البحارة رائحة زهور مدينة (بادانج) الصغيرة التى لم تطأها أقدامهم ، وتلألأت النجوم ، وتأرجحت (عائشة) وئيداً فوق المياه ، وجاء الريح ينفخ أشرعتها ، فسارت فى طريقها إلى عرض البحر . ولم تظهر باخرة عدائية أو محايدة أو صديقة فى الأفق .

وملأ (فون موك) صدره بهواء البحر النقى . إن الحياة جميلة فوق المياه حتى لو قابلنا القنابل اليابانية ! . . .

ووصلت (عائشة) فى يوم ٤ ديسمبر إلى النقطة التى أخبر بها فون موك قنصل ألمانيا .

ومرت عشرة أيام دون أن يرى الركب الألمانى خلالها غير سفينتين ، أراد فون موك أن يقتنصهما دون جدوى ، وكانت محاولته جنونية لا شك .

ورسم (فون موك) خطته بعد مضى هذه الأيام العشرة طبقاً للأخبار التى وصلته من (بادانج) على الوجه الآتى(١) :

أصبحت (تسنج تاو) Tsing-Tao نقطة الارتكاز الهامة الألمانية ، فى قبضة اليابان ، إذن أضحى هذا الطريق مغلقاً فى وجه (عائشة) ، ولكن الإمبراطورية العثمانية أعلنت الحرب على الحلفاء منضمة إلى ألمانيا ، إذن أصبحت جزيرة العرب المأوى الوحيد (لفون موك) . فإذا لم تلحق (بعائشة) أى باخرة ألمانية كما اتفق عليه (فون موك) ليصل عليها إلى السواحل العربية ، فانه سيضطر إلى التوجه بركبه المجوز مهما كلفه الأمر ، نحو سواحل سوماطرة الغربية ، ثم منها إلى الخط السادس شمالا ، وهنا يهب ريح الشمال الشرقى فيساعد سفينته على السير سريعاً نحو (ملديف) Maldives وخليج عـــدن ومضيق بريم ثم يدخل البحر

---

(١) انظر كتاب « ركب عائشة » لفون موك .

الأحمر إلى جدة . ومن جدة يأخذ طريقه براً إلى حلب ومنها إلى استامبول ثم إلى وطنه .

ولو نظرت أيها القارىء الكريم إلى الخريطة الجغرافية لوقفت بنفسك على بسالة (فون موك) الذى أراد أن يختار هذه البحار وتلك الجزر بمركب مثل (عائشة) . ولكن شجاعة (فون موك) نادرة .

وابتسم له الحظ أخيراً ! . وشاهد « فون موك » فى ضحى يوم ١٤ ديسمبر الباخرة «شويزنج» وحمولتها ١,٦٠٠ طن إحدى أسطول شركة لويد الألمانية لنقل الفحم . استطاعت هذه الباخرة أن تترك « بادانج » لتتجه نحو « لورنزو ماركيز » Lorenzo Marquez[1] . ووضعت هذه الباخرة نفسها تحت أمر القائد الألمانى .

ولكن « شويزنج » لم تحمل معها تموينا كافياً . فلم يتركها الهولنديون تتزود إلا بهذا القدر الضئيل من الأقوات حذرا منهم . وعلى كل فقد قابله ركب « عائشة » بالترحاب الشديد . وفى يوم ١٥ ديسمبر . بينما كان البحر هائجاً . استطاع ركاب « عائشة » أن يستخفوا وراء جزيرة « باجه » ليصعدوا على ظهر « شويزنج » ولكن بشىء من الصعوبة .

ثم أغرقوا « عائشة » وبدأ التأثر شديداً على وجه

---

(١) مستعمرة برتغالية فى الموزانبيك على السواحل الافريقية .

« فون موك » الذى أخذ يتبعها بعينيه المملوءتين بالدموع . وهى تغوص فى الماء .

وهكذا غابت فى غياهب البحر السفينة الصغيرة التى أنجت ٤٦ بحاراً ! « عائشة » ! ظل هذا الاسم منقوشاً على قلبه . واكمل رحلته متيمناً بهذا الاسم وعلى بركة صاحبته الكريمة .

راح « فون موك » يفحص بنفسه « الشويزنج » . وعلم متأسفاً بأن هذه الباخرة لن تستطيع السير بسرعة لأنها لا تحمل إلا أتربة الفحم ، لا قطعه . والفرق شاسع بين مرجل يغلى بتراب الفحم وآخر يضطرم بقطعه . لذلك أمر بحارته بانتقاء أحجار الفحم الكبيرة ووضعها على حدة لاستعمالها عند اللزوم لزيادة السرعة فى السير . أما الآن فان هذه الباخرة لن تسير على أكثر من أربع عقدات .

وابتدأ « فون موك » بعد ذلك إلى تنظيم نفسه ، ونعنى بذلك الاستخفاء . والاستخفاء فى الحروب واجب ، فما الحرب إلا خدعة . وعلى ذلك اختفت ألوان الشويزنج السوداء والبيضاء والصفراء عن مختلف أجزائها ، لتحل محلها ألوان بواخر شركة « جنوا » للملاحة الإيطالية .

وبدت تحت اسم جديد مكتوب بالحروف البيضاء :

« شنير — جنوا »

ورفعت الراية الايطالية فى أعلى صاريها بعد أن قام أحد

البحارة الماهرين فى الرسم والتلوين برسم أسلحة بيت سافويا.

أصبحت بذلك « الشويزنج » حرة السير فى البحر فما هى إلا باخرة إيطالية يصعب على العين المتمرنة أن تستبين حقيقتها. وعلى كل فالبحر واسع . . اللهم إلا إذا تبعهم النحس وقابلتهم بارجة من بوارج الحلفاء تكون استنشقت ريحهم .

ولكن الحظ السعيد كان حليف « فون موك » فى هذه المرة. وتابعت السفينة الألمانية سيرها فوق مياه البحر الهادئة.

وجاء عيد ميلاد المسيح وعيد رأس السنة — وابتهج الركب بهما واحتفل احتفالا بقدر ما سمحت به زجاجات الويسكى. وقام أحد البحارة واصطنع من ريش مكنسة شجرة الميلاد، ومن الورق الملون أوراقها وفروعها. وقام « فون موك » خطيباً، واختتم كلمته بحياة القيصر ثلاثا. أليس القيصر قائدهم الأعلى؟ ثم علت الأصوات بالأغنيات الشعبية .

ظل الركب ٢٤ يوما فى المحيط الهادى حتى اجتازه دون أى حادث يذكر .

وشاهدوا فى ليلة ٧ — ٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ . « باب المندب » يحرسه « بريم » وكان « فون موك » يعلم خطورة الاقتراب من هذه البقعة وسار بسفينته على سرعة ٨ عقدات فى الساعة . وهى آخر سرعة تستطيع الباخرة السير عليها بفضل ما احتجزه من أحجار الفحم .

ولكن مهلا . أن الأخطار تحف بهم من كل جانب . فهل يا ترى سيجتاز «فون موك» هذه البقعة سالما . إن قلب البحار الألماني يسرع في ضرباته ، يسرع كثيرا .

استطاع أن يجتاز « باب المندب » و « بريم » بسلام ليدخل البحر الأحمر وبعد ٢ ساعة، شاهدوا أنوار حديدة، إحدى موانىء اليمن . وكان ذلك يوم ١٠ يناير.

وتنفس «فون موك» الصعداء . لقد وصل إلى أول هدف من أهدافه ، لقد سمع أن سكة حديد جدة قد امتدت إلى حديدة وترك مخيلته تسبح في عالم المنى ، فرأى نفسه راكباً القطار يقطع به أرض فلسطين (١) ثم سوريا (٢) ثم آسيا الصغرى فاستانبول فبرلين . وفي برلين ستعين له السلطات بارجة أو مدمرة يقودها ليواجه بها الاعداء ، فما خلق «فون موك» إلا للحرب ، الحرب المستمرة .

واستعد «فون موك» في ضحى يوم ١٠ يناير للنزول مع رجاله إلى سواحل حديدة في أربعة زوارق .

ولم ينسه الفرح والسرور أن يكون على حذر في جولاته . فطلب من ربان «الشويزنج» أي يختفي في الخليجات الكثيرة الموجودة في هذه البقعة ، على أن يأتي بعد ليلتين في نفس النقطة التي نزل منها «فون موك» ورجاله في زوارقهم، حتى

(١) و (٢) كانت فلسطين وسوريا تحت الحكم العثماني في ذاك الوقت.

إذا ما فاجأهم العدو أسرعوا عائدين إلى باخرتهم .

« وسار فون موك فى جنح الليل مع رفقائه نحو الساحل ، أو بالأحرى نحو ذلك النور الذى كان فى الحقيقة لبارجة فرنسية راسية عن كثب فى هذه المياه ، اسمها « ديسى » Dessix كانت تلعب بأنوارها حتى يظن فيها أنها رصيف ميناء .

« لكن « فون موك » فطن إلى هذه الخدعة عندما اقترب منها ، وحقد عليها كثيراً .

ماذا ؟ أبعد أن اجتاز أخطار المحيط الهندى وجزءا من البحر الأحمر سالما ، يأتى بنفسه إلى الموت وهو على كثب من أرض المأوى ؟ وتراجع « فون موك » دون أن تشعر به البارجة الفرنسية لكثرة الضباب وحلكة الظلام ، ثم وقف على بعد ٨٠٠ متر من الساحل الصخرى هنيهة ليكمل سيره نحو الساحل ، فنزل فيه مع رجاله بكامل أسلحتهم ، وخشى بعد أن وطأت قدماه الأرض ، أن تكون هذه البلاد قد وقعت فى أيدى الحلفاء لوجود هذه البارجة الفرنسية . وكم تمنى « فون موك » أن يعرف الحقيقة بأى ثمن .

ولاحت ذكاء . . فرأى على ضوء الضحى الفيافى الشاسعة . أنه فى عزلة عن الناس ، ولكن هذه العزلة لم تدم حيث رأى جماعة من العرب مقبلين من وراء كثبان الرمال . أنهم مائة عربى بأيديهم البنادق ويصيحون قائلين : « بوم »

« بوم » وهم يشيرون نحو البارجة الفرنسية، فظن «فون موك» بأن المراد من لفظة « بوم » هو صوت المدفع، أى أن هذه البارجة قد رمتهم بقنابلها .

وأقبل عليهم « فون موك » وهو يشير لهم بإشارات يريد ان يقول لهم بها بأنه صديق وانه ليس له اى شأن بهذه الباخرة الفرنسية ، ثم رفع رايته الألمانية قائلا : « ألمان . المانى . المانيا »

وفهم العرب أنهم المان. فرفعوا بنادقهم تحية لهم واخذوا يرمونها ثم يلقفونها سرورا بقدومهم ثم توجهوا معهم إلى اركان حرب الأتراك فى حديدة . .

نحو صنعاء اليمن

وقابل ضباط هيئة أركان حرب تركيا فى حديدة «فون موك» ورجاله بكل ترحاب . ثم اغتسلوا واستراحوا هنيهة، قدم لهم بعدها اللحم المشوى الذى أعجب الألمان كثيرا . وبعد أن شبعوا قدمت اليهم القهوة اليمنية اللذيذة الطعم .

وعلم من الأتراك أن سكة حديد جدة لم تمتد إلى حديدة، وهى على كل حال بين أيدى الثوار المنشقين على الدولة العلية، لذلك فان الطريق الساحلى الموصل إلى جدة غير مأمون . كما أن البحر الأحمر غاص بالبوارج الفرنسية والإنجليزية

وأسلم طريق هو الطريق الصحراوى الموصل إلى صنعاء عاصمة اليمن، ومنها إلى عسير ومن عسير إلى جدة، ثم يستطيع بعد ذلك أن يكمل طريقه إلى استانبول بالسكة الحديدية.

وزود الضباط الأتراك «فون موك» بتموين كثير من قوت وماء ووضعوا تحت تصرفه الجمال والهداة، وسار «فون موك» برجاله قبيل الضحى. وهنا نبدأ قصة جديدة لركب «عائشة».

ظلوا يسيرون أربعة أيام على الرمال التى أسختها أشعة الشمس المحرقة، ليصلوا إلى فيافى وكثبان من الرمال ونتوء من الصخور أقيم على كل منها برج يحرسه العرب الأشداء الأقوياء وسط أرض قاحلة لا يرى فيها نبت ولا شجر.

وكان السير عسيراً على هؤلاء البحارة الذين رغم تعودهم على اهتزازات البحر، لم يرتاحوا إلى ظهور الجمال فى حركاتها. فكان بعضهم يسقط من فوقها. ثم تعودوا أخيراً على ركوب سفن الصحراء. بعد سفن الماء.

كان البرد يشتد عليهم ليلا بقدر ما تحرقهم الشمس نهاراً. وقل الماء وأسن، ومرض بعض البحارة بالديسنطاريا وبالحمى مما أنهك قواهم وأضعف قليلا من عزائمهم.

وفى اليوم التاسع شاهدوا مآذن الجوامع. جوامع صنعاء التى وصلوا إليها مساء. فقابلهم ضباط حاميتها الأتراك بكل ترحاب. ثم نقلوا المصابين إلى المستشفى وبات

الآخرون فى القشلاق .

ولشد ما تضجر « فون موك » عند ما علم أنه لن يستطيع السير بعد من صنعاء ، لأن قبائل الدربان المتمردة وضعوا أيديهم على عسير ، لذلك فان حامية صنعاء لا تأخذ على عاتقها أية مسئولية لمن يتجول بعيداً عن حدود العاصمة .

ويقدر ما تضجر « فون موك » يقدر ما سر الضباط الأتراك لوجوده بر جاله بينهم وهم أولو شجاعة وبأس وقوة . وأرادوا أن يقنعوا « فون موك » بالإقامة بينهم لشياطرهم مع رجاله الدفاع عن صنعاء ، ولكنه أبى إلا السير .

نعم ، لم يصل « فون موك » إلى هنا ليقتل هو ورجاله فى حرب بزية رغم صداقة الأتراك لقيصرهم . إنما يريد أن يركب البحر دون أن يترك وراءه جنديا واحدا من جنوده ليصل بهم إلى برلين ، واضطر إلى الإقامة حتى ينقه آخر مريض من رجاله .

وكان « فون موك » يقتل الوقت بكتابة مذكراته وبالتنزه على متن الخيل فى صنعاء ، وكان يسمع من بعيد طلقات الرصاص المتبادل بين العرب المتمردين وبين رجال السلطان العثمانى ، وتتفاقم الثورات يوما بعد يوم ، وكان « فون موك » يتساءل من أين جاء العرب بهذه الأسلحة الحديثة ؟ ! . .

ياحبذا لو أن « فون موك » غير فكرته ورضى بالإقامة بينهم ، ولكن « فون موك » لم يغير خطته وكان ينتظر بفارغ الصبر شتاء آخر جندى من رجاله . ليتخذ سبيله نحو المستقبل المجهول .

وفى يوم ٣ مارس . استأذن « فون موك » من الضباط الأتراك بالإنصراف شاكرا لهم ضيافتهم . ولكن لم يتركوه يذهب دون أن يزودوه بالأقوات والماء والخيل والبغال والجمال وبعض الهداة ليهدونه الطريق إلى الساحل .

وبعد عشرة أيام قضاها بين أشد الصعوبات وصل برجاله إلى « يبنه » ثم ركبوا مركباً يمنية طولها ١٤ مترا وعرضها أربعة ، وقام « البق » يفتك بهم ليلا عما أنغص حياتهم ورجعوا بخيالهم إلى أيام « عائشة » فكانت فى نظارهم « جنة » بالنسبة للحياة بين هذه الحشرات المؤلمة . وكان البحارة العرب يقودون هاتين السفينتين على بركة الله بالقرب من الساحل ، وفى يوم ١٧ مارس وقع بجوار ميناء « مرقة » مايجب أن يقع من حوادث . ورسا « فون موك » بسفينته بين صخرتين وانتظر مجىء السفينة الثانية ، ولكن سمع صوت أخشاب تتكسر ثم أصوات استغاثات ، لقد ارتطمت بصخرة فتهشمت وغرقت وعام رجال « عائشة » إلى سفينة

قائدهم، وكانت الحمولة كبيرة على هذه السفينة، فسارع « فون موك » بإلقاء الأمتعة فى اليم محتفظاً بالأسلحة والذخائر. وكادت هذه السفينة تغوص من ثقل رجالها لولا أن الله سلم. وهب النسيم وسارت السفينة بركبها وئيداً نحو « قنفذة ».

وعند ماوصل « فون موك » إلى « قنفذة » طلب من الأتراك سفينة كبيرة قوية ليصل بها إلى جدة. فلم يتوانوا فى انجاز طلبه. وصعد على ظهرها مع رجاله واتجه بها إلى عرض البحر بعد ماهاله من شدائد السير بجوار السواحل الصخرية ليستريح قليلا.

واجتاز « فرسان » الذى لاتستطيع البواخر الكبيرة دخوله لكثرة صخوره وتقاربها من بعضها، ولكن ماذا بعد ذلك ؟.

إنه اجتاز « فرسان » ووصل إلى ميناء اللد. ولكن حلم « فون موك » تبدد ؟. إن جدة التى يهدف إلى الوصول إليها قريبة منه ولكن عليها حراسة شديدة من جانب الأساطيل الفرنسية والإنجليزية. فالبحر هنا مغلق، وكل سفينة تلجه تفتش تفتيشاً دقيقاً، إذن لابد أن يلتجىء إلى الصحراء، الصحراء المخيفة ولكنها آمن طريق إلى جدة، جدة أول خطوة إلى بلاده..

الحرب في الصحراء

وفي يوم ٢٥ مارس قبيل الفجر ، توغل « فون موك » في الصحراء مرة أخرى مع دليليه العربيين وستة جنود وصول عثماني وتسعين جملا

وأخذت القافلة تواصل سيرها بين عيون الماء وهي في الواقع عبارة عن حفر يبلغ عمقها ١٤ مترا ، وقبض الجند الأتراك على شيخ القبيلة التي مروا بها واحتفظوا به كرهينة حرب ، وكانت الثورات تندلع[١] بين القبائل الحجازية وكانت البلاد في أتون من نيران الحرب .

كانت القافلة تقيل أثناء ساعات الحر الشديد أي من الساعة التاسعة صباحاً إلى الرابعة بعد الظهر ، وتسير في غير هذه الأوقات وتبدأ على قدر خطى الجمال المربوطة بعضها ببعض ، وكان لهذا السير البطيء أسوأ الوقع على نفوس البحارة الألمان ، فضلا عما انتابهم من مرض « الديسنطاريا » ومن الحمى .

وظلت القافلة تطوي القفار والفيافي المخيفة حيث يكثر

---

(١) كان ذلك في وقت الثورة العربية التي لعب خلالها الكابتن « لورنس » دوره في استقلال الحجاز ، حتى أطلق عليه لقب « لورنس العربي » (المؤلفة) .

obeikandi.com

فيها السراب ويلعب بالأبصار، فيريها أشباحاً وخيالات لا وجود لها، مما كان يحمل الجنود يصوبون بنادقهم استعداداً لإطلاق قذائفها.

لقد ذاق الجند الأمرين من السراب ومن الحمى حتى كادت أعصابهم تنهدم.

وعند ما وصلوا إلى آخر بئر ماء، وجدوا عندها قوة تنتظرهم، قوامها ضابط تركي و١٧ جندياً نظامياً، فانضمت هذه القافلة إلى ركب «عائشة».

وعند ما جاء يوم ٣١ مارس، لم يبق عليهم إلا اجتياز مرحلة قصيرة ليصلوا إلى «جدة»، فرحت هنالك القلوب، وأحس كل رجل من رجال القافلة أن مريضاً أو صحيحاً بنشاط غير عادي يرجع إلى هدوء أعصابهم لمجرد استيقانهم من قرب ترك هذه الصحاري القاحلة المخيفة في سكونها واتساعها. وكان كل منهم يتمنى لو استطاعت الجمال أن تسرع في سيرها، ولكن إنى للجمال أن تعرف قيمة الوقت

وفي أول ابريل، نظم «فون موك» رجاله بأن جعلهم صفين تحيط بهم القوة العثمانية من الجانبين.

وارتفعت الشمس في كبد السماء، وأخذ الركب يتسلق المرتفعات الواحدة بعد الأخرى وكأنها لا تنتهي، وبدأ

السرور على وجه « فون موك » عند ماعلم أنه على بعد ثمانى ساعات من « جدة » وأخذ يصفر مغتبطا

وعلى حين غفلة وقفت الجمال ، وأخذت تشم الهواء وتهدر ، وماهى إلا هنيهة حتى انهالت طلقات البارود على على القافلة ، وتخبط رجل فى دمائه فوق الرمال المحرقة .

وجم القوم جميعا ، أنهم يسمعون الطلقات ولا يرون انسانا! وهنا فكر البحارة الألمان فى البحر ، البحر الصريح الذى لا يمكن للعدو أن يختفى فيه ، أما فى الصحراء فإنهم لا يرون شيئا ، ويأتيهم الخطر بغتة

وكان العدو المختفى وراء الأطلال والأكمات يمطرهم على فترات بوابل من رصاصه ، ثم ظهرت مائة رأس ثم مائتين ثم أربعمائة ثم خمسمائة وأكثر ، وطلع عليهم البدو من كل فج وقد تسلحوا من أخمص أقدامهم إلى أعلى رؤوسهم . (١)

وفى الحال . استعمل البحارة بنادقهم الرشاشة التى ظلوا محتفظين بها منذ جنوحهم إلى جزيرة « ديركسيون » و « كوكوس » فاختفت الرؤوس ، ولكن لمدة وجيزة . وكان من الجلى الواضح أن تكون هذه المنازلة المفاجئة أول

---

(١) انظر « ركب عائشة » لمؤلفه « فون موك » طبعة مايو .

عامل لعدم توغل العثمانيين والألمان إلى ما بعد هذه البقعة، كما كان عليهم أن يستعدوا لكل مفاجئة . وأن ينظموا أنفسهم لرد كل عدوان .

كانت أسلحة هذه القافلة لا تتعدى البنادق الرشاشة الأربعة و ١٤ بندقية المانية و ١٨ بندقية قديمة فى حيازة العثمانيين ، و ٢٤ مسدساً وعدداً ضئيلاً من الخرطوش . وإن كان هذا التسلح غير كاف فى الواقع لهذه القافلة المغامرة ، فانها على الأقل ترد عنهم بأس العربان الثائرين المختفين وراء الاكمات وكثبان من رمال .

ولكن أنى لهم التناوش مع ٥٠٠ عربى اختفوا فجأة عندما سمعوا طلقات المدافع الرشاشة؟! وهل تطمئن الأنفس لهذا الاختفاء ؟ . كلا . ففكر « فون موك » فورا فى التقهقر .

ونظم القائد الألمانى رجاله على ستة صفوف ، جاعلا المصابين منهم فى الوسط مع الزاد والمؤونة ، وجعل عشرة من بقية الرجال يحمون المؤخرة بعد أن زودهم ببندقيتين من الأربعة الرشاشة وعشرة جمال ليواصلوا نوعا ما طلقاتهم ضد البدو الذين عادوا إلى عدوانهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الدقة فى الاصابة .

وتقهقرت القافلة رويدا رويدا بين طلقات الرصاص .

وكانت كل أكمة تخفي عدداً من الأعراب المسلحين، فازدادت إصابات رجال القافلة بقدر ما قل الزاد. لقد أصبحوا في مأزق من أمرهم، وربما كانت هذه الواقعة نهاية مغامرة رجال «عائشة» الذين قهروا البحار حيناً من الزمن. لا بد لهم من القيام بأي عمـــل حاسم ينجيهم من قبضة أولاد الصحراء المشوهين المجهورين قبل أن ينتهي خرطوشهم، وقبل أن يرتشفوا آخر نقطة من الماء الباقي لديهم.

ورأى «فون موك» أن يلجأ إلى المفاوضة حتى يستطيع الوصول إلى «جدة» فرفع أحد الضباط الأتراك منديلا أبيض طالباً للمداولة والتفاهم فسكت العرب وتقدم الضابط ومعه رجلان من القافلة نحو البدو حتى غابوا جميعاً عن ناظر «فون موك» وراء إحدى الأكمات.

وبينما كان التركي يتفاوض. خندق «فون موك» بسرعة بالقافلة يحمي المصابين وما تبقى لديه من ماء وأكل وذخيرة. وبرك الجمال حول الخنادق. ووضعت البنادق الرشاشة في أركان الخندق لحماية ناسه وطال الانتظار بركب «عائشة» وكاد ينفرغ صبر «فون موك» وظن أن الضابط التركي قد أسر ولن يعود؟

وبينما القافلة في حيرة من أمرها. إذ ظهر الضابط التركي وجندياه، وكان يحمل معه رسالة لا يمكن قبولها. فانهم طلبوا

مقابل ترك القافلة فى سيرها إلى جدة ، أن يأخذوا الجمال والأطعمة والأسلحة واثنى عشر ألفاً من الجنيهات الذهبية .

ورفض « فون موك » هذا العرض بشهم وإباء مفضلا الموت فى هذه الصحراء الجرداء على تسليم سلاحه إلى العدو . وعندما علم البدو بهذا الرفض أخذوا يمطرون الأتراك والألمان بوابل من الرصاص إلى أن غابت الشمس وراء الأفق .

وكلما أقبل الليل بظلماته ، كلما قلت الطلقات وتفاوتت إلى أن جن الليل البهيم فقام « فون موك » يأمر رجاله بحفر الأرض ليوارى جثث المتوفين ، لقد مات ثلاثة من الألمان وانتابت الآخرين حمى عالية ، ورغم كل هذا ظل البحارة الألمان لا يشربون الأجرع من الماء لا تغنى من العطش .

وانتظر « فون موك » غياب القمر فى كبد السماء وسط هضبتين ، ليوفد رسولا عربياً إلى جدة وقد أصبحت على بعد سبع ساعات ، ليأتيه بالمدد حتى يستطيع السير إلى الميناء الحربى الليلة المقبلة .

وتزود « فون موك » ومن معه بالصبر ، حتى يعود اليهم هذا الرسول ، ومرت الساعات طويلة ، ثقيلة على قلوبهم ، بينما كانت أعينهم تجوب الأجـــواء ، وأصابعهم تضغط على الزناد .

الأمـــل

وكما صباح يوم ٢ ابريل ، وجه تلك الليلة الليلاء بنور الأمل ، لقد فاحت الروائح الكريهة من المعسكر الألمانى من رمم الجمال المقتولة ، وقام الرجال يسحبون هذه الرمم المتعفنة بعيدا عن المعسكر رغم رصاص العدو الذى كان ينهال عليهم كالمطر ، ثم عادوا أدراجهم زحفا حتى وصلوا إلى أخوانهم.(١)

وكلما ارتفعت الشمس فى القبة الزرقاء ، كلما زاد الحر فى الخنادق حتى أصبح الرجال يتنفسون بصعوبة ، وكانت الرمال التى تتطاير من جراء الرصاص تلفح وجوههم فتلهب أجفانهم وحناجرهم ، كما كانت تدخل فى فوهات البنادق الرشاشة فتعيق طلقاتها ، وكان الرجال يكتفون بجرعة ماء ولقيمات يقيمون بها أصلابهم ،

وطال انتظارهم طيلة اليوم حتى زحف الليل بدهمائه ، ولكن هذا الليل لم يفرج لهم كربة كما أن فجر اليوم الثانى لم يأت لهم ببصيص من الأمل ، وأخذ كل واحد يقول وساوسه ، فمنهم من جزم بقتل الرسول ، ومنهم من اتهمه بالانضمام إلى الثوار ، كل ذلك قد يجوز وقوعه كما قد يجوز أن يظهر الرسول

---

(١) انظر كتاب « ركب عائشة » لمؤلفه « فون موك » .

ومعه المدد ، من يدرى ؟ لا يجب أن يدخل اليأس القلوب وظلوا فى انتظارهم المرير ...

ولاح الفجر، فجر اليوم الثالث ...

وتتابعت الطلقات متفاوتة الآونة ، وكاد الماء ينفد، وزاد التهاب الحناجر وزاغت الأبصار، وراح السراب يلعب دوره بعيون هؤلاء الرجال الذين أنهكهم العطش والجوع والحر والمرض والحمى . فكانوا يرون بحيرات من الماء ونخيلا . وما هو إلا خداع السراب . ودوت ضحكة فزع لها بقية الرجال إنها ضحكة مصاب بالجنون ! ومرت الساعات . وأيقنوا بالهلاك فى هذه البقعة، وأجمعوا على دق اسفين فى صفوف الأعداء المتوارين وراء الهضبات بكل وسيلة . ولكن هل لو استطاعوا شق طريقهم بين البـــدو وكثبان الصحراء ، سيستطيعون المشى وتلك حالهم، سبع ساعات حتى يصلوا إلى جدة ؟ . جدة ذلك المرفأ الذى ضاع أملهم فى الوصول اليه!

ورغم ما أصاب القافلة من يأس، فان « فون موك » ظل محتفظاً بنشاطه كقائد مسؤل عن رجاله . فكان يشجعهم ويمنيهم ويشاطرهم الماء الآسن ويطلق معهم الرصاص ، وعندما علم أنهم استعادوا شيئاً من عزيمتهم الأولى . قام بتنظيمهم إلى صفين . جاعلا الجرحى والمرضى فى الوسط ،

وحمل كل منهم سلاحه استعداداً لاطاعة أوامر «فون موك».

وصاح «فون موك» بصوته الجهورى : «إلى الأمام يا اخوان . إلى الامام يا رجال البحر» . وتقدم القائد الألمانى على رجاله بنحو خمسين متراً ممسكا بمسدسه . ثم صعد إحدى الهضبات وأخذ يجول بنظره . ما أغرب هذا الأمر . لقد سكتت الطلقات النارية فجأة . وراح كل رجل من رجاله يصعد الأكمات والكثبان . بين سمت البدو . وعلم «فون موك» أنها حيلة من حيل حرب الصحراء . فأمسك بمنظاره المكبر وجال ببصره يمنة ويسرة ، لا شك أن البدو قد اختفوا وراء هذه الهضبات المتناثرة .

إحذروا ! . ماهذا الذى أرى مقبلا علينا من بعيد ؟ أهو السراب يلعب بنا ؟ إنهم جنود . إنهم البدو عادوا أدراجهم ليكملوا علينا . . وقد يكون الرسول الذى طال انتظاره ؟ ولم يشأ «فون موك» أن يخبر رجاله بهذا الفرض الأخير قبل أن يتحقق منه حتى لا يذهب سرورهم سدى إن لم يكن المقبلون المدد المنتظر .

وبعد هنيهة ظهرت الجمال فى صفها الملتوى وأخذ «فون موك» يدقق النظر فى منظاره وراح يعد الجمال . . إنها سبعون جملا يتقدمها علم أحمر اللون مزركش بالخيوط الذهبية التى تضوى تحت أشعة الشمس .

وكان يتقدم هذا الركب على ظهر بعير أبيض، شاب يلبس البياض نحيف الجسم، أصيل المنبت، كحيل العينين، أسود اللحية، على رأسه كوفية بيضاء مثبتة بعقال ذهبي. وكانت الأحجار الكريمة تلمع من حزامه وهي مصففة على شكل شارة الملك، وكان يتبع هذا الشاب الوجيه الأنيق، بقية الركب على مسافة محترمة، وقد ارتدوا أحسن اللباس.

وقف الركب صامتاً، وبركت الجمال، وتقدم الشاب ذو اللباس الأبيض نحو الضابط الألماني الذي بادره بالتحية. إنه الأمير عبد الله [1] النجل الثاني للشريف حسين [2] أمير مكة.

وكان الأمير لا يتكلم الألمانية كما كان غير محب للألمان، لذلك نراه قد تجاذب أطراف الحديث مع الألماني باللغة الفرنسية مبدياً له أسفه الشديد لتأخير النجدة عليه، وإن ما قام به البدو إنما هو من مصادفات سوء التفاهم. وإن «فون موك» الآن أصبح تحت رعاية أمير مكة وفي حماية الشريف حسين والده. وإنه أصبح في مأمن من المخاوف. وسوف يصطحبه

---

(١) هو الملك عبد الله الحالي. ملك شرق الأردن.

(٢) هو الشريف حسين أمير مكة الذي تحرر من سيادة الامبراطورية العثمانية. ونادى بنفسه ملكاً على الحجاز. ثم أبعده عن الملك الملك عبد العزيز آل سعود المتربع الآن على الجزيرة العربية. وكان وقتذاك أمير نجد (المؤلفة).

obeikandi.com

إلى جدة بنفسه بعد أن يستريح البحارة من عناء وهول ما مر بهم من أيام نحسات ، ثم أمر الأمير رجاله بتزويد الجند الالمان بالماء والطعام حتى يستردوا قواهم .

وما أن رأى العساكر الألمان الماء حتى تدافعوا عليه يرتوون منه .

ودعا الأمير «فون موك» واثنين من ضباطه إلى الجلوس معه على البساط الذى وضعه أحد الخدم على الرمال وسط واد، بينما انهمك رجال آخرون إلى تحضير القهوة، وكان كل من الداعى والمدعوين يتكلم فى شتى الأمور ولكن بكل تحفظ.

وفى الساعة الخامسة بعد الظهر أركب الأمير البحارة وأمر بحمل مامعه من أسلحة وأمتعة على بعض الجمال وسار الموكب على بركة الله .

ورغم إجادة «فون موك» ركوب الخيل على غير عادة البحارة ، فإنه لم يسترح على ظهر البعير ، وراح يعتذر إلى الأمير عن غشمه فى قيادة سفينة الصحراء ، وضحك الأمير، ودار الحديث بينه وبين «فون موك» الذى كان يدرس الأمير جيداً أثناء حديثه .

إن هذا الشاب الكريم المحتد ، نبيه وكريم ولكنه متحفظ ، إنه لا يظهر لك إلا نصف أفكاره. تاركا لك استنباط نصفها الثانى ، وكان «فون موك» هو الآخر يرد على أسئلة

الأمير بنفس الطريقة. إن كل واحد منهما يحذر الآخر دون سبب بين، وكان « فون موك » لا يفتأ يتأمل فى وجه الأمير وملامحه النبيلة، دون أن يصل إلى نفسيته العميقة. ثم عاد الصمت بينهما ثانية، وكان كل منهما يقتل الوقت بالاستسلام لنعاس خفيف.

وكان أحد الأعراب فى آخر الموكب يغنى غناء يشوبه الحزن فى نبرات صوته، ولم يفهم « فون موك » هذه الأغنية ولكنه استملح أنغامها.

وأقبل الظلام وتناثرت فى أجوائه الكواكب والنجوم فاذكر هذا المنظر « فون موك » بحنينه إلى البحر الخضم! كم يود أن يسمع تلاطم الأمواج فى جدران مدمرته، آه، لو استطاع أن يعود إلى البحر.

وعلى حين غرة مد الأمير يده نحو نقطة تتلألأ فى الأفق أشبه فى حجمها بفم السيجارة الموقدة وقال: جدة.

العودة إلى الوطن

واتضح لفون موك، وهو فى « جدة » النزاع، القائم بين الأتراك الذين يلومون العرب والعرب الذين يتهمون الأتراك.

وأرادت القوات المرابطة فى « جدة » أن تحاول مع « فون موك »، ما حاولته سلطات صنعاء معه من ملازمته هو وجنوده لهم، وراحوا يدخلون فى قلبه الخوف من أساطيل الحلفاء المتناثرة فى البحر الأحمر، ومن ثوار العرب المسيطرين على الخط الحديدى برا، وأن الأفضل له ولرجاله الإقامة بينهم حتى لا يعرضوا أنفسهم مرة ثانية لموت محقق إلى أن ينجلى الموقف.

ولكن «فون موك» كان قد شبع من مثل هذه الأراجيف، كما كان يعلم أن الموقف لن ينجلى فى أيام ولا فى أشهر، لذلك أكد للسلطات التركية فى جدة بأنه سيواصل سيره مهما كلفه الأمر حتى ولو لقى حتفه إلى أن يصل إلى « المدينة » طالما أن السكة الحديدية مأمونة المغبة من هذه البقعة.

لم يسترح الأتراك لهذه المغامرة. ولكن الأمير عبدالله انضم إلى رأى « فون موك ». وبعد أن تفاهم « بالمسرة » (التليفون) مع والده الشريف حسين المقيم فى مكة بسط « لفون موك » ما أخبره به والده من استعداده لحسن ضيافته

على أن ينبه على بحارته بعدم دخول أرض «المدينة» لقدسيتها ، اكتفاء بتجوالهم فى ضواحيها إلى أن يصلوا إلى الخط الحديدى .

وبعد مناقشة طويلة ، اتفقت الآراء فيها على أن يذهب « فون موك » ورجاله إلى ضواحى «المدينة المنورة».

وشكر « فون موك » الأمير على هذا الفضل الكبير لأنه يعلم أن « المدينة المنورة » محرمة على الذميين ، ثم قامت السلطات فى جدة بمعاونة « فون موك » ورجاله على معدات الرحيل .

ولم يثر وجوده فضول الأهالى لأن أهل الشرق تعودوا من أهل الغرب حب الاستطلاع ووضع أنوفهم فى كل شىء ليدرسوه أو يتأملوه . فإذا كان « فون موك » راح يجول فى أنحاء جدة دون أن يهتم به أحد ، فلأن الأهالى اعتادوا رؤية الأجانب ، ولكن الويل له إن قام بما يغضب العرب بعاداته الغربية .

وقادته قدماه إلى الميناء بالسليقة ، لأن البحر كان ينقصه برائحته ورائحة القطران . إنه يحب التأمل فى المراكب الراسية وأشرعتها المطوية بعد قيامها بالصيد . إن مثل هذه المناظر تدخل فى نفسه البهجة والسرور ، إنه مريض بحب البحر وهو مرض قلما يشفى منه بحار ذاق حلاوته ومرارته .

ومن صفات البحار أن يكون دمث الأخلاق متحبباً إلى الناس . وكان « فون موك » على هذه السجية . فكان يجلس في مقهى يغشاه الأوربيون الذين يجدون لذة في التحدث مع الباعة والتجار والنوتية ، فتجاذب أطراف الحديث مع بحار مصري في سن الشباب يجيد اللغة الانجليزية وله إلمام بخفايا وخبايا البحر الأحمر . وسر « فون موك » كثيراً من هذا الشاب النابه الماهر .

ولما وقف الشاب على رغبة « فون موك » قام يبحث له عن مركب صيد كبيرة فسيحة الأركان والجوانب . وسرعان ما وجدها . وراح « فون موك » يضع فيها الزاد والأمتعة على قدر المستطاع . كما استأجر بحارين يمانيين لهما دراية بالملاحة في البحر الأحمر ، وطلب من البحار المصري أن يسهر على المركب إلى أن يعود .

هل يرغب « فون موك » أن يلعب دوراً مع مضيفيه ؟ ربما أراد ذلك .

وأخذ الأتراك والعرب يعدون العدة للقافلة التي ستسير إلى المدينة المنورة .

وفي يوم ١٠ ابريل ، أي قبل رحيل البعثة الألمانية بيومين دعا الأمير عبدالله بقصره في جدة فون موك وضباطه إلى وليمة شرقية . أعجب بها الألمان أيما إعجاب وشكروا الأمير

حسن ضيافته لهم . واتفقوا على أن يسيروا بالقافلة بعد غد إن شاء الله .

وفى يوم ١١ إبريل أخذ الألمان أهبتهم للرحيل فجمع « فون موك » رجاله وقال لهم أمام دهشة الأتراك : « هلموا بنا إلى السفر اليوم » ! وظن الأتراك أن مسا أصاب القائد الألمانى . إنه مجنون بلا شك . نعم هو مجنون . وقام رجاله بتنفيذ أمره فورا وتبعوه إلى أن وصل بهم إلى الميناء حيث كان « السنبك » فى انتظارهم كامل العدة . واندفعوا به فى عرض البحر ، تاركين الأتراك والعرب ، غير خائفين من الحلفاء وأساطيلهم التى لا تفتأ تبحث عن غواصة ألمانية ، أو سفينة عدائية أو محايدة ، وشق « السنبك » طريقه فى البحر بجوار الشاطىء وهو أشبه بضفدعة بالنسبة إلى حوت إذا قيس بالبواخر الحربية . واتجه به « فون موك » نحو « ينبع » .

لقد أعاد البحر إلى رجاله قوتهم ونشاطهم . وأحس المرضى بخفة وطء المرض عليهم . وراح كل منهم يستنشق الهواء العليل . آه إنهم يستنشقون الهواء بشغف بعد أن حرموا من أريجه أشهرا طوالا .

كانوا فى شهر ابريل . أسعد شهور الربيع الجميل الذى تنبثق فيه الزهور والورود بألوانها الجميلة الساحرة .

وإذا كنت أيها القارىء لم تتمتع بالربيع فى وسط البحار، فقد حرمت نفسك من جمال الطبيعة التى سخرها الله لعباده.

وحدث فصل مضحك أثناء الطريق بين «جدة» و«ينبع» اتخذه البحارة الألمان تسلية لهم. لقد شاهدوا بحاراً يمانياً من الاثنين اللذين استأجرهما «فون موك» يصفر لونه ويزداد صفرة مع الوقت، يعدو سريعاً نحو مقدمة المركب وهو يصرخ من مغص فى أمعائه. وعندما كشف عليه الطبيب الألمانى. ظهر له أنه شرب إحدى زجاجات «زيت الخروع» التى اشتراها «فون موك» من «جدة» لمرضاه، فأصيب بهذا الاسهال الحاد.

وبعد أن رست المركب ثلاث مرات على ساحل الجزيرة العربية، وقام فى كل مرة منها الطبيب الألمانى بمداواة أحد شيوخ القبائل العربية. وصلت فى أمان إلى ميناء «شرم منيبورة» الصغير

ولا يفوتنى أن أذكر أن الشيخ العربى الذى نال الشفاء على يد الطبيب الألمانى، ملأ المركب بالزاد، اعترافا منه بالجميل المسدى اليه.

ورست المركب فى يوم ٢ مايو فى «الوجه» حيث اندهشت الحامية التركية لمجيئهم رغم وجود سفن الحلفاء فى البحر الأحمر. ثم راحوا يكرمون وفادتهم.

وكان الهدوء متوفراً فى «متصرفية الوجه» وضواحيها.

حتى لقد يلوح أن الثورة لم تصل إليهم . وفى يوم ٦ مايو وصل الألمان إلى « العلا » على خط السكة الحديدية الحجازية حيث ركبوا القطار إلى « حلب » .

ومن « حلب » أبرق « فون موك » إلى السفير الألمانى وحكومة الباب العالى بقرب قدومه إلى استامبول .

وجاء يوم ٢٢ مايو سنة ١٩١٥ وغصت محطة استانبول بالناس ، ووقف على الرصيف جماعة من كبار الموظفين . بلباس التشريفة . وكان يقف بجانب السفير الألمانى ، على مسافة قليلة الأميرال « سوشون » قائد الطرادين الألمانيين المرسلين إلى الحكومة التركية من قبل الامبراطور ، وهما « جوين » و « برسلاو » ، وكان يحيط بهما أركان حرب وضباط البحرية العثمانية .

ودخل القطار السريع المحطة ، ونزل البحارة ووقفوا صفوفا . وكانت ملابسهم ظاهرة القدم بادية الترقيع ، إلا أن أسلحتهم كانت تلمع وتقدمت الصفوف بخطى سريعة قوية وعلى رأسها « فون موك » نحو الأميرال ، ثم وقفوا على مكث منه وأدوا له التحية . وارتفع صوت « فون موك » الجهورى ، يدوى كصوت « البورى » :

« نحن رجال « الأمدن » ، وأنا الضابط « هلموث فون موك » ننتظر إشارة منكم لنطيعها ! ... »

مؤلفات بنت بطوطة

أحاديث تاريخية

من تاريخ هارون الرشيد والبرامكة

فينيقيـــــه

صفحات من تاريخ البحرية المصرية فى عهد محمد على باشا

هذه الكتب طبعت بمطبعة حلبى بدمنهور

obeikandl.com